فاطمة المرنيسي

الحريم السياسي

النبي والنساء

WWW.LIILAS.COM

ترجمة: المحامي
عبد الهادي عباس

فاطمة المرنيسي

الحريم السياسي

النبي والنساء

ترجمة: المحامي

عبد الهادي عباس

Fatima Mernissi

LE HAREM POLITIQUE

Le Prophète et les femmes

جميع الحقوق محفوظة لدار الحصاد

مطبعة ألف باء الأديب

دار الحصاد للنشر والتوزيع

دمشق - برامكة - جانب سانا هـ: ٢٤٦٣٢٩
ص. ب ٤٤٩٠

مقدمة الترجمة العربية

أرى أن قضية المرأة في المجتمع العربي من أبرز المسائل المعروضة على ساحة الفكر في هذا المجتمع .. وان في علاجها من مختلف الزوايا مفتاح الحل لكثير من العقد الأخرى ، وقد كنت في دراسة سابقة تتبعت هذه القضية في عرض مقارن في ثقافات شعوب مختلفة حيث صدرت هذه الدراسة منذ بضع سنوات[1] . وقد تبين لي في معرض دراسة قضية المرأة في الحضارة العربية الاسلامية أن هنالك مفاهيم وأحكام فسرها الفقهاء في القرون الوسطى ماتزال سائدة وكأنها حقائق أزلية مع انه كان يمكن تفسيرها باتجاه تقدمي انساني أو معالجتها باسلوب آخر ..

ومن اطلاعي على عدد من المصادر وجدت أن كثيراً من الأراء التي تؤدي الى تكريس دونية المرأة في المجتمع الاسلامي لاتمت لحقيقة الاسلام بصلة .. كما تبين لي ان كثيراً من الفقهاء والمتشددين كانت آراؤهم تتغير حسب المواقف والأزمان .. وان كثيراً من المأثورات والمواقف التقليدية تتحكم بها نظرة سلفية تفسرها تفسيراً ذاتيا قابلاً للتبديل والتغيير حتى من قبل هؤلاء المفسرين

---

(١) صدرت هذه الدراسة في كتاب من ثلاثة اجزاء في دمشق عن دار طلاس في عام ٩٨٧ بعنوان (المرأة والاسرة في حضارات الشعوب وانظمتها).

ومدارسهم . . وان كثيرا من الأفكار والمفاهيم السائدة في ذهنية الرجل عن المرأة عبارة عن تراكمات وترسبات تاريخية طويلة تمتد من العصور الأخيرة للجاهلية وما قبلها في بعض الأحيان وحتى الوقت الحاضر مروراً بما مرَّ به المجتمع الاسلامي من احداث وفوضى ونزاعات دامية وتخلف وافتقار إلى الأمن والحرية . . .

وكان من بين الكتابات التي رأيت فيها نفساً جديداً في معالجة مشكلة المرأة كتابات بعض النساء المثقفات في عصرنا كنوال السعداوي وسلوى الخماش وفاطمة المرنيسي وغيرهن ممن حاولن معالجة المسألة بجرأة غير معهودة. . .

وتشاء الصدف أن أطلع بعدئذ على كتاب جديد (لفاطمة المرنيسي) ـ التي اصبحت مشهورة في كتاباتها في هذا الشأن صادر باللغة الفرنسية في عام ٩٨٨ بعنوان «الحريم السياسي» . . ومن قراءتي لهذا الكتاب الذي حررته مؤلفته المسلمة والتي نشأت في بيئة اسلامية مؤمنة ـ كما تقول ـ حررته باللغة الفرنسية وبنته كله على مصادر عربية تراثية، رأيت أنه لايسوغ ان يبقى حبيساً بما تضمنه من افكار ضمن لغة لايقرأه بها من العرب المسلمين الا النذر اليسير ، وإن من حق الجهد الذي بذلته المؤلفة من رجوعها الى المصادر التراثية الكثيرة ، ان يعرض هذا الجهد باللغة الأم لهذه المصادر ليتسنى للقارىء بهذه اللغة الاطلاع على نوع من البحث والتفسير والتخريج قد لا يكون جرى التعرض لمثله سابقاً في هذه اللغة .

إنني اذ اقدم على ترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية ، فإن ذلك لا يعني مطلقاً انني مسلم بما جاءت به المؤلفة من آراء وافكار واستنتاجات ، أو أنني موافق على ما عرضته من تفسيرات ، بل قد يكون رأيي أن هناك شطط ملحوظ في العديد من التعابير والتفسيرات والتأويلات التي تحتمل الكثير من الجدال والنقاش . ولكنني أقدمت على ترجمة هذا الكتاب لأن المؤلفة تطرح فيه بلغة اجنبية موضوعات خطيرة وتستند فيها على كتب التراث كمرجع لها فيما تعرضه ، وتتناول فيه بعض الشخصيات من الرواة والصحابة بما لايقرها عليه الكثيرون . . . وكل هذا يقتضي بل يوجب نشره في اللغة العربية لمعرفة الرأي النقيض والمخالف . الذي يتوجب فيه فتح الصدر للرأي المخالف لجلاء حقيقة ما تتباين حوله

الافكار ، ولكي لا تبقى الظاهرة القديمة الجديدة التي يعيرنا بها الاجنبي ، والتي تشكلت في الكثير منها ، في عصور القهر والتسلط والتمسك بفردانية الرأي الذي اعتقد أن الاسلام في جوهره لم يجزه بل اجاز ، على العكس منه ، الاستماع بكل حرية للرأي المخالف ، وكان الرسول الكريم في هذا القدوة الحسنة عندما أعلن للمؤمنين في زمنه بما يجب ان يعتبر قدوة في عصرنا ومعلما من معالم الطريق: انتم أعلم بأمور دنياكم.

لقد أمر الإسلام بحرية المناقشات الدينية . . ونصح المسلمين بالتزام جادة العقل والمنطق في مناقشاتهم مع أهل الاديان الأخرى وان يكون عمادهم الاقناع وقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل وفي هذا يقول تعالى مخاطبا رسوله عليه السلام : «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» (آية ١٢٥ من سورة النحل» ويقول مخاطباً أهل الأديان الأخرى : «قل هاتوابرهانكم إن كنتم صادقين» (آية ١١١ من سورة البقرة) . ولايكتفي القرآن الكريم بذلك بل يغري الكفار ، بالمناقشة والاتيان بالدليل على صحة دينهم فيتظاهر جدلاً بانه لايقطع بانه على حق وأنهم على باطل فيقول : «وأناأوإياكم لعلى هدى أو في ضلال بين» (آية ٢٤ من سورة سبأ) ويذكر التاريخ ان الكثيرين من الخلفاء من بني العباس وغيرهم كانوا يعقدون المجالس للمناقشات الدينية فيجتمع عندهم علماء كثيرون ينتمون إلى مختلف الطوائف وشتى الأديان والفرق ، يتناقشون في شؤون العقائد ويوازنون بين الأديان وكل يدلي بحجته ويبين رأيه في حرية وأمن واطمئنان . ولم يكن الخلفاء يحتملون هذه المناقشات فحسب ، بل كانوا كذلك يشجعون عليها بمختلف وسائل التشجيع ويشتركون فيها بأنفسهم .
لأن الاسلام الصحيح كما يقرره الاسلام ، هو ماكان منبعثا عن يقين واقتناع لا عن تقليد واتباع حتى ان بعض علماء التوحيد ذهب الى أن ايمان المقلد غير صحيح ، وفي هذا قال تعالى : «واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولايهتدون (آية ١٧٠ من البقرة).

ومن ميزة الاسلام الكبرى انه يبيح الاجتهاد في فروع الشريعة لكل قادر عليه وهو التمكن من الكتاب والسنة واللغة العربية وقواعد الاستنباط وهو يكفل حرية الرأي ويحمي حرية الآخر ويحترم رأيه حتى لو كان غير صحيح في نظر غيره ، أو إذا كان مجانباً للحق في الواقع . ومن المقرر في الشريعة الاسلامية ان المجتهد مشكور ومأجور في حالتي صوابه وخطئه : فإن اخطأ فله أجر وان اصاب فله اجران .

وعلى هذا المبدأ سار الصحابة والتابعون فكان كل منهم يعتمد على اجتهاده الخاص متى كان قادرا على ذلك ويبيح لغيره الاجتهاد ويحترم رأي غيره متى كان قائما على دليل الكتاب أو السنة ، بل يرجع عن رأيه ويأخذ برأي غيره اذا تبين له رجحان هذا عن ذلك ، ومواقفهم هذه كثيرة مشهورة تعبر عنها ابلغ تعبير قصة الخليفة العظيم عمر بن الخطاب الشهيرة مع امرأة صححت له خطأ فلم يتضايق عمر وقال كلمته الشهيرة : أخطأ عمر واصابت امرأة .

أما ما يلاحظ من صور شاذة من اضطهاد بعض القائلين بآراء مخالفة كايذاء الامام مالك واحمد بن حنبل وغيرهم ، فكان لاسباب سياسية وانحرافاً صريحاً عن مبادىء الاسلام . وقد دفع بذلك كل من يعتد بآرائهم من أئمة المسلمين لأن موقف الاسلام من حرية التفكير والتعبير بوجه عام لامجال للتشكيك فيه حيث أقر هذا الحق في اوسع نطاق بأن يكون للانسان الحق في أن يفكر تفكيراً حراً ومستقلاً في جميع مايكتنفه وما يتعرض له في حياته وممارساته من شؤون وما يقع تحت ادراكه من ظواهر ، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير . وباستقراء عهد الرسول الكريم والعصر الذهبي من بدايته لا نجد أية محاولة من جانب أولي الأمر للحجر على حرية الأراء الا بما فيها يعتقدون أنها تهدد سلامة الدولة أو تنشر الفتنة بين الناس وكان هؤلاء وأولئك يستوحون مايسيرون عليه في هذا الصدد من روح الاسلام ومبادئه . بل وان احترام بعض الخلفاء المتنورين لحرية الرأي كعمر بن عبد العزيز والمأمون بن هارون الرشيد وغيرهما جعلهم يتحرجون من وضع أي قيد في هذا السبيل حيث كان الناس يتناقشون بكامل الحرية وفي حضرة الخليفة نفسه وبشأن الأسرة المالكة ومبلغ استحقاقها للخلافة .

انطلاقا من هذه الأسس وانطلاقا من الايمان بأن التحدي الاكبر الذي تجابهه أمتنا العربية هو ضرورة التوافق مع روح العصر الذي هو الاحساس بايقاع الزمن المتسارع وادخاله على منظومة القيم والحياة . . الذي اشارت اليه المؤلفة في كتابها . . ومع ان المؤلفة لم تأت بجديد هام وكبير فيما يتعلق بتعرضها لتسفيه بعض رواة الحديث من الصحابة لأن كتب التاريخ والتراث حافلة بقصص كثيرة في هذا الشأن ويكفي الرجوع الى مادونه المؤرخون وكبار العلماء والكتاب في مؤلفاتهم مثل الزمخشري في ربيع الابرار وفي اساس البلاغة وشرح نهج البلاغة وبديع الزمان الهمذاني في مقاماته اذ عقد مقامة خاصة سماها (المضيرية) وشرح الاستاذ الإمام محمد عبده أمرها شرحاً لاذعاً. والثعالبي في كتابه (المضاف والمنسوب) وابجديته وغير ذلك مما اشار اليه الاستاذ محمود ابو رية في كتابه عن الصحابي المحدث ، ابو هريرة /طبعة دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثالثة عام ١٩٦٩/ وكتابه اضواء على السنة المحمدية وغير ذلك من الكتب الكثيرة المعروفة والمتداولة . .

على هذا كله اقدمت على ترجمة هذا الكتاب آملاً ان يوجد بين المفكرين الباحثين في التاريخ والفقه من العلماء ومن حملة لواء الدفاع عن التراث من يتصدى الى التقييم ـ المسؤول النابع من هموم الذين يرون خطر التحديات التي تواجه الأمة وبخاصة في نطاق الديمقراطية وفي نطاق الحريات ومنها حرية الفكر وحرية الانسان ـ الرجل والمرأة في المجتمع ، والتي يجمع الكثيرون على ان النهضة بذلك هي فعلا نهضة بالاسلام اسلام العدل والقوة والاستنارة والتقدم لا إسلام التقليد والحشو والذي يرى كثير من الفقهاء المتنورين إن الاتجاه التقليدي في ذلك ينم عن جهل بروح الشريعة الاسلامية وعمل الصحابة وآراء السلف ، وينطوي على تشجيع على إهمال التجدد الحقيقي وتعطيل العقل في فهم شؤون الدين كما ينطوي على مخالفة صريحة لما يوجبه القرآن الكريم اذ يقول : «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم» (اية ١٢٢من سورة التوبة) . والتفقه لايكون بالتقليد ، وإنما يكون بالوقوف على ادلة الأحكام واستنباط الفروع من الأصول (انظر كتاب الحرية في الاسلام للدكتور علي عبد الواحد وافي).

إن في تقييم هذا الكتاب وفي تصحيح ما تضمنه من آراء بمنطق العلم الذي حض الاسلام على طلبه فائدة كبرى على ما اعتقد ، تفوق كثيرا ما قد يتصوره البعض من ابقاء هذه الدراسات حبيسة في لغتها الأجنبية أو سجينة في المكتبات. من هذا المنطلق وحده تصديت لترجمة هذا الكتاب الذي آمل من الفقهاء المختصين المتنورين تصويب ما فيه من خطأ وتقييم ما يتضمن من افكار . . . .

المترجم

مقدمة

«هل يمكن لامرأة ان تقود المسلمين» ؟؟ سؤال وجهته للسمان الذي اتعامل معه ، والذي هو كغيره من غالبية السمانين في المغرب ، مقياسٌ حراري (ترمومتر) للرأي العام .

وقد صرخ ، متضايقاً من سؤالي رغم الصداقة التي تربطنا ، «اعوذ بالله» ، واضطرب من هول الفكرة ، فلم يتمالك امره بحيث سقطت نصف دزينة البيض الطازج من يديه والتي أتيت لشرائها .

وكان هنالك زبون يشتري الزيتون ، أخذ يتمتم : «ليحمنا الله من مصائب هذا الزمان» وبدا على أهبة الاستعداد للبصاق . كان السمان مهووساً بالنظافة وحتى اللعنة ، لا تبرر ، في رأيه اتساخ الأرض .

وتصدى للحديث زبون آخر ، وهو معلم مدرسة ابتدائية ، تعرفت عليه عرضاً عندما كنت التقي به عند بائع الجرائد ، وجابهني بحديث ، اعتبره حاسماً في الموضوع ، رواه وهو يتلمس ببطء أوراق حزمة النعناع المبللة : «لم يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» . وخيّم الصمت علينا . وخسرت الجولة .

ففي (الثيوقراطية) الاسلامية ، ليس الحديث امرأ سهلاً . إن مجموعات الحديث وثائق ، جمعت فيها تفصيلات دقيقة لكل ما قاله أو فعله النبي ﷺ .

وتشكل هذه المجموعات من الأحاديث مع القرآن المنزل ، وفي آن واحد مصدراً للقوانين ومرجعاً ومعياراً لوضع معالم تميز الخير عن الشر ، والمباح والمحرم والاخلاق والقيم .

وتركت دكان السمان خلسة دون ان انبس ببنت شفة . وماذا يمكنني أن اقول بما يمكن ان يوازن هذه الحكمة الجامعة السياسية القاسية كما هي شعبية ؟ .

وكما انني كنت في آن واحد ، حائرة مغلوبة وغاضبة ، شعرت على الفور بالضرورة الملحة لأن استوثق من هذا الحديث وان انقب في النصوص التي ورد له ذكر فيها ، وان ادرك بشكل أفضل ما له من قدرة مدهشة على المواطنين المتواضعين في دولة معاصرة .

إن نظرة تلقى على الاحصاءات الأخيرة للانتخابات في مراكش تؤكد على «نبوآت» السمان . فإذا كان الدستور يعطي إلى النساء الحق بالتصويت والترشيح للانتخابات ، فإن السياسة الواقعية لا تعطيهن سوى الحق الأول .

في الانتخابات التشريعية لعام ١٩٧٧ ، لم يعط ستة ملايين ونصف من الناخبين ، الذين من بينهم ثلاثة ملايين من النساء ، أية فرصة للمرشحات الثماني اللواتي تقدمن للانتخابات . ولم يكن هنالك أية امرأة في يوم افتتاح البرلمان ، وقد وجد فيه الرجال فيما بينهم ، تماماً كما هو الحال في المقاهي . وبعد ثماني سنوات ، في الانتخابات البلدية في عام ١٩٨٣ ، غامرت ٣٠٨ نساء وقدمن أنفسهن كمرشحات للانتخاب ، وتحرك ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف ناخبة إلى صناديق الاقتراع . ولم ينجح سوى ٣٦ امرأة مقابل ٦٥,٥٠٢ رجل[1] .

وتتوضح هذه العلاقة : مساهمة كثيفة من النساء الناخبات/عدد محصور من المنتخبات ، كعلامة تخلف وخمود في اتجاه قوالب يحافظ عليها عادة في دنيا العرب . ولسوف يكون اكثر فطنة اعتبار هذا كانعكاس لكثافة النزاعات التي تحمل في طياتها تغيرات ، بين تطلعات النساء اللواتي يأخذن دستور بلادهن على محمل الجد ومقاومة الرجال الذين يتصورون لأنفسهم ، رغم التشريع النافذ ، ان

السلطة هي بالضرورة ذكورية . من هنا كانت الفائدة بلزوم إنارة هذه الأفاق المظلمة من المقاومة ، وهذه الذهنيات العميقة . ولتفحص المدى الرمزي ، أي المتفجر ، لهذه الأشارة ، والمبتزلة من جهة أخرى ، لتصويت المرأة . ولهذا ، فإن الحادثة المزعجة التي تعرضت لها في دكانة السمان ، في حارتنا ، لم تكن رمزية بكل بساطة ، ولكنها كاشفة لسلوك مبغضي النساء ممن تحدثوا معي ، وقد دلتني على الأثر الذي يجب أن أقتفيه ، كي افهم بشكل أفضل ، النصوص الدينية التي يعرفها الجميع ولكن احداً لم يتقصاها فعلاً ، اللهم الا اذا استثنينا السلطات في هذه المادة ، الملات والأئمة .

ليس التنقيب في الأدب الديني ، عملية سهلة ، وللوهلة الأولى يُسقط في يد المرء من عدد المجلدات ، وللحال يُعرف لماذا أن المسلم الوسط لا يمكنه أبداً ان يعرف ما يعرفه الإمام . إن مجموعة أحاديث البخاري (الصحيح) تتضمن أربعة اجزاء مع شرح غامض للسندي الشحيح في معلوماته(٢) . وعليه ، وبدون شارح جيد ، سيكون غير المتخصص أمام صعوبات جمة في قراءته لنص ديني يعود للقرن التاسع (مات البخاري في سنة ٢٥٦ حسب التقويم الهجري الذي يبدأ في سنة ٦٢٢م) ، ذلك ، لأنه مِن أجل كل حديث ، يجب التحقيق من هوية صاحب النبي ﷺ الذي رواه ، وفي أية ظروف ولأية غاية قاله ، وكذلك سلسلة الرواةالذين تناقلوه ، ويوجد من الأحاديث الكاذبةأكثر مما يوجد من الصحيحة . . . من أجل كل حديث ، يعرض نتائج استقصائه ، وإذا تكلم عن زيد أوعمرو من الناس فلا بد من تفحص الصحابي المقصود ، والمعركة المقصودة وذلك لكي يتمكن من اعطاء معنى للحوار أو للمشهد المعادة كتابته . إضافة إلى ذلك ، فإنه لم يكن للبخاري راوٍ واحد ، بل كان يوجد العشرات ممن يملأون العشرات من المجلدات ، فلا يسوغ الخطأ اذن ، لأن الخطأ البسيط حول الناقل يمكن ان يكلف أشهراً عديدة من القراءة .

كيف يمكنك استقصاء الأفضل ؟ بدئياً يجب وضعه في علاقته مع أفضل الخبراء في الفقه ، الذين يعيشون في المدينة ذاتها التي تعيش فيها ؛ وذلك حسب الأدبيات والموافقات التقليدية ، وإذا تحادثت مع فقيه كي يعلمك عن مصادر

حديث أو آية قرآنية ، فهو مكلف بأن يفعل ذلك . فالعلم تجب المشاركة فيه ، حسب رغبة النبي ﷺ ذاته . لقد دلني كتاب فتح الباري للعسقلاني (المتوفي سنة ٨٥٢ للهجرة ، القرن الخامس عشر) على الكثيرين : انه يتضمن سبعة عشر مجلداً يمكن الرجوع إليها في المكتبات في أوقات افتتاحها ، الأمر الذي يبين سعة المهمة وزمن القراءة التي هي اكثر من ان تكون محدودة ، لابد ان تكون مثبطة للهمة .

إن معلم المدرسة الابتدائية الذي شاهدته في دكانة السمان كان على حق : فالحديث : «لا يفلح شعب يكل أموره إلى امرأة» يوجد فعلاً في الجزء الثالث من صحيح البخاري ، أي في تلك المجموعة التي صنفها كأحاديث أصولية ، بعد عملية حقيقية من التمحيص الدقيق والتحقيقات والمناقضات . فصحيح البخاري هو أحد المراجع الأكثر تقديراً منذ أثني عشر قرناً[3] . وهذا الحديث هو الحجة الحاسمة لأولئك الذين يريدون ابعاد النساء عن السياسة . كما نجده أيضاً عند السلطات المعروفة بتشددها مثل أحمد بن حنبل ، جامع كتاب المسند ، ومؤسس المذهب الحنبلي ، أحد المذاهب الأربعة الكبرى التي يتوازعها العالم الاسلامي السني[4] .

هذا الحديث هام جداً ، بحيث يستحيل عملياً التعرض لمسألة الحقوق السياسية للمرأة دون الرجوع إليه ، ومناقشته ، واتخاذ موقف منه . فؤاد عبد المنعم ، على سبيل المثال ، الذي كتب اطروحة عن مبدأ المساواة في الإسلام والتي نشرها في عام ١٩٧٦[5] يكرر في فصله المكرس «لمبدأ المساواة في الإسلام ومسألة المرأة» عرض كل المناقشات حول هذا الحديث ، منذ القرن التاسع ، دون أن يقيم بدءاً من هذا تصوراً شخصياً ومعاصراً حول المسألة .

هذا وان كل محاولة للتفكير حول مسألة الحالة السياسية قد افترست بالمناقشة حول هذا الحديث ، الكلي الحضور والكلي العلم .

وهناك كتاب حديث حول حقوق المرأة في الإسلام تأليف محمد عرافا يؤكد فيه انه لايوجد للمرأة حق فحسب ، بل انها لم توجد أبداً في التاريخ السياسي .

«في بداية الإسلام ، لم تلعب المرأة المسلمة أي دور في القضايا السياسية ، رغم كل ما اعطاه لها الإسلام من حقوق غالبا ما كانت مماثلة لما اعطاه للرجل من

هذه الحقوق . ففي اجتماع سقيفة بني ساعدة ، حيث تشاور صحابة النبي ﷺ بعد موته لتعيين خليفته لم يشر مطلقاً لأية مساهمة نسوية . ولا يوجد لدينا أي اثر لمساهمتهن في تعيين الخلفاء الأصوليين الثلاثة الآخرين، ويجهل تاريخ الإسلام برمته مساهمة النساء إلى جانب الرجال في توجيه أعمال الدولة ، سواء أكان ذلك على مستوى القرار السياسي أم على مستوى التخطيط الاستراتيجي»[٦]. . .

ما يفعله الكاتب اذن بعائشة ، زوجة الرسول ، التي قادت مقاومة مسلحة ضد الخليفة الذي كان يحكم عندئذ ؟؟ انه لا يستطيع تجاهلها دون ان يفقد مصداقيته ، لأنه يرجع للسنوات العشر الأول من الإسلام . مات الرسول ص في المدينة يوم الأثنين في ٨ حزيران ٦٣٢*، ولم يكن عمر زوجته عائشة آنئذ سوى ١٨ سنة ، وقد نزلت إلى ساح القتال في سن ٤٢ ، على رأس جيش كان يعارض شرعية الخليفة الأصولي الرابع ، علي . لقد مضى هذا إلى البصرة في كانون أول ٦٥٦ (جمادى٢ من سنة ٣٦هـ) . أفليست مساهمة في الحياة السياسية ، معارضتها للخليفة وهي تحرض السكان على العصيان ، وعلى الحرب الأهلية ؟؟ .

لقد لعبت عائشة بالفعل دوراً حاسماً في حياة الخليفتين ، وساهمت في عدم استقرار الخليفة الثالث عثمان ، ورفضت ان تقدم له المساعدة في الفترة التي كان محاصراً فيها من قبل المتمردين ، في منزله الخاص . لقد تركت المدينة أثناء الحرب الأهلية لكي تؤدي فريضة الحج إلى مكة ، رغم احتجاج العديد من الأعيان الذين يحيطون بها . أما بالنسبة لعلي ، الخليفة الرابع ، فإنها ساهمت في اسقاطه آخذة قيادة المعارضة المسلحة التي تنكرت لشرعية خلافته . ولسوف يسمي المؤرخون هذه المواجهة «حرب الجمل» ، استناداً لما كانت تمتطيه عائشة ، مبتعدين هكذا عن أن يربطوا في ذاكرة صغار المسلمات اسم امرأة باسم معركة . مع ذلك لا يمكن محو عائشة من تاريخ الإسلام ، ولا يستطيع مؤلفنا تجاهلها : «صحيح إن عائشة حاربت علياً بن أبي طالب في معركة الجمل (. . .) ولكن هذا العمل

---

* ٦٢٣م . كل الاعداد الواردة في هذا الكتاب من ٦٢٢ وما فوق والدالة على التقويم ، يقصد بها التقويم الميلادي .

الفردي من صحابية (. .) لا يمكن الادعاء به ، من أجل اضفاء الشرعية على مساهمة النساء في الأمور السياسية» ، نظراً لأن صوت الله ورسوله واضحاهنا فوق كل شيء . زد على ذلك ، أنه لا يجب النسيان ان هذا العمل الفردي من عائشة اعتبر من قبل غالبية الصحابة كخطأ ومدان من قبل زوجات النبي ص الأخر . . . وعلى كل حال فإن عائشة بذاتها قد ندمت على هذا العمل . وإذن فإنه من غير المسموح به اعادة الاحتجاج بتجربة عائشة التي اعتبرت كبدعة في الاسلام» . وكل بدعة ضلالة وانتهاك فاضح للسنة المقدسة .

وهناك مؤرخ معاصر آخر ، سعيد الأفغاني ، اختار عائشة كموضوع لبحث استمر عشر سنوات بهدف ، كما يقول المؤلف ، تنوير المسلمين عبر هذه السيرة حول مسألة أصبحت ملحة منذ التكلم بالتحديث ، أي مسألة علاقة المرأة بالسياسة . وقد ظهرت هذه السيرة لعائشة لأول مرة سنة ١٩٤٦ ، مع عنوان واضح حول موضوعها : عائشة والسياسة[٨] . ويرجع الفضل الى سعيد الأفغاني لنشره نصين أساسيين آخرين عن عائشة لم يوجدا حتى ذلك الحين إلا تحت شكل مخطوطين غامضين . أولهما مجموعة مناقضات وتصحيحات أدخلتها على بعض الأحاديث والتي هي في رأيها كانت رويت بشكل سيء من قبل الصحابة[٩] . والنص الثاني هو مؤلف خاص بسير النبلاء للذهبي ، المكرس لسيرة عائشة[١٠] . بحرص الأفغاني على نشر هاتين الوثيقتين ، ساهم بدون شك ، بصفته مؤرخاً بتوضيح شخصية عائشة ، مع ذلك ، فإن النتيجة التي توصل إليها ، هي انه يجب بشكل مطلق منع النساء من العمل في السياسة . فالنساء والسياسة يشكلان خليطاً سيئاً . وبالنسبة له ، فإن مثال عائشة يقا م ضد مشاركة النساء في ممارسة السلطة . فعائشة تثبت «أن المرأة لم تخلق لتدس أنفها في السياسة»[١١] وهو يرى «ان دم المسلمين قد أريق ، وألوف صحابة النبي(ص)قد قتلوا . . . وان العلماء وأبطال الفتوحات والقادة البارزون ودعوا حياتهم . . . إلخ»[١٢] وان ذلك كله كان نتيجة تدخل عائشة في السياسة . ان عائشة ليست الوحيدة المسؤولة عن الدم المراق في موقعة الجمل التي طعمت شرخ العالم الاسلامي بقسمين (سنة وشيعة) وانها وجهت بذاتها كل الخسائر المحتملة فيما بعد في تلك التي تتابعت . «في ذلك

اليوم ، يوم موقعة الجمل قتل ١٥ ألف شخص حسب التقديرات الأقل مبالغة ، وكل ذلك خلال بضع ساعات. والأفضل بالنسبة لكم (أيها القراء) ان تتجاهلوا ما حصل بعدئذ في موقعة النهروان ، وموقعة صفين وفي كل المعارك الأخرى حيث ادرنا سلاحنا ضد بعضنا البعض . . . ولنقل انه ، صحيح قبلاً ، ان الله كان جمع صفوف المسلمين وحقن قلوبهم بالبغضاء. . »[١٣].

ان الأفغاني على قناعة بأنه لولا تدخل عائشة في القضايا العامة للدولة الاسلامية «لكان التاريخ الاسلامي اتخذ طريق السلام والتقدم والرفاهية»[١٤] . وفي رأيه ان الله أراد بتجربة عائشة ان يضرب مثالاً للمسلمين : «لسوف يقال ان الله خلق النساء لانتاج العرق ، وتعليم الأجيال ، وإدارة المنازل ، واراد ، اعطاءنا درس عمل لايمكن ان ننساه»[١٥]. «موقعة الجمل منارة في تاريخ المسلمين »، «انها حاضرة هنا في النفوس لتضع المسلمين في حالة احتراس ، في كل مرة يحاول فيها تيار ان يقلد بعماء قوميات أخرى ، طالباً بالنسبة للنساء حقوقاً سياسية ، ويظهر نفسه بينهم»[١٦] . «ان ذكرى عائشة هي مايجب التفكير به اكثر من أي وقت مضى ، في أيامنا ، إنها ذكرى لاتتوقف عن القول إلى المسلم : انظر كم فشلت هذه المحاولة وسط تاريخنا الاسلامي . وليس لنا ان نكررها بدون تعقل . ليس لنا ان نريق الدم من جديد . . وان ندمر الأسر الجديدة . . كيف يمكن عمل شيء مماثل لعمل عائشة الذي لايزال حياً؟»[١٧]. ان هذه المهمة التي اضطلع بها الأفغاني ، مكرساً شطراً من حياته لتحبير سيرة مليئة بالدروس بالنسبة للمستقبل ، قد كوفئت مجدداً بنجاح حيث اعيدت طباعة الكتاب في بيروت سنة ١٩٧١ .

لكن في أية مصادر من التاريخ الاسلامي استطاع الأفغاني ان يقرأ ، ان هذه المرأة التي «لامثيل لها لا بين النساء ولا بين الرجال في عصرها» ، وذلك حسب شهادة معاصريها ، انها كانت قاتلة ومتآمرة ؟ . . من لدن أي مؤلفين امتاح معلوماته التي ترى ان عائشة هي المسؤولة عن الدم المراق في العالم الاسلامي منذ ٤ كانون أول ٦٥٦م وعلى الأخص ، في أي من مصادر التاريخ الديني استخرج الحجج التي تسمح له أن يعمم ، وان يمر من حالة عائشة إلى حالة كافة النساء

الأخريات ، مجرداً هكذا ملايين المواطنين من حقهم السياسي ؟؟. في اية صفحات من تاريخنا الاسلامي الذي وثق كتابيا ، وجد بصفته مؤرخاً وخبيراً العناصر التي تؤهله لاقصاء النساء من الحياة العامة ويقصيهن في المنازل ويحط بهن لدور صامت دور المتفرجات ؟؟.

لقد استغل الأفغاني الاسماء الكبرى في الأدب الديني الاسلامي وبخاصة الطبري ، أحد المعالم الكبرى الأكثر حصانة من ان يهاجم من هذا الأدب : «هذاالمؤلف الذي ، تمتع ، بين المؤرخين ، بشهرة لا مثيل لها ، وبأمانة ، وشرف لا يمكن جحدها ، ومرجعاً رئيسياً بالنسبة لكل من تلاه في مهنة التأريخ . . .»[18] .

إن المجلدات الثلاثة عشر من تاريخ الطبري هي بالفعل علامة ولوحة جدارية باهرة بالنسبة لكل أولئك الذين يعرفون خطوات الاسلام الأولى . ولكن القارىء يعلم من الصفحة ٥ ان الطبري لم يشرع في كتابة تاريخه الا من أجل اكمال تفسيره للقرآن الذي لا يتضمن أقل من ٣٠ ألف صفحة .

إن كتابه عن التاريخ ليس سوى خلاصة لتفسيره الذي اكمله بانقاصه إلى ٣٠ مجلداً . كم هو عبء ضخم وثقيل على من يريد الرجوع إلى المصادر! لقد قرأت وانا مسلحة بارادة شرسة للمعرفة ، الطبري والمؤلفين الآخرين وبخاصة ابن هشام كاتب السيرة ، سيرة الرسول ، وابن سعد مؤلف الطبقات وابن حجر مؤلف الإصابة في تاريخ الصحابة ومجموعة احاديث البخاري والنسائي . . وذلك من أجل ان اعرف وأوضح سر هذا العداء للنساء الذي يتوجب على النساء المسلمات مواجهته في عام ١٩٨٦[19].

إن النبي محمد ﷺ ، هو أحد الشخصيات التاريخية المعروفة أكثر في تاريخنا ، ونمتلك معلومات غزيرة تتعلق به ، تفصيلات حول الطرائق التي كان يوجه بها الغزوات ، وأيضاً ، أوصافاً لا يمكن احصاؤها عن حياته الخاصة . كيف كان يتعامل مع نسائه ، ومشكلاته الزوجية ، وأكلاته المفضلة ، وما يضحكه وما يغضبه إلخ . . . ان تشويه شخصيته لا يمكن في بلاد مسلمة حيث يبدأ التعليم الديني من قبل دخول المدرسة ، مع ذلك يمكن للمسلم الخبير أن يؤكد

بأن النبي محمد ص قد اقصى النساء عن الحياةالعامة وعزلهن في المنزل ، ولكنه بتأكيده هذا يكون قد مارس عنفاً لم يسمع به حول محمد (ص) بصفته شخصية تاريخية نحوز عنه وثائق لا حصر لها . والسؤال الذي يطرح نفسه عندئذ هو الآتي : في أي مقياس يمكن تأويل النصوص المقدسة ؟؟.

إن النص المقدس لم يجر تداوله فحسب ، بل ان تداوله هو خاصة بنيوية لممارسة السلطة في المجتمعات الاسلامية . فككل سلطة ، منذ القرن السابع عشر ، لم تكن تبرر الا بالتدين ، دفعت المغامرات السياسية والمصالح الاقتصادية إلى تصنيع احاديث كاذبة . ان الحديث المختلق هو شهادة تثبت ان النبي ﷺ كان قد قال هذا أو فعل ذلك ، الأمر الذي يسمح على الفور باضفاء الشرعية على مثل هذا الفعل أو هذا الموقف . وحسب الظروف والمغامرات والضغوط السياسية ، فإن المؤتمنين على الخطابات الدينية قد ابعدوا الاحاديث التي كانت تضفي الشرعية على بعض الامتيازات وصنفوا حائزيها لدرجة انه ، منذ الأجيال الأولى شعر الخبراء بضرورة انشاء علم لكشف الأحاديث المصنعة . فالإمام الحنبلي ابن قيم الجوزية ، حاول احصاء بعضها لكي يبرهن على تقنيّة تصنيع الاحاديث المختلفة ، وهو يستند إلى تحليل مضمونها . ان عدداً كبيراً من بينها يبرز من السخف وليس من الاستراتيجية السياسية فقط ؛ كان النبي(ص) قدنصح رجلاً عاقراً أن يأكل الكثير من البيض والبصل ، وقال «إن على المؤمن ان يأكل من الحلويات ، وان النظر إلى الوجه الجميل جداًنوع من العبادة ، إلخ . . .»(٢٠) .

وسوف يلاحظ عبر حالة البخاري ، أحد المؤسسين ، في القرن التاسع ، لعلم الإسناد ، كيف إن المسلمين طوروا هذا العلم من الكشف للاحاديث التي تنتمي إلى تقنية المقابلة ، والعمل على الطبيعة (لكسف غيرة وحسد علماء الانتروبولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر) ، وذلك ما يتيح لنا أن نلاحظ بأن العهد المعاصر قلما يشكل استثناء ، عندما يتعلق بالتنكر للامتيازات والمصالح في سنة النبي الكريم .

هذه النقلة في الزمان التي اعددت نفسي لها ، لم تكن ، على ما اعلم ، دون أخطار . فلا يسافر إلى الينابيع للشرب ، وانما من أجل احتفالات قدسية أكثر

غموضاً ، مثل كل ما يتعلق بالذاكرة و«كل احتفال بسر ، كما يقول (جينيه) ، هو خطر ، محرَّم ، ولكن له محله ذلك هو العيد»[21] .

إن التذكر ، وبخاصة الانزلاق في الماضي ، هو في أيامنا نشاط مراقب على مستوى عال . خاصة بالنسبة للنساء المسلمات . فجواز السفر ليس حقاً دائماً . والتذكر كالسحر الأسود ، لا يجري فعلاً إلا على الحاضر . وهذا ، بتداول دقيق لضده : زمن الأموات ، زمن الغائبين ، زمن الصمت الذي يمكن ان يقول كل شيء . ان الماضي النائم يمكن ان ينعش الحاضر ، وتلك هي فضيلة الذكرى . السحرة يعرفونه ، والأئمة كذلك .

إن الخوض وحيدة في الذاكرة ، دون حراس وأدلاء : وسلوك الشعاب الغير محرمة ، سوف يكون تصرفاً طفولياً ، الا انه بكل بساطة مدعاة للسرور ، وعمل له لذته ، وان كان غير مألوف كثيراً ، وهو مايزال غير مكتشف ، وربما كان ذلك لأن السلطة لم تمر بهذا . فهل التسكع ، على هوى القراء ، في البراري الواسعة من الذاكرة الاسلامية التي هي ذاكرتي ، عمل مؤثم ؟؟ الم يقل القرآن ، حسب لسان العرب (المعجم المحترم) «اقرا» بكل بساطة ؟ ولكن أيمكن ان لا يقرأ قط «بكل بساطة»نص تجتمع فيه السياسة مع المقدس ، ويجتمعان ويذوبان فيه لدرجة يصبحان غير متميزين ؟ ليس الحاضر لوحده الذي شاء فيه الأئمة والسياسيون ان يسوسوا الأمور ليضمنوا سعادتنا بصفتنا مسلمين ، انه بخاصة الماضي الذي روقب بإحكام وشدة والذي بالكلية أدير من أجل الجميع ، من أجل الرجال ومن أجل النساء . وفي الواقع ان الذي جرت حراسته ، وادارته ، هي ذاكرة التاريخ . . فلم ينجح أحد حتى الآن في منع الوصول إلى ذاكرة ـ الذكرى . فهذه كقبلات المراهقة تتخلص من المراقبين الذين لا يعرفون طعمها . ان ذاكرة ـ الذكرى فاتحة من التمتع ،وتتكلم لغة الحريات والانشراحات .انها تحدثنا عن نبي ـ عاشق ،بشر في وسط صحراء بلغة غريبة عن عشيرته ـ الأم وسيفه الأب . انها تحدثنا عن نبي قال اشياء عجيبة : لا عنف ومساواة . وتحدث لارستوقراطية متعجرفة مهووسة برمي السهام .

هذا الكتاب ليس هو بكتاب تاريخ فالتاريخ هو دائماً لغة جماعة . حكاية عرض تخاط تحت اغطية ذهبية وتعرض عند طقوس التبريك الذاتي . هذا الكتاب يريد لنفسه ان يكون قصة ـ ذكرى . انزلاق نحو أمكنة تنسحب فيها الذاكرة ، وتعتم التواريخ وتتلاشى الاحداث ببطء ، كما في الأحلام التي تحمل لنا القوة .

هذاالكتاب ـ السفينة لا يرجع إلى القرون إلا من أجل ان يستخرج عصارة أسطورية تعمل على انبات الاجنحة وتتيح لنا الانزلاق صوب الكواكب الجديدة ، صوب العصر الذي هو في آن واحد بعيد وقريب من بداية الهجرة ، حيث تمكن النبي ﷺ ان يكون عاشقاً وموجهاً معادياً للأرستوقراطية ، وحيث كان للنساء دورهن مشاركات دون نكران في ثورة جعلت من الجامع مكاناً مفتوحاً ، ومن الأسرة معبداً للجدل .

لنرفع الحجب حجب قارب ـ الذكرى ، ولكن بدئياً ، حجب معاصرينا التي تزيف الماضي لكي تحجب عنا حاضرنا .

مراجع وهوامش المقدمة

١ ـ النساء المراكشيات في التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، في عشر سنوات ١٩٧٥ ـ ١٩٨٥م المملكة المغربية ، وزارة الصناعات اليدوية والقضايا الاجتماعية ـ الرباط ١٩٨٤ .

٢ ـ صحيح البخاري ـ مجموعة احاديث صحيحة ، طبعة مقدمة مع شرح السندي ، دار المعرفة بيروت ١٩٧٨ . والحديث الذي رواه معلم المدرسة المشار إليه ورد في المجلد /٤/ ص ٢٢٦ .

٣ ـ ابن حجر العسقلاني : هدى الساري مقدمة فتح الباري ، المسمى عادة فتح الباري ، المتعلق بنص البخاري مشروحاً من قبل ابن حجر . وكما استعملت طبعتين مختلفتين ، حسب المكتبة طبعاً وسوف اشير في كل مرة للطبعة المستعملة . أما بالنسبة للحديث الذي يهمنا حول ضرورة اقصاء المرأة عن السلطة ، فإننا نجده تباعاً في الصفحة ٦٦ق من المجلد ١٣ طبعة المطبعة البهية المصرية (طبعة ١٩٢٨) وفي الصفحة ١٦٦ من المجلد /١٦/ من طبعة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاه (طبعة ١٩٠٩) .

٤ ـ قسم العالم الاسلامي إلى قسمين ، سنة (اصوليون) وشيعة (تعني حرفياً مشايعون انفصاليون) . ولكل جماعة في مادة الفقه بصفته مصدراً للشريعة ، تشريع وقانون ، نصوص مميزة . ويقسم السنيون إلى أربعة مذاهب المالكية الذي يتبعون مالك بن أنس (٧١٧ ـ ٧٩٥م) والحنفيون يتبعون أبي حنيفة (توفي في ٧٦٧م) والشافعية يتبعون الشافعي (مات في ٨٢٠م) وأخيراً الحنابلة اتباع أحمد بن جنبل (توفي في ٨٥٥م) . والفوارق بينهم تحمل على الأكثر على بعض التفصيلات البسيطة للصياغات القانونية .

٥ ـ مؤسسة التكايا الجمعية ـ الاسكندرية .

٦ ـ محمد بن عبد الله بن سليمان عرافا ، حقوق المرأة في الإسلام ، المكتب الاسلامي ـ طبعة عام ١٩٨٠ ـ لم يذكر فيه مكان الطبع ص ١٤٩

٧ ـ ذات المرجع ص ١٥٠ .

٨ ـ سعيد الأفغاني عائشة والسياسة ـ دار الفكر ـ بيروت الطبعة الثانية ١٩٧١ .

٩ ـ الامام الزركشي الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة ـ المكتب الاسلامي بيروت الطبعة ١٩٨٠ .

١٠ ـ الذهبي (سير النبلاء) . دار الفكر بيروت طبعة ، ١٩٦٩ .
١١ ـ سعيد الأفغاني ـ ص ٣٢١ .
١٢ ـ ذات المرجع ـ ص ١٤٢ .
١٣ ـ ذات المرجع ـ ص ٣٤٨ .
١٤ ـ المرجع ذاته ـ ص ٠ .
١٥ ـ المرجع ذاته ـ ص ٣٤٢ .
١٦ ـ المرجع ذاته ـ ص ٢٤٦ .
١٧ ـ المرجع ذاته ـ ص ٠ .
١٨ ـ المرجع ذاته ـ ص ٨ .
١٩ ـ انظر ملحق هذا الكتاب ـ المصادر .
٢٠ ـ ابن قيم الجوزية المنار المنيف في الصحيح والضعيف ـ مكتبة المطبوع الإسلامية حلب ، ١٩٨٢ ص ٢١٣ (مات المؤلف في ٧٥١ للجهرة القرن الرابع عشر . م .
٢١ ـ اوسير العاشق ـ غاليها ـ ١٩٨٦ ص ، ٤٩٥ .

القسم الأول

النص المقدس
كسلاح سياسي

- ١ -

المسلم والزمان

يعاني المسلمون من «داء الحاضر» ، كما تعاني الشبيبة الرومانتيكية الأوروبية من «داء العصر» ، والفارق الوحيد هو ان الشبيبة الرومانتيكية الاوروبية تعيش صعوبتها لتكون في الحاضر كتقزز من العيش ، في حين اننا ، نحن المسلمين نعيشها كرغبة موت ، رغبة ان نكون غائبين ، ان نكون في أي مكان آخر . وان الهروب نحو الماضي هو طريقة ليكون المرء فيها غائبا . انه غياب انتحاري .

ان أحد اسباب النجاح للمفكرين المغاربة أمثال محمد الجابري وعبد الكبير الخطيبي ، انهما استطاعا كسر الهرير الجنائزي حيث ربط المسرح العقلي للعالم العربي منذ هزيمة ١٩٦٧ ، وذلك بأنهم ساعدونا للكلام عن زمن الجراح . ليس من أجل العويل وعيوننا مثبتة على الغير ، وعلى التفوق العسكري للغرب العدو ، وايجاد العذر للتلاشي في الماضي ، بل من أجل اعادة البحث عن ذاتنا ، كطاقة تبحث عن نطاق لتنتشر : فيوضح الخطيبي ، «إن الذاكرة هي في المصير ، إنها تراكم النجاحات التي تعطيها لها الحضارة العالمية لتفكر . انها باكتشاف افكار جديدة وممارسات جديدة تتعلم ادارة الفراغ ، بشكل افضل ، وكذلك الزمن وقوتها الحياتية . إن الوضع الأفضل ، الاكثر تواضعاً والأكثر فاعلية ، هو التدريب[١] . . » . غير ان النصح بالتواضع لعالم عربي مهان حيث يضع السياسيون

على الفضيلة والاحلام الكبرى ، اساطير عظمة ماضية ، يشكل بلبلة لاحد لها . ومن المعروف مدى التنافر الكلي بين الخطابات المفخمة للسلطة والتحليلات الذرائعية لأولئك المثقفين من بين الذين يختارون ان يتكلموا بدلا من أستخدامهم صندوق صدى لهذيان الرؤساء . وقلما يخطىء محمد الجابري وهو يعرض بجرأة ، أن اولئك الذين يقرؤون السمو في النصوص القديمة ، أنهم بكل بساطة يهلوسون .

وحسب رأي الجابري ، ان القارىء العربي ، التفت الى الماضي كي يمتاح القوة التي لم يعطه إياها الحاضر . «انه يقرأ في الماضي آماله ورغباته . إنه يريد ، كما يقول الجابري في كتابه ، /نحن والتراث/ : «أن يجد فيه العلم ، العقلانية ، التقدم الخ . . أي انه يبحث فيه عن كل ما لديه من مساوىء ليسيطر عليه في الحاضر»[٢] وسواء أكان ذلك على مستوى الواقع أو الحلم ، فإنه يلتفت نحو الماضي من أجل كل ماينقصه في الحاضر».

انه يبرهن بلباقة جارحة في كتبه الحديثة حول عملية تكوين العقل العربي ، ان التراث الأكثر أهمية الذي تركه لنا الاجداد هو نوع من الرقابة الكلية العلم تماما والفاعلة ، حيث يتعاون بإحكام ، السياسي والمتدين ، وبحيث ان العقل قد توصل الى ان يمتزج مع هذه الرقابة ذاتها[٣] . ويوضح لنا الجابري إحدى اسرار المسرح الاسلامي المعاصر : الحضور العجيب للمتدين والامام في نطاق الانتاج الفكري . ويمكن التساؤل ، بفاعلية ، لماذا؟ اليست العلمانية هي التي تسود وهي التي اتخذت كمراجع من قبل «السياسات» ، وطالما ان مسألتنا الأكثر الحاحا هي تطبيق هذه التكنولوجيا التي تفرض نفسها علينا ، حتى الحاضر ، كحاجة قدرية لان نستهلكها في القصور الذاتي الأكثر شمولاً؟؟ . ويعطي الجابري في كلا الجزئين من كتابه مراجع تاريخية واسعة ، تثبت ان السياسات سرعان ماقدمت في الاسلام حسابا بأنها لايمكنها ان تسوس الحاضر بشكل تسلطي الا بفرضها السلف ، الماضي ، كمرجع مقدس : فكان عصر التدوين في رأيه ، نقطة الانطلاق لتأسيس الرقابة . لقد جعل هذا العصر يقلع في سنة ١٣٤ من الهجرة (القرن الثامن) عندما بدأ علماء المسلمين يفهرسون الحديث (اعمال واقوال

الرسول) والفقه والعلم الديني والتفسير (شرح القرآن) ، بناء على طلب عاجل من السلطة العباسية ، وتحت رقابتها[4] . لقد كان ذلك في ظل حكم الخليفة العباسي المنصور الذي حكم من سنة ١٣٦من الهجرة الى سنة ١٥٨ . . في قراءة الجابري، ينبعث الحاضر الاسلامي عبر معارف عقلية فريدة من نوعها . ان ولع السياسيين المحدثين بالنسبة للأجداد ، حيث قرنت عبادتهم في التقليد العربي بتأسيس التسلطية ، أصبح أمراً مريباً جداً في وقت نحن فيه بأمس الحاجة اكثر من أي وقت مضى لأن نراقب بشدة طاقاتنا الراهنة . لماذا هذه الرغبة بتوجهنا نحو الزمن الميت ، في الوقت الذي تكون فيه المعركة الوحيدة المتوجبة هي معركة المستقبل؟؟

ان المجتمعات التي تهددنا في هويتنا قد بهرت نهائيا بالمستقبل ، وجعلت منه علما، بل يمكن القول ، سلاحاً للهيمنة والرقابة .

يرى سيرج موسكوفيتش في تحول الزمان ذات الجوهر الذي جعل من الغرب الحضارة الفلكية القائمة الآن . حضارة تفرض نفسها كما لو أنها لايمكن مقاومتها وتصمغ بمجانسة كل الحضارات الأخرى : «واذا لاحظنا ما مر منذ قرن ، نجد ان الحضارة الغربية هي بحق اول حضارة زمنية ، اي اول حضارة يلعب فيها الزمن دوراً حاسماً وبخاصة كمقياس للاشياء ، فكل شيء يقاس في أوقات زمنية : العمل ، المسافات ، التاريخ (. . .) نوقت كل شي (. . .) كذلك نوقت حتى الاشياء التي كان يظن أنها هربت في الفراغ : كمفهوم السرعة مثلا ، الذي هو الهاجس رقم واحد في حضارتنا . انها طريقة لتوقيت الفضاء[5] ان المجتمع الغربي ما بعد الصناعي يجبر الثقافات الأخرى لتصطف على ايقاعه . فبالزمن الايقاعي توحد انماط التصرفات ، كيفما كان المكان والثقافة ، التي يظهر فيها الغرب سيادته في أيامنا . نهاية زمن الجيش الاستعماري ومسرحية الاستعراضات أمام مقر القيم العام . كل هذا أصبح من الماضي . في ايامنا ، تسللت الهيمنة بالوجود المألوف للساعة . إن الضجة الشاذة لساعات الكوارتز ، التي تقطع حديث عربيين في كل ساعة ، في لطافة امسيات طرابلس أو الرياض ، توضح في عبثيتها ذاتها الوجود الكوكبي للشكل الجديد من الاحتلال . في هذا التوقيت ، الذي هو بين أمور أخرى ، انخفاض لقيمة الجغرافيا السياسية

ابدلت رقابة المكان التي كانت الأساس والجوهر للقوة السياسية والاقتصادية لأمة من الأمم ، ابدلت في أيامنا برقابة الزمان . فرقابة الزمان ، هي التي تؤسس اليوم هذه القوة . ليس البترول المتوضع تحت ترابكم هو الذي انشأ ثروتكم ، ولكنها رقابة السرعة لعمليات التسويق الضرورية لكي توضعها على السوق .

إن الجغرافية السياسية كانت علماً محوراً حول الدفاع عن المحسوس ، الاقليم ، الحدود والثروات الموجودة . اما في أيامنا فقد ابدلت بقوانين التحليل السياسي ، ومشهد زمن حيث تمر السلطة بالمسيرة من أجل رقابة السائل : فيض المؤشرات ، حركة المعلومات والسيولات تعدد الجنسيات هو التجسيد لهذا الشكل الجديد من الهيمنة ، حيث لم يعد ممثلو اللعبة السياسية محددين بالمكان . فالحدود الوطنية اصبحت قديمة مهجورة وهزئية . ان السلطة والسيادة تستعملان لغة اخرى : «انهما يعرفان بصفتهما مشروع استثمار . ومفهوم الاستثمار ذاته مفهوم زمني : اتباع دورات الانتاج والمبادلات . الخ . .»[1] . لم تعد الامبريالية الجديدة التي تحكمنا نحن الغير غربيين ، تظهر بالاحتلال المادي . الامبريالية الجديدة ليست بذاتها اقتصادية ، انها اكثر خداعاً انها طريقة الحساب ، والتعداد ، والتقييم . لقد انتهت الاغاني الوطنية القديمة العزيزة علينا والتي كانت «القت بالعدو خارجا» . ان العدو متجذر في آلتنا الحاسبة الصغيرة . انه في رأسنا ، انها طريقتنا في الحساب ، في الاستهلاك في الشراء ، وفي التعداد . ان المتعدد الجنسية يجبرنا على تشخيص المرض ، وعلى التنبؤ ، والبرمجة حسب نماذجه والمفردات اللغوية التي نستعملها من أجل ميزانياتنا الوطنية هي مفردات لغته : استثمار ، استهلاك دين . . فأميركا ليست الآن بحاجة لأن تحتل البلدان الاسلامية كي تجعلها تستكين . إن لفايتنام الجديدة التذوق الخيالي للدين والأصوات البعيدة للتلفون ، لخبراء البنك العالمي ولرؤوس الأموال الدولية . ان الغرب «المخدّر بالمصير» يتأرجح في المستقبل ويجبرنا جميعاً أن نتحقق أنه ، من أجل رفع تحديه ، يجب علينا ان نقاتل على الارضية التي اختارها : الحاضر .

الزمن الموجه ، ذلك هو تحدي هذا القرن . زمن موجه في الاتجاه السيء ، الزمن الذي يقلقنا : انه اتجاه المستقبل . انه الزمن المُسيَّر نحو الامام ، والذي

يختلط مع المكوكات الفضائية والمدفوعة نحو فضاء مابين الافلاك ، انه حاضر لايكاد يتميز عن مستقبل يعرف ويقيم بالنسبة اليه . كيف نعيد العمل نحن مع تسارع الزمن هذا ، ومع هذا الدفع للحاضر في المستقبل؟؟

هل يكون هذا بانزلاقنا ، متألمين ، جرحى وبشكل طفولي ، نحو الأصل ، نحو ماض مخدِّر حيث كنا محميين ، وحيث كنا نهيمن على مشرق ومغرب الشمس . هل نتزلق كبهلوانات على الحبل المشدود الى زمن سيء . زمن موجه بشكل سيء ، زمن يتجه صوب الاموات . الزمن العلقي الذي يقودنا نحو وليمة الاجداد ، وليمة جنائزية لحاضرنا البائس . ان استضافة الاجداد من وقت لآخر يمكن ان يعيدوا غناءنا ، ولكنهم اذا استقروا بيننا ، فإنهم سيفترسون الفجر والشمس ، ويردون الأحلام الى هزيان .

ليس المسلمون وحدهم مروعين بفقدان الذاكرة، فالغربيون يعانون ايضا من ذلك : «فمما لاشك فيه ، ان الفرنسيين الذين كانت الأزمة قد أوقفت حركتهم منذ عشر سنوات ، عكفوا على ان يلمحوا بكياسة وحنو انغاماً مفترضة للماضي . فلكل شيء ذريعة . الفراغ والتسلية ، فمن البطاقة البريدية ١٩٠٠ الى ثياب الجدات ، ومن شجرة نسب الهواة الى الانعاشات الريفية ، تمكنت جميعها من أخذ مسيرتها الرجعية الى الماضي»(٧) . وكشاهد على ذلك طرفة المارشال ماكلوهان ، الاختصاصي بالخزفيات ، حول السيد الذي لم يعد يتذكر من هو :

ـ من أنت؟

ـ أنا ، بصعوبة أعرف ، ياسيدي ، حقا الآن ، في الماضي ، اعرف من كنت عندما استيقظت هذا الصباح ، ولكنني أظن انه يجب ان أكون قد تغيرت عدة مرات منذئذ.(٨).

لايوجد فارق بيننا وبين الغربيين سواء على مستوى الحساسية تجاه التغيير ، او تجاه الزمن ، وقلق الزمن الموجه الذي يصرف نحو الموت .

صحيح ان مستقبل كل واحد منا هو الموت ، ولكن دورنا أليس هو العمل لتغيير العلامات، بأن نضع الموت للوراء ، بأن ننقد الاجداد ، ونسير بخطوات كبرى نحو مستقبل حيث يمكن ابداعه، أو اعادة صنع عالم يبرر الحياة فيه؟ ان

مايميز الغرب الحديث انه نجح في حجب انبهاره بالنسبة للموت بانبهاره بالنسبة للمستقبل ، محرراً بهذا طاقاته الخلاقة . ولكن المسلمين المحدثين تحت جاذبية مالايعرف من ألم تحت ارضي ، يفضلون ان يموتوا حتى قبل ان يعيشوا ! ان الفارق بين الغرب وبيننا يوجد في الطريقة التي نستهلك فيها الموت والماضي . فالغربيون يجعلون من ذلك حلوى ، أما نحن فنحاول ان نجعل منه الصحن الرئيسي . الغربيون يستهلكون الماضي كتسلية ، كتمضية وقت ، وذلك لكي يريحوا انفسهم من وطأة الحاضر ، اما نحن فنستبسل لنجعل منه، مهنة، الهاما وأفقا . وبقوة مانستدعي الاجداد على الفور ولكل شيء ، نعيش الحاضر كفاصل ترفيهي وجذاب قليلا. على حد عائق بغيض.

يشرح لنا الجابري بلباقة ونعومة، أن بحثنا المرضي عن الماضي يمنعنا من قراءته. وبرأيه اننا غير مؤهلين لقراءة هذا الماضي ، الذي ننشده كصلاة سحرية ، لأننا منشغلون جدا كي نضع على صفحاته همومنا الحالية . «القارىء العربي المعاصر ، يعاني من عدم ملاءمته مع العصر الذي يهرب منا . فلكي نتأكد من وجودنا نهرب باتجاه الحلول السحرية لنحل مشاكلنا العديدة»[9]. اغماء الذات في الماضي هو احدى التصرفات السحرية . فرغم خطاباتنا الكبرى حول التقليد ، الذمة المالية ، تاريخ الاجداد ، فإننا غير قادرين على قراءتهم، وعلى فك رموزهم . يقول لنا الجابري ، من اجل قراءة النص القديم يجب ان يكون الانسان متجذراً في الحاضر . ان حركة من وضع الابعاد ضرورية بالنسبة للنص لحل رموزه واعطائه معناه . يجب ان يبعد القارىء زمنه الخاص ، الذي هو زمن الحاضر ، عن زمن النص ، وبعبارة اخرى «اننا نسقط مشاكلنا على النص السلفي ، وهذا الاسقاط يحول دون قراءته»[10].

والآن أحدد ما افهمه من عبارة «نحن المسلمين» .

ان الـ«نحن» لاترجع للاسلام بصفته خياراً فردياً واختياراً شخصياً، انني اعرف واقعة ان اكون مسلما كواقعة انتمائي الى دولة تيوقراطية . ان مايفكر به الفرد ثانوي بالنسبة لهذا التعريف . ان واقعة ان تكون ماركسيا ، او موسويا ، او ملحداً ، نادرا ماتمنعك من اطاعة القانون الوطني ، قانون الدولة التيوقراطية

ومحاكمها القضائية التي تسمي الجرائم وتدير السجون . ان تكون مسلما هو حالة مدنية بطاقة قومية ، جواز سفر ، قانون للعائلة ، قانون محدد للحريات العامة . ان الخلط بين الاسلام كعقيدة، كخيار شخصي والاسلام كقانون ، كدين للدولة كان على ما اعتقد، بالنسبة للكثيرين السبب في فشل الحركات الماركسية واليسار بصورة عامة في البلدان الاسلامية .

وادا عدنا الى اولئك الذين قرؤوا في نصوص القرن السابع عشر ضرورة لمنع نصف السكان المسلمين ، النساء من ممارسة حقوقهن السياسية ، فيجب ان نفهم لماذا ، حسب رأيهم ، ترتبط مسألة الزمن بمسألة الديمقراطية، لممارستها من قبل كافة المواطنين مهما كان جنسهم ، وممارسة الحريات العامة . كيف من جهة أن «الشر الحاضر» ومن جهة اخرى ، رفض الديمقراطية ، يمتزجان، وكيف يقرنان مع الجنسي . كيف أن ثلاثة مفاهيم تعتبر عادة كمستقلة، اي العلاقة بالزمن ، العلاقة بالسلطة ، العلاقة بالنسوية ، تصاغ كخطابات حول الهوية ، وبصورة خاصة ، كيف أن أزمة الهوية التي هي حاضرة عند الجميع . رجالا ونساء بصفتهم مواطنين في منطقة محتلة ثقافيا ، قد ترجمت من قبل الكتاب السلفيين كمسألة ذكورية فقط . لعلنا نستطيع هكذا ان نفهم ما الذي دفع الافغاني والعلماء الآخرين ليجردوا اقلامهم ويؤلفوا الكتب حول ضرورة إقصاء النساء عن السياسة كشرط لانقاذ الهوية الاسلامية.

إن المسألة التي طرحت نفسها على الدول الاسلامية ، بعد شبه زوالها ، اثناء العهد الاستعماري ، هي ان هذه الدول وجدت نفسها وقد تأنثت ، بنوع ما ، وتحجبت ، وأهملت ، وكأنها لم تعد موجودة . وتوجب لهذه الدول بعد الاستقلال ان تعيد بعث نفسها على المسرح . كانت الدولة المسلمة ، المهددة بالموت وبانعدام السلطة لفترة ما بسبب الاستعمار ، مجبرة لأن تعيد تعريف نفسها ، وبحصول هذا ، وجدت نفسها مكرهة لتعيد تعريف مواطنيها . لكن هذه العملية من إعادة التعريف حصلت في مجرى زمن لا يسبح المرء فيه مرتين أبداً . إن عهد الدولة «التوتاليتارية» (الشمولية التي لا تسمح بالمعارضة وتعدد الاحزاب) ، المبنى على الاستبداد وضغطه كمبدأ وأساس ، غدا مغلوطاً تاريخياً .

وان الدول الاسلامية المتولدة من جديد الراغبة في ان تعترف بها القوى الاستعمارية التي كانت قد قطعتها ، قذفت بنفسها على المسرح الدولي . لقد تورطت بحماس في أروقة الأمم المتحدة كي توقع على التصريح العالمي لحقوق الانسان ، وادعت انها ستحترم الحريات الأساسية كمبدأ وروح لدساتيرها ، وكانت مكرهة ، وهي تعيد تعريف نفسها امام مستعمريها القدامى ، على منح المواطنية الجديدة لجميع رعاياها ، رجالاً ونساء . وهكذا فان الدولة المسلمة ذاتها ، المنشغلة باعادة نهضتها الخاصة ، قوضت تسلسلية الاجناس . ودمرت سلم القيم المنشئة للهوية الذكورية . لم يعديوجد رجال عند المسلمين بعد الاستقلال ، لم يعد يوجد سوى مواطنين مخنثين ، على كل حال ، تجاه الدولة وقانونها .

إن مسخ المرأة المسلمة إلى شيء محجب ، خبيء ، هامشي ، متناقض لحد القصور الذاتي ، في نطاق القانون الدستوري ، قد صمَّغ الاعتاب التي حدَّدت الهوية التسلسلية التي نظمت السياسي والجنسي . ان هويتنا التقليدية لا تكاد تتعرف على الفرد الذي احتقرته لأنه مخل بالتناسق الجماعي . ففكرة الفرد في الحالة الطبيعية ، في المعنى الفلسفي للعبارة ، غير موجودة في الاسلام(١١) . ان المجتمع التقليدي كان قد صفع المسلمين ، حرفياً «الخاضعين» لارادة الجماعة. فالفردية في مثل هذا النظام مثبطة الهمة ، وكل مبادرة خاصة هي بدعة ، تشكل خطأً بالضرورة . لقد حاول المجتمع التقليدي ان يوقف تطور الشخصية إلى مرحلة لا تهدد فيها سلطة الرئيس . وإلى مشروع فرد لا يصل ابداً للاستقلال الذاتي (المشابه للعصيان) . ويوضح (أو مليل) هذا ملقيا ضوءاً بارزاً بمنحى المناقشات بين الاحزاب السياسية والدولة الجديدة في مصر ، حول مفاهيم اساسية بالنسبة للديموقراطية الحديثة كإرادة الشعب ، أو السلطة التشريعية . فالحركات التمامية (القائلة بتمامية نظامها) ، كانت ، منذ البداية ، تعاكس الشعب وتنكر عليه حقه كأصل للقرار السياسي أو للسلطة التشريعية . لأن الله وحده هو المؤتمن على مثل هذا القرار . ارادته هي القانون ، وقد كشفه مرة واحدة ونهائياً للجميع(١٢) . وهذا ما يوصلنا إلى النتيجة التالية : ليس التماميون هم الغير معقولين على المسرح المعاصر ، ولكنه اليسار الاسلامي ، الذي اعتقد انه باستطاعته أن يوجد دون ان

يطرح المسألة الأساسية للعلمانية ، أي التحول من سلطة المقدس للانساني ، ومسخه من الهي متصاعد إلى فرد عادي في مجرى حياته اليومية . وان تضخم مقالات النقد حول الحقوق السياسية للنساء هو بعد رئيسي لكل هذا الجدل الكبير ، لأنه يسمح بالكلام دون تسمية ما هو المقصود . إن مشكلة المرأة تسمح بالتصدي للتغيرات الكونية للسلطة دون تسميتها . وهكذا ، فهي تشغل ، بصفتها رمزاً للمبعد ، للمحجب والمقنع ، مكاناً مركزياً في المناقشات على المسرح السياسي .

إن تقليد المرأة ، الذي جسد مبدأ اللا مساواة نفسه ، والعنصر المكون للطبقية ، وبدء الكائن الذي لا يوجد إلا في علاقات الخضوع بالنسبة للسلطة ، قد أجبر المسلم ، ان يواجه في بعض عشرات من السنين ، ما احتاج الغربيون قرونا من الزمن لهضمه (ولم يتوصلوا لـذلك الا بصعوبـة) : ديموقراطية ومساواة الجنسين . إعادة عرض مسألة اللا مساواة الاجتماعية ، السياسية والجنسية في الوقت نفسه . أمر يفقد المرء عقله .

«كل الكائنات البشرية تولد حرة ومتساوية في الكرامة الانسانية والحقوق» (مادة(١) من الاعلان العالمي لحقوق الانسان) . لنتصور مفعول هذه العبارة التي مازالت مهملة في مجتمعات حيث انعدام مساواة الجنسين كان قد أنتج ، وضمنت وأعدت اللامساواة السياسية وأكد عليها كأساس للكائن الثقافي وكهوية ! وعلى الأخص لو قارناها مع المادة الأولى من قانون الأحوال الشخصية المغربي ، مثلاً التي تقول : «الزواج هو عقد شرعي يقترن فيه رجل وامرأة بهدف حياة زوجية مشتركة ودائمة(. . .) هدفها الحياة (. . .) في الوفاء ، الطهارة والرغبة في الانجاب بالتخصيب ، على أسس ثابتة وتحت إدارة الزوج. . . .» قانون الأحوال الشخصية لعام ١٩٥٧).

إن مسألة مساواة الجنسين والمناقشات التي أثارتها منذ سنوات ١٨٨٠ ، مع ظهور كتاب قاسم أمين ، تحرير المرأة يجب ان تكون قد فهمت كصرخة مأساوية لأفراد حشروا في ذات الوقت في المواطنية التي تصمّغ الطبقية وفي الزمن التكنولوجي التقني الذي يُصمّغ الحدود القومية . إن وصول النساء بصفتهن

مواطنات إلى التعليم وإلى الأجور يمكن ان يعتبر احدى الاضطرابات الأساسية التي عاشتها مجتمعاتنا في القرن العشرين . فبتقلدها الأمكنة المعتبرة حتى الآن كصيد موقوف على الرجال وامتيازات الذكورية ، المدرسة ومكان العمل ، أقحمت المرأة من جديد ، في الحياة الداخلية كما في الحياة العامة .

إن الرجوع إلى الماضي ، الرجوع إلى التقليد الذي يطالب به الرجال : وسيلة لاعادة وضع الأشياء «في نصابها» . نصاب لن يصلح كل العالم ، وبخاصة لن يصلح النساء اللواتي لم يقبلنه أبداً . ان «العودة» للحجاب يدعو النساء ، اللواتي تركن «مكانهن» (المكان المتعلق بما عين لهن) ، لأن يتركن المناطق الجديدة التي انتصرن فيها .

وهذا المكان حيث يراد مجدداً حصرهن فيه يفترض انه هامشي ، وانه على الأخص تابع حسب الاسلام المثالي ، اسلام محمد ﷺ ، النبي الذي بشر على العكس من ذلك ، في عام ٦١٠ ، بلغة ثورية تماماً اجبرتها الارستوقراطية على الابتعاد .

فالسفر في الزمن يفرض نفسه اذن ، ليس لأن الحج إلى مكة فرض ، بل لأن تحليل الماضي ، ليس كأسطورة أو كملجأ ، يصبح ضرورياً وحيوياً .

مراجع وهوامش الفصل. ١.

١ ـ عبد الكريم الخطابيي ـ «العرب بين ما قبل الحداثة والحداثة» حديث لدراسات الشرق الأوسط ـ بوسطن ـ ١٩٨٦ .

٢ ـ محمد عابد الجابري ـ نحن والتراث ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ودار الطليعة بيروت ١٩٨٠ ص ٢٢ .

٣ ـ محمد عابد الجابري ـ تكوين العقل العربي ـ دار الطليعة بيروت جزء ١ ، ١٩٨٤ ، جزء ٢ ، ١٩٨٦ ترجمة كلمة عقل مشروع أكثر خطورة كرث له الجابري صفحات كاملة من كتابه لتعريف ما يفهمه من هذه الكلمة ، ناصحاً اضافة الى ذلك فلسفة . بأي شكل كان كلمة فكر .

٤ ـ ٤ ـ تكوين العقل العربي ١ ـ ص ٦٣ .

٥ ـ سيرج موسكو فيتش (الزمان والمكان الاجتماعي ، مداخلة ، المكان والزمان اليوم . طبعة سويل وبوان ١٩٨٠ ص ٢٦٣ .

٦ ـ ذات المرجع ص ٢٦٤ .

٧ ـ جان بيير ريو «البحث عن الذاكرة» ينلوب رقم ١٢ ربيع ١٩٨٠ .

٨ ـ م مملكرهان وكونيتشن فيور ، الوسط هو الرسالة ـ بانتام بوك نيويورك ١٩٦٠ من أنت ؟ . انا بالكاد اعلم ، يا سيدي ، انني الآن ، على الأقل كنت اعلم انني كنت عندما استيقظت هذا الصباح ، ولكن ، منذئذ ، اعتقد بأنني تحملت عدة تغيرات .

٩ ـ جابري ـ نحن والتراث ص ٢٢ .

١٠ ـ ذات المرجع .

١١ ـ علي أو مليل «الفطرة وحالة الطبيعة ، أو محاولة لاعادة اعتبار للنظام الاجتماعي» الاصلاحية والدولة الوطنية ، المركز الثقافي العراقي . كازبلانكا ١٩٨٦ ص ٣١ وما يليها .

١٢ ـ ذات المرجع فصل ٥ (الحركة التكاملية والدولة الوطنية) ص ١٥٦ .

- ٢ -

النبي والحديث

كيف تمكن عربي عرقي جداً ، لم يعرف أية لغة أجنبية وقلما سافر (سوى بعض الجولات نحو الشمال ، اثناء شبابه ، إلى سورية) من بلبلة العالم برسالة (القرآن) الذي اعطت وتعطي دائماً معنى لحياة أقوام تنتمي إلى ثقافات مختلفة؟. فمن الصين (عشرون مليوناً في ارياف غانسو ويونّان بصوّرة خاصة) ، إلى السنغال ، مروراً بروسيا (حوض الفولغا وسيبريا ، كازغتان ، اوزبكستان ، تركمانستان ، غير قيزستان ، القرم) ، ومن الهند (وادي الهندوس ، سهول الغانج ، البنغال ، دكان) . فهل لواقعة نجاح هذا الانسان في حياته الخاصة ، كما في حياته العامة ، معنى كافٍ خارج المعنى القصصي؟؟ .

إن الاسلام هو الملحمة التاريخية لرجل سعيد ، حلم بعالم مختلف في شبابه وحقق كل احلامه في فترة نضجه وشيخوخة نشيطة ملأى بالنجاح قبل النساء والانتصارات العسكرية ، مخضعاً أمام إرادته اعداءه الاكثر مقاومة . لأول مرة تحدثت لنا فيها لالافقيها (معلمتنا في المدرسة القرآنية) ، تكلمت عن المسيح والمسيحية وقد انهت الدرس وهي تهمهم : «حياة المسيح ، حياة حزينة جداً ، لقد فقد كل شيء ، حتى الحياة ، وذلك خلافاً لنبينا الذي استمر بالكفاح حتى النصر النهائي» .

ولد محمد ﷺ في مكة في سنة ٥٧٠م تقريباً . ومع ان مكة هامة بذاتها كمركز تجاري مزدهر ، لم يكن هنالك أية اشارة حول قوتها . وبالمقارنة مع الرومان والفرس ، الجباران اللذان كانا يسودان المنطقة ، كان العرب يبدون في صورة شعب متخلف ، مصغر إلى حالة التبعية حينما لم يكن محتلاً ، أو بكل بساطة مهملاً في صحرائه ، عندما لم تكن قبائله تدس أنفها في مصالح الكبار : البيزنطيين (الامبراطورية الرومانية) والساسانيين (الامبراطورية الفارسية) ، الذين كانوا يتحاربون باستمرار من أجل بسط رقابتهم على طرق التجارةالكبرى الدولية التي كانت تشق طريقها في الجزيرة العربية ، وأنشأت كل واحدة من الامبراطوريتين من بين القبائل العربية الكبرى ، دويلات تابعة لها تدافع عن مصالحها وتسهر على نشر تأثيرها ودياناتها . ولم تكن هذه العروش تتردد عن اشعال الحروب فيما بينها ، وعن التمزق الداخلي اذا اقتضى الحال ، واذا طلب اسيادها ذلك . وهكذا كان في سنة ٥٨٠ (كان لمحمد ﷺ من العمر ١٠ سنوات) ، حيث قامت المملكة العربية الغسانيةالتابعة للامبراطورية الرومانية ، بمحاربة مملكة اللخميين العربية ، التابعة للفرس واحرقت عاصمتها الحيرة ، الواقعة في الصحراء العراقية .

وبعد أربعين عاماً ، في سنة ٦٢٨ ، أقدم محمد ﷺ ، الذي كان في الستين من عمره ، والذي كان بشر بالاسلام منذ عشرين سنة فقط ووعد العرب الذين اعتنقوا ديانته . بالنصر على الامبراطوريتين الرومانية والفارسية ، وأرسل رسالتين إلى حكامهما : واحدة إلى هرقل ، الامبراطور البيزنطي ، والأخرى إلى امبراطور الفرس يدعوهما للاسلام . وقد تضايق امبراطور الفرس كثيراً ، والذي كثيراً ما كان يظهر ازدراءه نحو القبائل العربية ، وأرسل كما تقول المصادر العربية إلى عامله في اليمن رسالة تضمنت العبارات التالية : «هذا العربي الذي طلع في الحجاز ، وجه إلي رسالة مزعجة . فاعمل على ارسال رجلين ذكيين من لدنك كي يأتيان به إليَّ مصفدا ، وذلك لأتفحص ما سوف افعل به . فاذا رفض المجيء ، بناء على الأمر الذي يعلمانه به ، فاذهب لملاقاته بجيش من لدنك وارسل رأسه إليَّ»[1] . وبعد ستة عشر عاماً فتحت إيران واعتنقت الإسلام إلى الأبد .

خارج هذا البعد الروحي ، كان الاسلام اذن قبل كل شيء هذا الوعد بالقوة ، بالوحدة وبالنصر ، من أجل شعب هامشي ، ممزق ومحتل ، والذي كان استنفذ طاقاته في حروبه الداخلية . إن الإسلام المثالي ، الذي يدعيه التماميون في أيامنا كحل للمسائل الاقتصادية ، وللهزائم الحربية ، يحفظ في الذاكرة هذا المسار الذي لا يكاد يصدق لشاب من مكة أعلن وهو في سن الأربعين انه نبي ، وحقق قبل موته ، في اثنتين وعشرين سنة من التبشير المتقطع بالبعوث العسكرية ، الأحلام التي كانت تبدو مستحيلة لمعاصريه : وحدة العرب بموجب عقيدة (وليس بالانتماء إلى جدواحد الذي هو الأساس في النظام القبلي) وبزوغهم على المسرح الدولي بصفتهم قوة عالمية . مع ذلك لم يكن دين النبي المكي معقداً . فالواجبات الخمس (الأركان) الواجبة على المسلمين (والمتوجب دائماً اتمامها ، كانت تدور على الفكرة ذاتها :/خضوع سلوك الفرد اليومي إلى مؤسسة دقيقة، الاسلام بصفته قبل كل شيء دين أرضي تماماً ، متجذر في أعمال الحياة العادية تماماً ، الاغتسال ، الأكل ، الخ . . . ولكنه يتيح كذلك الوجود بشكل دائم في الكون . الشهادة هي أول واجب : انها اقرار بإيمان يتكون للإعتراف بأن الله إله أوحد وان محمداً رسوله . والصلاة خمس مرات في اليوم هو الواجب الثاني، وهي تمرين سريع لأقصى حد من التأمل الشديد . وهي تتوجب ، حيث يوجد الفرد ، في بيته ، وفي العمل ، وعلى الطرق ، ويتوجب وقف نشاطه في فترتها ، والتوجه إلى مكة وان يحاول بموجب نظام من التركيز ان يصعد المسائل اليومية ويضع نفسه بتماس مع الإلهي ، لوقت قصير جداً. تبدأ أول صلاة مع الفجر ، والثانية عندما تكون الشمس وسط السماء ، والثالثة عندما تشرع الشمس في النزول ، وتقع رابع صلاة عند غروب الشمس والخامسة والأخيرة عندما يستقر الليل . صيام رمضان من شروق الشمس إلى غروبها ، هو الفرض الثالث ، والزكاة هي الفرض الرابع ، وأخيراً الحج إلى مكة لمن استطاع إليه سبيلاً ، هو الفرض الخامس .

كانت مكة ، إحدى المدن الأكثر أهمية في الجزيرة العربية في عصر محمدﷺ ، الذي كان أحد سكانها المتواضعين ، والذي كان يتعاطى التجارة ، وتزوج وهو شاب وعاش بين أقاربه ، عشيرة بني هاشم، العشيرة المحترمة جداً

والتي تنتمي إلى قبيلة قريش . وهذه المدينة كانت فرضت نفسها كمدينة لابديل عنها بالنسبة لأمن طرق التجارة الدولية الكبرى التي ازدهرت في هذا الجزء من العالم ، لأنها بموقعها على مفترق طرق يصل قطبين أساسيين من الشرق إلى الغرب (من افريقيا إلى آسيا) ، ومن الجنوب الى الشمال (من الخليج الفارسي إلى أوروبا) . بانتماء محمد ص إلى قبيلة قريش ، كان من المتعين أن يصبح تاجراً ؛ وقد اتفق مع امرأة لها أعمالها التجارية ، خديجة بنت خويلد، وهي أرملة تنتمي مثله إلى قبيلة قريش ، وكانت ورثت ثروة من زوجها السابق . سرعان ما ترك محمد ص انطباعاً لدى المكيين باستقامته ونبله إلى درجة انه لقب بالأمين . في عودته من سوربة كانت خديجة مسرورة جداً من التعاون معه وأدهشتها استقامته (التي كانت على ما يبدو نادرة) بحيث عرضت عليه الزواج ، فقبل وكان له من العمر ٢٥ سنة حسب التقاليد ، وكانت اكملت الأربعين من عمرها . وكان هذا بالنسبة له أول زواج . أما هي فسبق ان كان لها زوج آخر قبلاً ، وانجبت منه أربع بنات وثلاثة ابناء . ومات الابناء في سن مبكرة . وإذا لم يكن باستطاعة خديجة ان تعرف ان الرجل الذي تزوجته سيكون بعد ١٥ سنة نبياً لديانة جديدة ، إلا أنها كانت على قناعة تامة بأنه لم يكن زوجاً عادياً ، وكان لها به ثقة تامة . لم يكن محمد ص مرتاحاً للاعراف التي تحيط به ، ولذلك كان يختلي كل سنة ، مثله مثل رجال مكة الاتقياء ، إلى جبل حراء كي يستغرق فيه بالتأمل ويمضي خلوات روحية . كان يتمتع بسمعة طيبة جداً بين أهله : «واتفق كل سكان مكة على الاعتراف بتاثيره وباستقامته (. . .) ، وأي واحد كانت لديه أمانة يريد ايداعها كان يقصده ، وكل من لهم منازعة يأتون إليه ليحكموه فيما بينهم»[2] ولكنه لم يتلق رسالته النبوية الا فيما بعد «عندما اكمل محمد ص الاربعين من عمره ارسل الله له جبريل لكي يحمل له رؤية»[3].

أول وحي أرسله الله له . بواسطة جبريل كانت الآية ١ «من سورة ٩٦ (اقرأ) . فبدأ الاسلام اذن كأمر بالقراءة ، بالتعلم ، وكان ذلك في سنة ٦١٠م . لقد كانت أوائل الوحي مزعجة بالنسبة له ، وقد وصفها لخديجة ، وهو مرتعب بالأصوات التي سمعها . لقد ارتاب من نفسه وقال لها : «ياخديجة ، أخاف ان

أصبح مجنوناً[1]» . وقد هدأت هذه من روعه ، وقوت من عزيمته لتقنعه بأن ما حصل له كان رائعاً وفريداً من نوعه . كان النبي المختار ، الذي سوف يعطي إلى العرب ماكان ينقصهم : الكتاب الموحى به ، أساس تقدير اليهود والمسيحيين ، الديانتان اللتان كانتا قد نجحتا في غرس جذورهما في الجزيرة العربية رغم حيوية الشرك . وقد دشنت خديجة الحدث ، باعتناقها الدين الجديد من زوجها ، وكانت أول من اعتنق الاسلام . وسيمضي الدين الجديد لبلبلة مكة المشركة التي تضم في معبدها مزار الكعبة ، وما يزيد عن ثلاثمائة نصب . وجد المكيون ان فكرة الاله الواحد التي بشر بها محمد ص الآن انما هي فكرة غير معقولة ، وكان محمد ص أعدها خفية خلال السنوات الثلاثة الأولى . وكان عليه ان يقاتل لفرض عبادته في المكان الوحيد الجدير بها : مزار الكعبة المحترم في كل انحاء الجزيرة العربية ومن أولها إلى آخرها ، والتي كانت تقوم اليه بحج ضخم في كل عام،اذ يتوافد فيه الحجاج من كل المناطق،وما أن مضت مفاجأة الآيات الأولى حتى اعتاد محمد ص على الايقاع الغامض والغير متوقع للوحي . ولسوف ينتظر ، خلال اثنين وعشرين عاماً ، هذه الفترات المتميزة التي ترعاه فيها العناية الالهية ، فترات الوحي ، المسماة التنزيل أيضاً ، والعبارتان ترجعان لحركةٍ سيالة من المعرفة الآتية من السماء ، وتغمر الأرض ، بواسطة الرسول ، الرسالة العربية :

لأن الله ، وتلك هي المعجزة، تكلم إلى محمد ص بلغته القومية ، العربية : قرآناً عربياً . لقد كان لليهود وللمسيحيين وحدهم هذا الشرف وهذا الامتياز . ولسوف يتلقى الرسول آخر وحي قبل تسعة أيام من وفاته في ٨ حزيران ٦٣٢م[2] .

تلقى النبي ص الرسالة من الله شفاها ونقلها شفاها . لم يسيطر لا على فترات الوحي ، ولا على طولها . وكل واحدة من السور كانت مؤلفة من عدة آيات طويلة أو قصيرة : «تواتر الوحي كان يتغير من آيتين إلى خمسة في آن واحد ، وأحياناً أكثر ، واحياناً أقل»[3] . لم يعرف سوى سورة كانت مغلقة وذلك عندما تلقى الأمر ليقول بسم الله الرحمن الرحيم[4] . ان الأمر الذي أوحيت فيه السور إلى الرسول ، أو ما يسمى ترتيب النزول مختلف عن الأمر الذي ينظم تصنيفها في

النص الموجود بين أيدينا اليوم أي الترتيب المصحفي . كان ترتيب الوحي يستجيب لضرورات ظرفية : فالسور الموحى بها في مكة كانت تعرض العقيدة والواجبات على المسلمين . والسور الموحى بها في المدينة فيما بعد كانت تستجيب للمسائل التي يواجهها النبي ﷺ والمسائل التي تعرض للمسلمين الأول ، أما بالنسبة للتصنيف الذي يظهر الآن في القرآن بصفته نصاً مكتوباً ، فإنه يستجيب ، حسب رأي الخبراء ، لحاجة تعليمية أكثر : فالسور الأولى هي ، فعلاً ، السور التي تظهر فيها **الأحكام الاساسية للاسلام** المتعلقة بالزواج والأرث . . . إلخ[8] . ويمكن القول ، إن الاسلام بصفته شريعة ، وقانونا اجتماعياًمن أصل الهي ، قد ولد في المدينة . لقد هاجر النبي ص في ٦٢٢ ، وهو تاريخ أساسي لأنه يشكل السنة الأولى من التقويم الاسلامي[9] . والمكيون ، من بين هؤلاء الذين تبعونه في هجرته سوف يسمون منذئذ (المهاجرون) (وذلك هو التعبير ذاته المستعمل حتى في أيامنا للدلالة على العمال المهاجرين من شمالي أفريقيا الذين يقطنون في فرنسا وفي بقية انحاء أوروبا) . وسوف يسمى اتباعه الجدد الذين اختارهم من بين قبائل المدينة ، الانصار . في ٦٢٢ ، وصل النبي ﷺ خفية إلى المدينة . وكان المكيون يفتشون عنه لقتله : لقد أهان آلهتهم ، وبخاصة رباتهم ، العزى واللات ومناة ، تلك اللواتي كانوا يودونها أكثر في قلوبهم . في حياة عمه أبو طالب ، بذلوا ضغوطاً كثيرة على محمد ص بحيث انه نطق بآية قرآنية كانت تشير إلى قوة هذه الربات . ولكن النبي ص تخلى عن هذه الآية كآية شيطانية ، ومع ان اسمهن بقي في القرآن ، فإن الجزء من الآية الذي يشير لصفتهن الالهية (الغرانيق العلى) أي الطيور الكبيرة ، تبعاً لطبيعتهن السماوية ، سوف يلغى ، ويحذف ، وسوف تكون القطيعة كاملة مع مكة[10] .

وقد عجل بهذه القطيعة حدثان : موت عمه أبو طالب وموت زوجته خديجة . فأبو طالب كان يتمتع باحترام لدى قبيلة قريش بصفته رئيس عشيرة بني هاشم خلال عشر سنوات ، وسامح المكيون خلالها النبي (ص) في مهاجمته لعاداتهم . لكن موت أبي طالب حوالي سنة ٦١٩ ، افقده السند الأساسي وضمانة الحماية القبلية . وفي السنة نفسها يفقد محمد ص زوجته خديجةرفيقته ونصيره .

وإزاء هذه المحن واصابته باعز أقاربه ، قرر محمد ﷺ ترك مكة ، المدينة المعادية التي أصبح وجوده فيها يشكل خطرا على أمنه . وبدأ يفكر بالسفر ولكن الى أين ؟؟ إن الفرد لا يستطيع التجوال في الأرض العربية دون أن يقوم باتصالات محكمة يضمن لنفسه بعض الحماية ، وذلك حسب القانون الدقيق للتبعيات القبلية . بدأ «يعرض نفسه على القبائل» : ففي كل سنة في فترة الحج ، كان النبي يحتك بالعرب القادمين من كافة الجهات ويعرض عليهم دينه . كان يأمل بأن يؤمن به احدهم ويأخذه لقبيلته ويوصله في عشيرته (. . .)وهكذا يخلصه من أهل مكة[11] . ولكن أحداً لم يقرر اعطاء ملجأ لرجل تغضب عليه مكة .

واتخذ المبادرة ليذهب إلى الطائف ، وهي مدينة ، لم تكن تبعد كثيراً عن مكة وذلك ليعالج مكان منفاه فطرده قوم الطائف[12] . ورجع إلى مكة ليستمر باغتنام مناسبة الحج يبحث عن مدينة يأوي إليها . في هذا الظرف دخل في مفاوضة لأول مرة مع ستة حجاج من المدينة . وتلا عليهم بعض آيات من القرآن ، وعرض عليهم ان يأتي للتبشير عندهم[13] . كان المدينيون الستة «أشخاصاً معروفين ، ولكن من طبقة وسطى ، لامشهورين كثيراً ولا من وسط متدني»[14] . وشرحوا له أنهم غير مؤهلين لاتخاذ قرار على هذه الدرجة من الأهمية ، ولسوف يتوجب عليهم الحصول على موافقة رؤساء القبائل . وعرضوا عليه حالة التوتر التي تعيشها الجماعة : «اننا جماعة تمزقها الفتن والمنازعات (. . .) فيجب ان نعرض حالتك على الآخرين عندما نعود إلى المدينة . . .[15] . «والسنة التالية ، كانوا اثني عشر شخصاً الذين احتك بهم والذين بايعوه . . . وسيصبحون في السنة بعدها ٧٢ مدينياً جاؤا إلى موسم الحج وكانوا في هذه المرة يمثلون القبيلتين الرئيسيتين الأوس والخزرج[16] . . وكانت تلك بداية المغامرة المدينية الكبرى .

لقد أصبحت جماعة المدينة الجماعة المسلمة الأولى ، وشكلت بالنسبة للأجيال القادمة النموذج الواجب اتباعه والتجربة الواجب احتذاؤها ، لأنها كانت موجهة من قبل محمد ﷺ ، الرئيس السياسي ، العسكري والحكم في آن واحد ؛ انه مشروع يستوحى من الله ذاته ، فالله هو الذي يجيب بواسطة الأيات على أسئلة

معتنقي الاسلام الجدد ، الذين يطلبون ايضاحات حول الطريقة التي يكون بها الكائن مسلماً (الأية جواب إلى المستخبر)[١٧] .

إن مسألة الأحاديث تمضي لتعرض نفسها بعد موت الرسول ﷺ . فخلال العهد المديني كانت الجماعة تعيش اسلاماً مثالياً حيث يمكن استشارة الله ونبيه في كل مناسبة ، أولهما عن طريق الثاني . (ان هذا العقد من السنين هو الذي يطالب به حتى في أيامنا وكأنه الفترة الرئيسية المتضمنة للمبادىء التي يجب ان تقود تخطيط العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات الاسلامية الحديثة) . لكن ، بعد وفاة النبي ص في ٦٣٢ بعد عشر سنوات من الهجرة ، أخذت مسألة خلافته تفرض نفسها : فيجب ان يكون النبي قد أحل بديلاً عنه في وظائفه السياسية والتشريعية في آن واحد . فمن أجل حل المسألة السياسية ، مضى الخبراء المسلمون لتطوير نظرية الخلافة السياسية : ما هي الصفات الضرورية ليصبح انسان خليفة ، خليفة النبي ص في وظيفته ، ورئيساً للدولة الاسلامية ، وماهي الطرق لتعيينه من قبل الجماعة ؟؟ لقد انبثق مع هؤلاء الخبراء ، ومدارسهم ومنظريهم أدب كامل . . . فالاسلام بصفته نظرية سياسية فكرة غير مسموعة (لا تسمع عندما يلاحظ ما هي عليه في التطبيق المعاصر) . من أجل حل المسألة الثانية ، مسألة الشريعة ، فإن القانون المقدس ، الذي يجسد ، ويمثل ، ويوضح الارادة الالهية ، سوف يقيم منه الخبراء علماً دينياً ، الفقه . انه يتعلق بالسهر على رقابة تفسير القرآن النص المنزل ، من جهة ، وإقامة سنة الرسول بحجزها في كتابة الاحاديث ، وكل ما قاله النبي ﷺ ، كي يتوضح طريق الاسلام .

إن اختيار الرئيس السياسي العادل وعدم الخطأ في تفسير الشريعة المستخلصة في القرآن والسنّة ، كانا المحورين اللذين حركا كل التاريخ الاسلامي ، أقله على المستوى الرسمي . بهما ستبرر الحروب كما يبرر السلام ، وسيرجع إليهما لتفسير حالات العظمة والانحطاط . وأخيراً ، فانهما يشكلان جوهر التطلعات والآمال لأولئك الذين من بين المعاصرين الذين يطلبون الرجوع إليهما كوسيلة لتنظيم المشكلات السياسية والاقتصادية التي تمزق المجتمع الاسلامي الحديث . في إيران استولى /الخميني/ على السلطة باسم هذين الدافعين

الأبديين : ضمان العدالة الاجتماعية باختيار رئيس الدولة الذي سيستوحي الشريعة لادارة المجتمع وحكمه . (اختياره توقف عليه ذاته ، وذلك هو كل شيء) .

لفهم مكانة الكتابة للنص المقدس واستعماله على رقعة الشطرنج السياسية بالأمس واليوم ، يتوجب الرجوع إلى الأحداث التي مرت في الأيام التي تلت وفاة النبي ﷺ ، وبخاصة تسمية خليفته الأول والثلاثة الذين تلوه ، الذين اعتبروا وحدهم أصوليون (الخلفاء الراشدون) . كل مطالبة حالية للعودة إلى الاسلام ترجع إلى تلك الفترات الكاشفة . وان المفاهيم السياسية التي تقترحها الحركات الاسلامية اليوم كمفاهيم رئيسية تضمن الديموقراطية ترجع إلى عمليات تعيين الخلفاء الراشدين الأربعة ، فكيف جرى تعيين الخليفة الأول ؟ .

موت الرسول : الفتن السياسية وولادة الحديث

عند موت الرسول ﷺ ، لم يكن له وريث من جنس ذكوري . فإبراهيم آخر ابن كان له من ماريا (التي كانت اعطتها له خديجة) مات صغيراً . مع ذلك ، وفي محيطه المباشر ، لعب أربعة رجال دوراً بارزاً . والمقصود بدئياً ، علي صهره وابن عمه المباشر ، والذي كانت له مع محمد ﷺ علاقة ودية متميزة . فقد تبناه عملياً في فترة كان فيها والد علي ، أبو طالب ، يمر بأزمة مالية فادحة جداً . فطلب إلى والده ان يكفله ، وعندما أوحي للرسول ﷺ بالنبوة وتلقى أوائل الوحي كان علي أول رجل يؤمن به (أول شخص كانت زوجته خديجة) . لم يكن لعلي من العمر أكثر من عشر سنوات[١٨] ، ولسوف يتزوج بعدئذ من فاطمة ، الأبنة البكر للنبي ﷺ ، وسيتبع هذا في هجرته للمدينة وسوف يصبح يده اليمنى في كل ما يتعلق بإدارة اعمال الجماعة . وبعد موت النبي ﷺ سيتتابع خط نسبه بمن تحدر من علي .

الرجل الثاني الذي كان قريباً جداً من النبي ص هو عثمان ابن عفان ، الذي كان هو أيضاً من الأوائل الذين اعتنقوا الاسلام وتزوج كعلي ، من ابنة النبي ﷺ (رقية) . وكان عثمان هذا متحدراً من فرع مواز لبني هاشم وخصم لهم ، عشيرة الأمويين ، الذين كان يجمعهم جد مشترك ، هو عبد مناف . الرجلان الآخران ، القريبان جداً من محمد ص ، قرشيان مثله ، هما أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب . لم يكن لهما مع الرسول ص سوى علاقات تحالف ، وبكونهما حمويه اذ كان أبو بكر أب زوجته عائشة ، وعمر بن الخطاب أبو زوجته حفصة (ترك الرسول عند موته ، تسع زوجات) . إن المكان المتميز الذي كان يشغله هذان الرجلان عنده ، يرجع إلى عنصر معتبر ثانوياً حسب التقليد الاريستوقراطي في ما قبل الاسلام (الجاهلية) ، في الجزيرة العربية : التجانس النفسي ، وصداقة متينة . أبو بكر ، رجل مثقف ، متنوع جداً ، حساس جداً وكان يهتم بالتاريخ وبخاصة في قصص الانساب . وكان عمر رجلاً رياضياً ، مندفعاً ، عنيفاً وغضوباً ومتعجرفاً ، ومتشدداً دقيقاً ، وصاحب استقامة وصرامة .

لو ان محمداً ص ، بدلاً من ان يقاوم الضغوط التي مورست عليه لتعيين خليفة من عشيرته ، علي مثلاً ، لو انه كان قبل هذا وأعمل النظام القبلي ، لكان الاسلام منذ البداية أربك «بقضية عائلية» قبلية حسب تقاليد الجاهلية .

لقد توفي محمد ص بهدوء في منزله بمرض هين عن سن مناسب . انه ، وقد كان يتبصر ويخطط للحملات السياسية لم يتمكن من التبصر في مسألة الخلافة : وبكل وضوح توجهت أفضلياته لأبي بكر وعمر اللذين سيصبحان على التوالي أول وثاني خليفة راشدين (أصوليين) (سيبقى أولهما خليفة لمدة سنتين ٦٣٢ - ٦٣٤ ، والثاني لمدة عشر سنوات من ٦٣٤ - ٦٤٤) . وسيؤدي اغتيال الخليفة الثالث عثمان إلى تأرجح الجماعة في الفتنة الأولى (الحرب الأهلية) . فعلي ، الذي عين الخليفة الرابع في أوج حرب أهلية ، لن يمارس السلطة فعلاً ، اذ بدأ عصر الاضطرابات . فعائشة امتشقت السلاح ضده في موقعة الجمل سنة ٣٦ من الهجرة (٦٥٨) . وسوف يتم اغتيال علي من قبل المعارضين السياسيين . هذه

الفتنة الأولى التي امتدت خلال حكم علي (بين ٦٥٦ و٦٦١) سوف ترُضّ دائما الذاكرة الاسلامية .

من أجل الاحتماء ضد الارهاب والعنف السياسي ، ولأسباب أخرى عكف المسلمون على تجميع الحديث : ماذا قال الرسول ص بشأن الحرب الأهلية ؟؟ ماذا على المسلمين ان يسلكوه في هذه الحالة ؟ كيف يختاروا من بين عدد من مدعي الخلافة ، الخليفة الذي يستحقها ؟؟ هل يجوز قبول خليفة ظالم شريطة ان يضمن السلام ، أو أنه يجب محاربته مع احتمال تأرجح المجتمع في الحرب الأهلية ؟ .

إن الذين اغتالوا الرئيس أنور السادات ، امتاحوا عدداً من حججهم وطرقهم في الأحداث والاحاديث من تلك الفترة(١٩) . ففي اثناء الأزمة ، يبزغ الحديث كسلاح سياسي لايرد .

وفي هذا المعنى يمكن ان يسمى حديثاً ، كل معلومة ملائمة منسوبة للرسول ص (لكل ما يراد تبريره) . انه التدوين في مجموعات،لكل ما يفترض انه قد قاله أو فعله . آراؤه ، ردود فعله حيال الاحداث ؛ الطريقة التي برر بها قراراته كل ذلك يجب ان يدون لكي يمكن الرجوع إليه فيما بعد ، وذلك لتمييز ما هو صحيح وعادل عما هو خاطىء وظالم، سواء أكان ذلك في مادة ممارسة السلطة أو شيء آخر . كيف العمل ضد الخليفة الظالم ؟ إن الجواب على ذلك يوجد في مجموعات الاحاديث المقيمة لسنة النبي ص ، وفي القرآن . ما هي واجبات الزوج تجاه زوجته أو زوجاته ؟ كيف يجرى الوضوء ؟ ما هي حالة الولد الطبيعي ؟ .

في الواقع ان مجموعات الاحاديث هي لوحات جدارية للحياة اليومية من القرن السابع ، لوحات حية ومتنوعة جداً لأنه يوجد حق في عدة نصوص لحدث واحد . وأخيراً فإنه يوجد فيه جنباً إلى جنب موضوعات مختلفة مثل «كيف يجري المرء الوضوء» ، «كيف يتصرف اثناء ليلة العرس» أو «ما يجب ان يجري في حالة الحرب الأهلية» .

ان من اعطى لنفسه مهمة نقل الحديث تفرض عليه بالضرورة ان يطوع التقنية التي تسمى اليوم (التعامل) أو المقابلة لأن كلمة حديث بذاتها تأتي من كلمة حدث بمعنى /روى/ أو ببساطة /قال/ . فبالنسبة لكل جيل من الخبراء ، يجب

يجب أن يجمع شخصيا شهادات أولئك الذين سمعوا الحديث مباشرة من الرسول (المقصود جيل الصحابة) أو جمعه على نحو غير مباشر من لدن الجيل الأول الذي تلا جيل الصحابة (جيل التابعين)، أو كذلك من لدن الجيل الثاني بعد جيل الصحابة (تابعي التابعين).

ان الذي يسجل الحديث شفاها ويدونه في مجموع مكتوب ، يتوجب عليه ان يحل عدة مشاكل منهجية : ليس وجوب ان يسجل أيضاً ، بما يمكن من الأمانة ، الحديث بذاته فحسب ؛ وانما أيضاً ان يقيم اسناده ، أي سلسلة الرواة الذين نقلوه من المصدر ، الذي هو صحابي قريب من النبي ص والذي كان سمعه أو رآه يفعل ، ويمكن أن يكون الصحابي رجلاً أو امرأة ، شخصاً مرموقاً أو عبداً . إن المهم هو قربه ، والمكان الذي كان يشغله عند النبي ص ، وصفاته الشخصية ، وبخاصة الشهرة بأن له ذاكرة جيدة وانه لا يروي كيفما كان . من هنا كانت اهمية الصحبة المباشرة للنبي ﷺ ، نساؤه ، وامناء سره ، وأقاربه بصفتهم مصادر للحديث .

إن علم الحديث يتكون لا بوضعه تحت تصرف القارىء المؤمن بمضمون الحديث فحسب ، بل وان يقدم له أيضاً معلومات حول ناقليه . إن قاعدة الأسناد (سلسلة الرواة) تفرض ضرورة اعطاء صورة سيرة ذاتية للناقل . وان للقارىء المؤمن الحق بالحصول على المعلومات الملائمة حول مصدر الحديث ، وحول سلسلة الرواة ، بهدف ان يحكم في كل وقت ما اذا كانوا جديرين بالثقة أم لا .
لقد كان الاسلام ، على الأقل اثناء القرون الأولى ، دين الفرد العاقل المسؤول ، المؤهل لأن يميز بين الحقيقي والكاذب من أجل ان يكون مهيأ ، أي يملك أدوات عمل علمية ، وكانت تلك الأدوات هي بكل دقة مجموعات الحديث . أما ان تعمل عبر القرون على تغييب المؤمن الذي ينتقد ويحكم وابداله بمسلم مكمم مراقب، خانع ، شاكر أكثر ، فإنه لا يعلي في شيء هذا البعد الأساسي من العلم الديني(٢٠) .

إن أحد أسباب تضخم الاحاديث الكاذبة المصنعة ، كما يقول لنا محمد أبو زهرة في فصل بعنوان «تضخم الكذب ، المتعلق بالنبي ﷺ مع المذاهب

والانقسامات في صفوف الفقهاء» هو ان العالم الاسلامي كان ، منذ موت الرسولﷺ قد تمزق بالفتن. فتحت الحماس الروحي والورع، كمنت الأهواء وصراعات المصالح الشرسة من أجل السلطة الأرضية ، أهواء سوف توصل الأمة إلى حروب أهلية لانهاية لها ، وأخيراً إلى تصدعات سوف تعطي للاسلام المذاهب التي نعرفها»[٢١] . والانقسام الكبير الذي رجع إليه هو انقسام العالم الاسلامي ، اثناء السنوات الخمس الأولى من الفتنة الأولى ، إلى سنيين من جهة (الذين يتبعون السنة ، التقليد) ، والشيعة (الانشقاقيين) ، بعد اغتيال الخليفة الرابع علي ، واستيلاء معاوية على السلطة .

إن الانقسام ، الذي ولد تحزباً اسلامياً كبيراً يستند فيما يستند إليه على الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه الخليفة الظالم : فالسنيون قبلوا معاوية ، خليفة بعد علي ، لأن الأكثر أهمية برأيهم كان وضع نهاية للحرب الأهليـة. وأخذت الشيعة الوضع المعاكس ، معارضين خليفة علي لأن تعيينه بني على تحكيم مغشوش للغاية . وبرأيهم ، ان علياً والمتحدرين منه وحدهم ، كانوا الجديرين بادارة الجماعة الاسلامية . هذا التحزب الذي سوف يقسم الاسلام إلى فئتين ، تقيم كل منهما نظرية مختلفة ، سياسية وقانونية ؛ وينقسم فرعياً ويولد جماعات فرعية تجر الاضطراب والاختلاط : رياح التنابذ كانت تعصف قوية ، والاحقاد فيما بينهم كانت عنيفة . وأخذ المسلمون يتراشقون بالشتائم وكل فريق يكيل التهم لخصمه ويرميه بالكفر والفسق(. . . .) وهكذا أصبحت الأمة الآن مقسمة إلى شيعة (جماعة علي)، وأمويين (. . .) والشيعة نفسها انشطرت في أحزاب متنافرة (. . .) . وكانت حصيلة كل هذا ان كثيرين لم يعودوا يهتمون بالدين في ذاته ، وقد ضعف هذا . وكان هنالك تضخم في الأحاديث الكاذبة المعزوة للرسول ﷺ لدرجة أن المسؤولين بين المؤمنين قد تملكهم الخوف . وقد طلبوا مشورة الخبراء وحاولوا تخفيف هذه الحالة للاشياء وذلك بأن يثبتوا بالكتابة الاحاديث المعروفة اليقينية ، الصحيحة . . .»[٢٢] .

ولاعطاء فكرة عن حدة الصراع العنيف للمسلمين الأوائل من أجل الاستحواز على السلطة السياسية ، يجب العودة إلى ظروف دفن الرسول ﷺ

الممثل للالهي ، وإلى هذا الموضوع الذي لا خلاف حوله .

لقد أهملت جثة الرسول ﷺ ، المتوفي يوم الاثنين ، في زاوية من غرفة عائشة . ولم تدفن الا في ليلة الأربعاء التالي : «جسد النبي ص مغطى بعباءته ، وموجود في بيته ، وكان الجميع مشغولين باختيار /خليفته/ ولم يُفكر بغسله ولا بقبره . .»[٢٣] . لقد بدأ الصراع من أجل السلطة السياسية في الاسلام ، من هنا ، ولما ينته مطلقاً .

ان نظرة تلقي على عملية تعيين الخلفاء الراشدين الأربعة وعلى طريقة موتهم ، العنيف دائماً وباستثناء الأول ، تتيح لنا فهما مباشراً لاحداث الماضي وان نفهم على ضوئها مناقشات الحاضر ، وبخاصة ، ان نأتلف مع سياق الأحاديث ، التي وردت ، صحيحة أم كاذبة .

بعد وفاة الرسول ﷺ بثلاثة أيام في المدينة ، عُين ابو بكر خليفة بمناورة من عمر وبفضل موهبة لدنية من هذا ، لأن السلطة كانت قد افلتت بالكلية من المهاجرين لمصلحة الأنصار . كانت المنافسة بين المجموعتين قوية جداً إلى حد كبير ، وكانت منفتحة على النزاعات التي حاول النبي ص تهدئتها . فأثناء حملة (بني المصطلق السنة ٦ من الهجرة ٦٢٨م) ، انقسم جيش محمد ﷺ إلى شطرين ، مهاجرين وأنصار وأخذوا يمتشقون سيوفهم بتمرد حقيقي حيث طغت الانقسامات القبلية القديمة . فعبد الله بن أبي ، أحد رؤساء هؤلاء المدنيين ، الذين لم يقبلوا مطلقاً وصول الغرباء (محمد وجماعته المكيين) ، لخص نزاع المصالح هكذا : «نحن المدنيين عوقبنا تماماً لأننا اطعمنا المهاجرين وآويناهم ؛ فانظروا كيف يكافئوننا انه كالكلب الذي يربيه أحدهم ، وعندما يصبح كبيراً يفترس من أطعمه»[٢٤] . وقد كان الرسول ﷺ اغتم جداً من هذه الملاحظة وضاعف من يقظته ليفرض نفسه حكماً متسامياً عن التبعيات القبلية . ومع موته تنطلق علناً نزاعات المهاجرين والانصار . . . . .

فور الاعلان عن وفاة النبي عقد رؤساء عشائر الأنصار اجتماعاً عاجلاً في سقيفة بني ساعدة ، وذلك لكي يتداولوا في تعيين واحد من بينهم خليفة لمحمد ﷺ[٢٥] . . . ولم يكن أبو بكر وعمر بن الخطاب صاحبي النبي ﷺ الأكثر

التصاقاً به ، واللذان كانا وحدهما يفترض ان يعتبرا مرشحين ، لم يكونا قد اخطرا بالأمر . «دخل رجل إلى الجامع وقال : إن الانصار قد اجتمعوا وبايعوا سعد بن عبادة . فنهض أبو بكر وأخذ بيد عمر فخرج معه»[٢٦] . وهكذا اضطرا لترك جثة النبي ﷺ دون اتمام مراسيم الدفن وهرعا لينخرطا في سقيفة بني ساعدة حيث يتقرر مصير الجماعة الاسلامية . واستمر المهاجرون على رأيهم في إجراء مفاوضات حاسمة مع الانصار الذين عرضوا انتخاب رئيسين : (قال الانصار : ان فضيلكتم أيها المهاجرون لا تنكر ، ولكننا نريد ان نسمي واحداً منا كرئيس فاختاروا واحداً من بينكم وبهذه الطريقة سيكون الفريقان راضيين ولن يكون في ذلك بيننا لا جدال ولا ادعاءات»[٢٧] .

ان مشروع محمد ، الذي اقتضى بالضرورة نهاية التبعيات والمقاطعات القبلية ، كذلك دمجهم في فكرة عليا ، فكرة الأمة ، الجماعة بحيث تكون الصلة التي توحد الاعضاء صلة روحية ، كادت ان تصبح لاغية عندئذ . كان صديقاه المفضلان ورفيقاه وتلميذاه المؤمنين ، أبو بكر وعمر ، اللذان أرادا استمرار السنة النبوية كانا من قريش ، قبيلة محمد ﷺ المكية ، ولكنهما لا ينتميان لعشيرته . ومن بين الانصار لم يكن لواحد من الصحابة المكانه التي لأبي بكر وعمر . ولكن ، كيف يفرضان نفسيهما على الأنصار في هذه الظروف الصعبة ؟ لقد ترك أبو بكر وعمر الانصار يطنبون في الكلام ثم ، في لحظة ما ، تدخل عمر بطريقة عاجلة بهرت الحضور . فخشية من امتداد الصراع وامكانية تحوله إلى صراع دموي قال لأبي بكر ، امدد يدك وتلقى بيعتنا لأنك وجه قريش والمحترم فيها والأكثر جدارة . وأجابه أبو بكر ، كلا أنت يجب ان تمد يدك وتتلقى البيعة . فأمسك عمر بيد أبي بكر وبايعه بين يديه . وعندما انتشر الخبر في المدينة ، أسرع كل السكان ، وفي هذا الزحام نجا سعد بن عبادة (مرشح الانصار) من أن يقتل ويسحق بين الأرجل . . . »[٢٨] .

هكذا بدأ الاسلام بعد وفاة الرسول ﷺ : حسب عملية تدخلت فيها النخبة وفاوضت ، وحسب الظروف لانقاذ الأساسي ، الأساسي المتغير بالتأكيد حسب المصالح المتعارضة .

وبعد سنتين ، عند موت أبي بكر في ٦٣٤ سيكون عمر المعين لخلافته ،

ولكن عملية تعيينه كانت مختلفة ، أقل استعراضية وأكثر نخبوية أيضاً . فأبو بكر هو الخليفة الراشدي الوحيد الذي مات على فراشه ، ميتة طبيعية ، بعد فترة مرض قصيرة . وكان لديه من الوقت ما استطاع فيه ان يرتب خلافته . لقد شاور عدداً من الشخصيات المؤثرة ، وطلب إليهم في اجتماع خاص التزام السرية . حاول معرفة رأيهم حول ترشيح عمر بن الخطاب وطلب إليهم أن لا يخبروا أحداً عن موضوع الاجتماع»[٢٩] . اثر ذلك ، ترأس أبو بكر جمعية من اشراف الناس وطلب إليهم : هل تقبلون من سوف اسميه خليفتي ؟[٣٠] . وأعلمهم أن عمر هو مرشحه : «فأجابوه : سمعنا واطعنا»[٣١] . وهنالك نص آخر يؤكد أن الناس تلقوا بشكل غير مباشر نية أبي بكر بتعيين عمر كخليفة له بعد موته[٣٢] .

واستمر حكم الخليفة عمر عشر سنوات . وفي ظل حكمه فتح المسلمون إيران ومصر . ويعود له الفضل في تنظيم الادارة المالية للجيش . وهو سوف يقتل من قبل عبد أجنبي في الجامع ، في وقت كان يؤم فيه الصلاة العامة . كان قاتله أبو لؤلؤة عبداً أعجمياً (من أصل غير عربي) وكانت ديانته المسيحية ، وكان بصفته تلك خاضعاً للضريبة التي يتوجب على الأجانب دفعها . في الواقع ان عمر كان قد حرم على غير العرب الاقامة في المدينة[٣٣] . إن ابا لؤلؤة وقد وجد انه دفع الكثير من الضرائب تكلم مع عمر ، الذي كان قدر بأنه كان كلف ما كلف به بعدل . وعندما جرح عمر ، نقل إلى منزله . وعلى فراش موته ، اتخذ بادرة سوف تعرف منذئذ تحت اسم (الشورى) : فقد عينَ جماعة من ستة أشخاص من بين المرموقين بقصد ان يطلب رأيهم في ان يختاروا خليفة من بينهم ليخلفه[٣٤] .

ويكرس الطبري تسع صفحات لتحليلات المساومات التي حصلت عندئذ ، وأبرمت بعد ثلاثة أيام من موت عمر ، بتسمية واحد من الستة كخليفة : عثمان بن عفان ، الذي سيصبح الخليفة الثالث الراشدي في عام ٦٤٤ . لقد كان كالخليفتين الأولين من المهاجرين المكيين من قبيلة قريش ، ولكن من أحدى العشائر القريبة والمخاصمة لعشيرة الرسول ﷺ ، عشيرة الأمويين . ان عشيرة الأمويين وبني هاشم (عشيرة الرسول وعلي) يلتقيان على مستوى جدهم عبد مناف إضافة إلى ذلك ، فإن عثمان الذي تزوج رقية احدى بنات النبي ﷺ ، كان

قد شعر مبكراً جداً بالأهمية الاستثنائية لرسالة حميه ووقف إلى جانبه في النزاعات التي أثارتها قريش ضده . لقد مثل اذن بين الجماعة الصغيرة من المتميزين التي اختير منها الخلفاء الأول .

لكن خلافة عثمان انتهت في مأساة بعد احدى عشرة سنة من تعيينه ، في نهاية السنة ٣٥ للهجرة (٦٥٥)م ، ذلك ان عصبة من المتآمرين من المواطنين ، رأت فيه خليفة يحكم البلاد بشكل ظالم ، وذهبت لمحاصرته وهنالك اغتاله عدد كبير من هؤلاء المعارضين الذين تسللوا إلى منزله في حين أنه كان على أهبة القيام بقراءة القرآن(٣٥) . ومع موته بدأ ما يسمى بالفتنة الأولى ، وهي فترة من عدم الاستقرار سوف تمضي ، رغم تعيين علي خليفة راشدياً رابعاً ، لتبلبل البلاد في أول حرب أهلية .

لقد عين علي خليفة في مدينة غير مستقرة بالكلية، في٦ حزيران٦٥٦ (ذي الحجة من السنة ٣٥ هجرية) ، الا ان كثيراً من المسلمين امتشق السلاح ضد تعيينه . وتزعمتهم عائشة ومضت مع جيش من العصاة لمحاربة علي في البصرة ، وبعد سنة في موقعة الجمل(٣٦) . انتصر علي في معركة ساحقة ، وبعد هذه المعركة ، روي الحديث : انه لم يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة. إن علياً الذي ضعف في معركة الجمل ، سوف يتعرض لمواجهة خصم سياسي آخر ، أشد خطراً من عائشة ، انه معاوية بن أبي سفيان حاكم سورية الذي انتقد علياً ، كما انتقدته عائشة ، بأنه لم يعاقب قتلة عثمان الخليفة الثالث ، وقد كان معاوية ينتمي إلى عشيرة عثمان ، عشيرة الأمويين المخاصمة لعائلة بني هاشم . اذا كان جيش عائشة لم يضم سوى بضعة آلاف من الجنود ، فإن جيش معاوية لم يكن يضم أقل من ٨٥ ألف رجل ، وجاء علي من العراق بـ٩٠ ألف رجل(٣٧) .

وتجابه علي ومعاوية في معركة صفين التي كانت طويلة ودامية . وأي واحد من المخيمين لم ينتصر . قتل سبعون ألف رجل . وتقرر ان يجري تحكيم في شباط ٦٥٨ وبه عين معاوية خليفة ، ولم يكن هنالك اجماع على نتائج التحكيم الذي بني على الغش ، الأمر الذي أثار انقسام المسلمين بين سنيين (الذين قبلوا نتائج التحكيم مهما شابه من مخادعة ، فالاساس كان بالنسبة لهم وجود رئيس قوي

يوقف الحرب الأهلية) وبين شيعيين رفضوا الاعتراف بمعاوية . وبقي الأمر بالنسبة لهم اعتبار علي هو الخليفة واعتبار معاوية غاصباً . اضافة إلى هذين القسمين ، وجدت جماعة من المتطرفين ، الخوارج الذين قرروا التخلص من الخليفتين ـ وهو أول عمل من الإرهاب السياسي والاغتيال لرئيس الدولة بادارة زمرة صغيرة . «ففي سنة ٤٠ هجرية اجتمعت كتيبة من الخوارج في مكة ، وتحادثوا حول الحروب والاضطرابات التي ارهقتهم ، عندها وافق ثلاثة منهم على اغتيال علي ومعاوية وعمرو بن العاص(. . .) واقسموا على اتفاقهم بأن لا يتركوا الضحية المختارة للتنفيذ من قبل كل واحد منهم قبل ذبحه أو الموت في هذا المشروع(. . .) وتم اختيار ليلة١٧ أو برأي بعضهم٢١ من شهر رمضان (٢٨ / كانون ثاني٦٦١) موعداً لتنفيذ الجريمة»[٣٨]. نجح المتآمرون في تنفيذ جزء من ضربتهم، وإذا كان معاوية قد جرح فقط ، فإن علياً مات من جراحه ، وقد جرى اغتياله صباحاً، في الوقت الذي كان يتأهب ليؤم المسلمين في صلاتهم في الجامع..

هنا تنتهي قصة الخلفاء الأول ، لأنه ، مع وصول معاوية إلى السلطة ، لن يعتقد أحد بأسطورة اختيار «أصولي» نسميه اليوم «ديموقراطي» ، لرئيس الدولة الاسلامية : وسيلجأ معاوية بكل بساطة ليسمي في حياته ابنه يزيد وريثه في السلطة . فالاسلام الذي كان يريد تجنب الاريستوقراطية القبلية ، عاود الوقوع في ظاهرة مشابهة ، وانما على مستوى الامبراطورية المسلمة : ظاهرة الأسرة الحاكمة Dynastique . وحافظ معاوية على السلطة حتى ٦٨٠م ، وهي فترة طويلة من الحكم اعطته الوقت الكافي ليقيم أسس الدولة الاستبدادية .

لم نشر إلى هذه الخلاصة من عمليات تعيين الخلفاء الراشدين الا لجعل القارىء يأتلف مع الاحداث التاريخية التي اعدت خلالها سُنّة النبي ﷺ (التقليد ، الاحاديث) ، وبخاصة لكي نشير إلى مسألة هي ، أن مرور خمسة عشر قرناً ، لم تكفِ ليبدو معها المسلمون أنهم اتخذوا عدتهم لحل هذه المسألة وهي : كيف يحولون مبدأ المساواة بين كل المؤمنين (مهما كان جنسهم وأصلهم الاثني أو الاجتماعي) إلى سياسة عملية تعطي الجميع الحق بالمساهمة في تعيين رئيس الجماعة ؟ . هذه «الفتره من الأصولية» ، وبخاصة نهايتها الفظة ، هي في آن واحد

امارة مرض ورمز لفهم العنف السياسي الحديث في البلدان الاسلامية . فاثناء العقود الأولى من السنين ، وقبل وصول معاوية إلى السلطة ، كان الحل المعتمد هو اجماع أهل البيعة (الاشخاص المؤهلين لحلف يمين الطاعة) من الأشراف (الأعيان ، الذين تثق بهم العشائر ويديرون شؤونها) ، وأهل الحل والعقد (الذين يمكنهم امضاء العقد والغائه) .

ويمكن ان نتصور الأهمية التي كانت توجد لدى كل مجموعة من أصحاب المصالح للبحث عن المشروعية في النص المقدس وبموجب هذا النص . إن الاحداث التاريخية كقماش المسرح الخلفية الأساسية ، ويمكن الآن بأكبر مقياس صحيح لها ، تفحص الاتجاهين المتعارضين اللذين كانا في أساس إقامة الحديث : من جهة ارادة رجال السياسة لتداول المقدس ، ومن جهة أخرى إرادة العلماء الشرسة لمعارضتهم ، بالرجوع لإقامة فقه ، علم ديني حقيقي ، مع مفاهيمه ومناهج تحقيقه وإعادة تمحيصه . وكان البخاري الممثل لهذه التوترات : فبصفته مثقفاً ، اعتزل السلطة ليركز على البحوث الضرورية لتدوين موضوعي للاحاديث ، وكان في الوقت ذاته ضحية ضغوط سلطوية تطلب إليه وضع علمه في خدمة السياسة ، وهذا ما رفضه . إن البخاري المتولد ، كما يدل اسمه ، في بخارى سنة ١٩٤ هجرية (القرن التاسع .م) ، مات في سنة ٢٥٦هـ . (٨٧٠م) كان قد سافر مثل كل علماء عصره عبر الأراضي الاسلامية باحثاً منقباً عن أفضل الاساتذة وأفضل الجامعات ، وتوقف في سورية والعراق ، وزار الحجاز ، وتوقف في مصر فترة . وكانت مدة محطاته تتعلق بلذة لقاءاته الفكرية وصفات المعلمين . «لقد زار كافة العلماء المعروفين» الذين كانوا خبراء في الميدان الذي شاء ان يتخصص فيه ، أي الحديث . وهو ما أن سجل الحديث مرة في مجموعته ، حتى أصبحت الاحاديث تشكل السنة ، طريق محمد ﷺ . إن دلالة المؤمن ، بمنحى الاحاديث (وشروح القرآن بداهة) ، والطريق المستقيم الذي اتبعه الرسول ، هو المسار الذي يوصل إلى حياة لائقة على الأرض ، وإلى الجنة بعد الموت .

وهكذا فقد استطاع البخاري ، المنهجي والمنظم ، مقابلة (١٠٨٠) شخصاً

وجمع ٦٠٠,٠٠٠ حديث . وقصد قبل كل شيء أن لا يخون محمداً ﷺ ، أي أن يتحاشى نسبة قول له لم يقله . وقد قام عمله بصورة خاصة على التحقق من صحة أي حديث يدونه . وكانت مشكلة البخاري ، مشكلة منهجية ، كيف يتحقق من حديث انه صحيح أو مكذوب ؟ كانت كتابة تاريخ النبي ﷺ بالنسبة له عملاً خطيراً : «كتبت حسب شهادات ١٠٨٠ شخصاً (. . .) ولم ادخل في الكتاب أي حديث قبل اكمال طقوس الوضوء والصلاة ركعتين»[٣٩] . كان البخاري يتطهر بالصلاة معبراً بهذا عن البعد المتصاعد للوظيفة التي كان يمثلها والمسافة التي يجب ان توجد بين العالم والمادة التي يتعامل بها . بالنسبة لعلماء القرون الأولى كان الدين بشكل نهائي علماً . وتوجب ضمن حدود الامكان تحاشي ، مزج الذاتية الشخصية مع العلم ، هذا مع المعرفة بكل تواضع ان ذلك ليس مطواعاً بكليته . ومن أجل هذا ، يتوجب السهر على تفحص أكثر ما يمكن من النصوص ورواياتها ، واضافة المكررات كي لا تهمل أية وجهة نظر ، وبصورة خاصة الشك بالشهود والرواة : «عندما وصل علم البخاري إلى مرحلة النضج ، بدأ يميز الاحاديث الصحيحة عن غيرها . وبعد ان طور معرفة محكمة جداً لمختلف أنواع الاحاديث ، طوع التقنيات لكشف عيوبها (. . .) ، وكان استعداده في هذا الموضوع غير منكور»[٤٠] . وما أن أقام البخاري منهجه في التحقيق حتى وجد انه : «لم يأخذ كحديث صحيح سوى ٧٢٧٥ ، اذا حذفت المكررات يبلغ عددها ٤٠٠٠»[٤١] .

إن الدرس الكبير الذي يمكن استخلاصه من تجربة البخاري في المآخذ التي تهرب مع الزمان والذاكرة التي تضعف ، هو أنه يجب على الأقل ان يكون جديرا بمنهجه وان يسدى له المديح ، مع استمرارية الشك بكل أولئك الذين يرتبون أمورهم بمعونة الحديث .

فاذا كان حتى زمن البخاري ، أي بأقل من مائتي سنة بعد وفاة النبي ﷺ قد وجد آنئذ ٥٩٦٧٢٥ حديثاً مكذوباً متداولاً (٦٠٠٠٠٠ـ ٧٢٧٥ + ٤٠٠٠) فإنه يمكن تصور ما هو عليه الأمر حتى يومنا هذا !! والأكثر مدعاة للدهشة هو أن ، الشك الذي قاد عمل مؤسسي العلوم الدينية قد زال الآن .

لم يكتف البخاري بالتحقق من كل ما سجله ، بل انه بهدف احترام النص المقدس ، حرر دراسة هامة حول حياة ناقلي الحديث (التاريخ الكبير) . وقد أصبحت دراسة الرواة (الاسناد) علماً في القرن الثاني للهجرة ، مع انتصار التقليديين (السنيين)[٤١] .

لقد أصبح البخاري شخصية شهيرة ونادراً ما تتأخر السلطة السياسية عن الاهتمام به : «عندما عاد البخاري إلى منزله في مدينة مسقط رأسه ، نصبت الخيام وتحرك كل السكان لاستقباله (. . .) ، وبقي فترة من الزمن في بخارى ، ثم نشأ نزاع بينه وبين أمير المدينة ، واجبره هذا الأخير على /نفي نفسه/ الخروج من البلد . . . »[٤٣] . إن الأمير الساعي ليبرهن للسكان باشارة رمزية جداً انه مهتم بمراقبة الفقه ، والمعرفة المقدسة ، طلب إلى البخاري ان يجيء إليه ويقرأ في القصر ، اثناء اجتماعات خاصة ، منتخبات من صحيحه . وكان رد البخاري ، الذي سبب له النفي ، قوله لرسول الأمير : «اذهب وقل إلى معلمك إنني لا أذل العلم ، وانني أرفض ان أحمله إلى أبواب السلاطين» .[٤٤] .

ولم يكن لكل العلماء ذات الإباء الذي هو لدى البخاري . كثيرون باعوا أنفسهم بحفنة من الدنانير إلى رجال السياسة الذي حاولوا دفع المؤمنين على العلوم الدينية لاختلاق الأحاديث التي تساعدهم . لقد كان هنالك الكثيرون من الكذبة الذين حاولوا ان ينسبوا للرسول مارتبوه ، على ما قاله لنا أبو زهرة ، وشرع القاضي عياض بإجراء تصنيف لذلك . وحسب قوله : ان الصنف الأول هو الذي ينسب للرسول ﷺ قصداً ما لم يقله . وهذه الفئة تقسم إلى مجموعتين : أولئك الذين يكذبون لمصلحة مادية وأولئك الذين يكذبون لمصلحة ايديولوجية . والفئة الثانية هي التي لا تصنع (تفبرك) مضمون الحديث ذاته (المتن) وانما تكتفي بالعمل على مستوى سلسلة الرواة : « . . . . على سبيل المثال ، يلصق بحديث ضعيف إسناد صحيح ، مؤلف من شخصيات مشهورة»[٤٦] . ويضيف القاضي عياض فئة ثالثة ليست أقل أهمية : «يوجد أولئك الذين يكذبون ، بكل بساطة ، فيدعى أحدهم سماع أحاديث لم تصل إلى مسامعه أبداً ، ويدعى انه التقى بأشخاص لم يلتق بهم مطلقاً»[٤٧] . فخلف كل تضخم

بالاكاذيب المتعلقة بما كان الرسول ﷺ قاله أو فعله ، يجب ان تبقى ماثلة في الذهن الصراعات حول السلطة ، وصراعات المصالح لجماعة مسلمة اغتنت برمشة عين ، حيث أن الحركية الاجتماعية وكذلك الحركية الجغرافية ، بفضل الفتوحات كانت كبيرة جدا . ان الادعاء بالقرب من الرسول أو الحصول منه على امتياز ما سوف يغطي المشاريع الاقتصادية والسياسية الضخمة . وان مصدر الحديث المكذوب ، كتداول بامتياز لنص مقدس ، كان مطلوباً ، خارج الظروف . وفي طبيعة النظام السياسي ذاته الذي لم يستطع أبداً تصعيد أصوله النخبوية ودفع التفكير حول الطرائق الزرائعية لتحرك شامل للسكان كي يساهموا في تعيين رئيس الدولة . والتفكير في شيء على هذه الدرجة من الابتذال ، في أيامنا هذه ، بأنه عملية اقتراع ، وصندوق للانتخاب حيث سيتقاطر عليه السكان مع بطاقة ليعبرون عن اختيارهم ، سيصبح مألوفاً ، رغم مبدأ المساواة للجميع ، كمفهوم أجنبي ، مستورد من الغرب . وبمقدار ما كان عدد السكان أصحاب العلاقة المبعدين أكثر بمقدار ما كانت الخلافات العنيفة أكثر وسط النخب الموجهة ، وبمقدار ما تكون الحاجة أكثر للتعامل مع المقدس .

لقد كان الزمن أكبر تحد لمؤسسي الاسلام بصفتهم هيئة علمية . فقد توجب اقامة قواعد للتحقيق من صحة الحديث . وانطلقت القواعد من تأكيد مبادىء ومسلمات منهجية إلى تقنيات بسيطة من اكتشاف الكذب . فعلى سبيل المثال ، اذا اكتشف انه ، لكي يستطيع زيد من الناس نقل الحديث /س/ إلى الناقل عمرو يجب له ٢٥٠ سنة ، فإنه يستخلص من ذلك ان عمرو قد كذب ، بيد أنه لم يكن البخاري لا الأول ولا الوحيد الذي أقام هذا البحث عن الصحة . كل اولئك الذين كانت لهم علاقة بالنص المقدس ، عالم ، فقيه ، (خبير في العلم الديني) قاضي (يستند على الشريعة الاسلامية) ، إمام ، سوف يبدون كقادة للرأي ومساهمين في كل المحادثات ، حيث توجد السلطة ، وتوجد الثروات .

إن الخلفاء والأمراء الواعون ليسوا بأهمية أولئك الذين يدرسون النص المقدس فحسب وانما بأهمية أولئك الذين يتعاملون مع الذاكرة ، مثل علماء الانساب ، والشعراء والقصاصين ، سوف يحاولون مراقبتهم ، أو ، اذا لم ينجحوا

في ذلك ، فتجميدهم . ويصف طه حسين في دراسته عن الشعر الجاهلي قبل الاسلام البعد الشعبي لهذه الظاهرة ، ويقول : «كان قُصّاص المسلمين يتحدثون إلى الناس في مساجد الأمصار ، فيذكرون لهم قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات ، ويمضون معهم في تفسير القرآن والحديث ورواية السيرة والمغازي والفتوح إلى حيث يستطيع الخيال ان يذهب بهم لا إلى حيث يلزمهم العلم والصدق ان يقفوا . وكان الناس كلفين بهؤلاء القصاص ، مشغوفين بما يلقون إليهم من حديث . وما أسرع ما فطن الخلفاء والامراء لقيمة هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية ، فاصطنعوها وسيطروا عليها واستغلوها استغلالاً شديداً ، وأصبحت القصص أداة سياسية كالشعر»(٤٨) .

والاصفهاني ، مؤلف من القرن الرابع للهجرة (القرن الحادي عشر) يذكر لنا حالة التسوق بين رجل قوي كان طلب إلى أحد الشعراء ، ان يصنع له مقابل ٤٠٠٠ درهم قصيدة يعزوها للنبي ﷺ ، وكانت القصيدة مخصصة لترفع من صورة الأمويين ، العشيرة المعادية لعشيرة الرسول ﷺ .

الأموي : « . . . . بعد ان تصنع أبيات شعرك ، قل انك سمعت ابن ثابت (الشاعر المعروف بانه شاعر النبي ﷺ) ينشدها لدى النبي ، صلاة الله وسلامه عليه . . . . » .

الشاعر : «انني أخاف الله كثيراً لابتداع أكاذيب تتعلق بالنبي ﷺ . على العكس من ذلك ، ـ اذا أردت ـ استطيع القول انني سمعت عائشة تنشدها . . . . »(٤٩) .

ولما لم يجد الأموي عائشة على درجة كافية من التقدير رفض عرض الشاعر وقال له مصراً على طلبه : «أريد ان تقول بأني سمعت حسان ينشدها أمام الرسول ﷺ في وقت كان فيه هذا جالساً»(٥٠) .

إن الرجال الأقوياء ، المالكين ، لوسائل تمويل ضخمة ، حاولوا شراء ، ليس الشعراء فحسب ، وانما رواة الأنساب أيضاً الذين يلعبون الدور الذي تقوم به بطاقات الهوية اليوم . فشراء نسّاب ، يماثل في أيامنا محاولة تزوير أوراق الأحوال المدنية . ان ابن الكلبي ، مؤلف أحد الكتب النادرة عن ديانات ما قبل

الاسلام ، كتاب الأصنام ، والذي كان خبيراً في مادة الانساب يعترف بأنه كان قد باع إلى أحدهم : «أول كذبة صنعتها في مادة النسب عندما طلب إليَّ خالد بن القصري أن أحدثه عن جدته . . .»[٥١] وبدلاً من أن يكشف له ان جدته كانت بغيّاً ، صنع له ابن الكلبي نسباً مشرفاً . ويضيف ابن الكلبي ، بداهة ان خالد كان سعيداً جداً وقد كافأني» .

ويطرح طه حسين في دراسته هذه حول الشعر الجاهلي ، والتي كانت لها عند ظهورها وقع القنبلة ، يطرح مسألة صحة إحدى أعمدة المعرفة العربية ، الشعر الجاهلي الذي استعمل على نطاق واسع كمرجع من أجل قواعد اللغة ومفرداتها من قبل مفسري القرآن ، وكتاب سيرة الرسول ﷺ والمؤرخين . انه قدم اطروحة ثورية ، هي ان هذا الشعر ، الذي هو مفتاح معرفتنا للأدب المقدس وبخاصة القرآن ، هو تصنيع خالص وبسيط . ان اتهام قسم كبير من الشعر المتضمن في نص على هذه الدرجة من الجوهرة ، كتاب سيرة ابن هشام يذكرنا بأن النص الأصلي لهذه السيرة كانت اساساً قد اعدت من قبل ابن اسحاق ، الذي غالى في الاعتذار لأنه لم يكن يعرف كثيراً من الشعر . ويتساءل طه حسين ، وبناء عليه ، من أين جاءتنا هذه المسهبات الشعرية الطويلة التي تشكل جزءاً لايتجزأ من النص؟[٥٢] . الذي هو بين أيدينا ، اذا لم تكن مجرد اضافات ورغبات لتزويق النص ؟ ويضيف انه اذا كان الشعر والأنساب موضوعاً للتسويق ، فإنه يمكن تصور ما كانت عليه منازعات تفسير نصوص السلطة ، القرآن والحديث . لقد كانت هيئة العلماء متنافرة جداً ، تخترقها نزاعات مصالح من كل الأنواع ، ولم يكن النزاع العرقي أقلها . لم يكن يوجد سوى عدد من الخبراء من أصل عربي وعدد كبير من المتخصصين في التفسير واقامة الأدب الديني كانوا من الأجانب ، وينتمون إلى ثقافات أخرى (الطبري من طبرستان ، والبخاري من بخارى إلخ . . .) . وكانت هنالك نزاعات داخلية أخرى في المجموعة المهنية ، مثل الخصومات التي نعرفها تماماً بين خبراء ينتمون إلى أنظمة مختلفة .

هذه الصورة البانورامية تعطينا فكرة عن كثافة المراهنات السياسية والاقتصادية التي رأست ومازالت ترأس التعامل مع النص المقدس ، منذ ذلك اليوم الاثنين سنة ٦١٣م، اليوم الذي كان فيه النبي قد نجح في خلق جماعة . هي في آن واحد ديموقراطية وقوية ، قد أهمل بدون لحد . . .

مراجع وهوامش الفصل ٢

١ ـ الطبري ـ محمد خاتم الأنبياء ص ٢٥١ .
٢ ـ ذات المرجع ص ٦١ .
٣ ـ ذات المرجع ص ٦٥ .
٤ ـ ذات المرجع ص ٦٥ .
٥ ـ أبي الحسن ، علي أحمد النيسابوري ـ أسباب النزول ـ دار الكتب العلمية ، بيروت طبعة ١ ١٩٧٨ ص ٧ (عاش المؤلف في القرن السابع الهجري)
٦ ـ قتادة بن ساما الداوزي ـ كتاب الناسخ والمنسوخ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت طبعة١-١٩٨٤ ص ٥٢ (مات المؤلف في سنة ١١٧هـ) .
٧ ـ ذات المرجع .
٨ ـ انظر مقدمة عبد القادر أحمد عطا لكتاب السيوطي أسرار ترتيب القرآن ـ دار الاقسام ، القاهرة طبعة ٢-١٩٧٨ ص ٢٥ وما يليها ، وفي نص السيوطي ذاته ، انظر الصفحة ٦٩ وما يليها . مات السيوطي في سنة ٨٤٩هـ . القرن ١٥ انظر أيضاً أبي الحسن علي النيسابوري (أسباب النزول) ص ٢ .
٩ ـ لا يوجد مطابقات بين التقويم الاسلامي والتقويم المسيحي وباضافة الفارق ، أي ٦٢٢ ، لأن الشهر من التقويم الاسلامي هو قمري وإذن فهو أقصر من التقويم المسيحي . سنة ١٩٨٦ تناسب السنة ١٤٠٦ ـ ١٤٠٧ من الهجرة . كل سنة من التقويم الاسلامي تكسب بضعة أيام . وكل قرن يكسب ثلاث سنوات مسبقاًعلى التقويم المسيحي . أنظر مارشال (التقويم الاسلامي) .
١٠ ـ يتعلق بالآية ١٩ و٢٠ من السورة ٥٣ ـ حول شرح ما كان شيطانياً وحذف . انظر الطبري ، التاريخ جزء ٢ ص ٢٢٦ . انظر أيضاً الخلاصة البارعة لِـ واط (آيات شيطانية) محمد في مكة ، جامعة اكسفورد طبعة ١٩٥٣ ص ١٠٣ وما يليها .
١١ ـ الطبري مرجع سابق جزء ٢ ص ٢٣١ ابن هشام ـ السيرة جزء ٢ ص ٦٣ .
١٢ ـ السيرة ـ ابن هشام جزء ٢ ص ٦٣ .
١٣ ـ ذات المرجع جزء ٢ ص ٧٠ .

١٤ ـ محمد . . . مرجع سابق ص ١٠٤ .
١٥ ـ السيرة (٢) ذات المرجع ص ٧١ .
١٦ ـ السيرة (٢) ذات المرجع ص ٨٣ والطبري ٢ ص ٢٣٧ .
١٧ ـ السيرة السيوطي ـ اسرار النزول ص ٦٩ .
١٨ ـ السيرة ـ ذات المرجع ص ٢٦٢ .
١٩ ـ انظر الدراسة القيمة لسعد الدين إبراهيم التي نشر قسم منها بالانكليزية (تشريح الجيوش الجماعات الاسلامية المحاربة ، جزء ١٢ الجريدة الدولة للشرق الأوسط ١٩٨٠ ص ٤٢٣ ـ ٤٥٣ .
٢٠ ـ انظر محادثات العديد من المؤتمرات كل سنة في العالم الاسلام حول حق الفرد الحديث ، في النقد ، في المبادهة . وبخاصة «تحديث الفكر العربي ، عدد خاص بمجلة الوحدة عدد ١ تشرين أول ١٩٨٤ ، التراث والعمل السياسي .
٢١ ـ أبو زهرة ـ مالك ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ص ١٢٦ وما يليها .
٢٢ ـ ذات المرجع .
٢٣ ـ محمد خاتم الانبياء ـ ذات المرجع ص ٣٥٢ ـ السيرة أيضاً جزء ٤ ص ٣١٤ .
٢٤ ـ ذات المرجع ص ٢٣٤ .
٢٥ ـ السيرة ، جزء ٤ ص ٣٠٣ ابن سعد ، الطبقات جزء ٣ .
٢٦ ـ محمد ﷺ ـ مرجع سابق ص ٣٤٩ .
٢٧ ـ ذات المرجع . ص ٣٥٠ .
٢٨ ـ ذات المرجع ص ٣٥١ تاريخ جزء ٣ ـ ابن سعد ـ الطبقات ص ١٨٦ .
٢٩ ـ التاريخ ـ مرجع سابق جزء ٣ ص ٥١ .
٣٠ ـ ذات المرجع ـ مرجع سابق جزء ٣ ١٩٢ .
٣١ ـ ذات المرجع ص ٥١ .
٣٢ ـ الطبقات ـ ص ١٩٢ .
٣٣ ـ المسعودي مروج الذهب جزء ١ ص ٦٠٧ .
٣٤ ـ التاريخ ـ ذات المرجع جزء ٣ ص ٣٣ .
٣٥ ـ ذات المرجع جزء٥ ص١٣ .
٣٦ ـ ذات المرجع ص ٢٠٣ .
٣٧ ـ مروج الذهب جزء ٣ ص ٦٤٩ .
٣٨ ـ ذات المرجع ص ٦١٣ .

٣٩ ـ الصحيح جزء ـ مدخل : ابن حجر العسقلاني فتح الباري جزء ١ ص ٢٦١
٤٠ ـ ذات المرجع .
٤١ ـ ذات المرجع ص ٣ .
٤٢ ـ يوسف شاخت ـ مدخل للقانون الاسلامي ص ٣٩ .
٤٣ ـ فتح الباري ١ ص ٢٦٥ .
٤٤ ـ ذات المرجع .
٤٥ ـ ذات المرجع مالك .
٤٦ ـ ذات المرجع ص ١٤٨ .
٤٧ ـ ذات المرجع .
٤٨ ـ طه حسين في الشعر الجاهلي الطبعة ٦٠ ص ٢٣ .
٤٩ ـ كتاب الاغاني للاصفهاني جزء١ ص ٢٣٠ .
٥٠ ـ ذات المرجع .
٥١ ـ ابن الكلبي ـ كتاب الأصنام . ص ١٨ طبعة القاهرة .
٥٢ ـ في الأدب الجاهلي ـ طه حسين ذات المرجع ص ١٥٢ .

-٣٠-

بحث حول حديث ضد النساء وحول منشئه أبو بكرة

حسبما ذكره البخاري ، فإن أبو بكرة هو الذي سمع الرسول ﷺ يقول «لم يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[1] . وبما ان هذا الحديث يرد بين البضعة آلاف من الأحاديث الصحيحة المعتمدة من قبل البخاري، فقد إعتبر انه صحيح وبخاصة انه لم يسبق ان جرت مهاجمته ، وحتى اثبات عكسه ، طالما اننا في أرضية علمية . وبصفتي امرأة مسلمة ، لاشيء يمنعني اذن من ان أقوم ببحث مزدوج ، تاريخي ومنهجي حول الحديث وراويه ، وبخاصة حول الظروف التي استعمل فيها لأول مرة . فمن قال هذا الحديث ؟ وأين ومتى ، ولمن ، ولماذا ؟؟ .

أبو بكرة صحابي عرف الرسول في حياته وقد يكون عاشره بما يكفي ليستطيع تقرير الاحاديث التي سمعه يتلفظ بها . وحسب هذا الصحابي ، ان الرسول ﷺ تلفظ بهذا الحديث عندما سمع ان الفرس سموا امرأة لتحكمهم : «عندما توفي كسرى رئيس الدولة الفارسية؛ (كسرى يرجع بالاحرى إلى قيصر ولكنه هكذا وردت تسميته في النص) ، سأل النبي ﷺ ، الذي كان النبأ قد أثار اهتمامه : ومن هو الذي حل محله في القيادة ؟ وأجيب : لقد اناطوا السلطة بابنته»[2] . في هذه الفترة ، حسب قول أبي بكرة ، كان رد الفعل بهذا القول عن النساء .

في سنة ٦٢٨م عندما كانت الحروب الدائمة قائمة بين الفرس والرومان ، اجتاح الامبراطور الروماني ، هرقل ، مملكة فارس ، واحتل ستيزيفون ، الواقعة قريباً جداً من عاصمة الساسانيين ، وقد كان جرى اغتيال عاهل الفرس ، خسروباني . ويمكن ان يكون أبو بكرة قد أشار لهذا الحدث . فعلاً ، بعد موت خسرو بين ٦٢٩ و٦٣٢ كانت هنالك فترة من عدم الاستقرار ، وكان هنالك عدد من مدعي عرش الامبراطورية الساسانية ، عرفت من بينهم امرأة[3] . فهل كان ذلك هو الحدث الذي أدى بالنبي ﷺ إلى التلفظ بهذا الحديث ضد النساء ؟ لم يبتعد البخاري كثيراً ، فاكتفى بتقرير افكار أبو بكرة ، أي مضمون الحديث ذاته، وهكذا ارجعه الى المرأة التي تولت السلطة عند الفرس. ولكي نجد تفصيلات أكثر عن أبي بكرة ، يجب الرجوع إلى العمل الكبير لابن حجر .

في السبعة عشر مجلداً من كتابه فتح الباري شرع ابن حجر في شرح البخاري سطراً سطراً ، ويعطي ابن حجر بالنسبة لكل حديث من الصحيح الضوء التاريخي : الظروف السياسية التي استخدمته كستارة أساس ، وتفصيل للمعارك ، وهوية الاطراف المتنازعة ، وهوية الرواة وآراؤهم وأخيراً المناقشات بامكانية العمل . وكل ما يجب لاشباع رغبة حب الاطلاع للباحث .

ففي أية مناسبة تذكر أبو بكرة هذه الردة الفعل من النبي ﷺ ولماذا شعر بالحاجة إلى روايته ؟ يجب ان تكون لأبي بكرة ذاكرة اسطورية لأنه تذكر بعد ربع قرن من موت النبي ﷺ ، في الفترة التي استرد فيها علي البصرة بعد ان غلب عائشة في موقعة الجمل[4] .

قبل احتلال البصرة ، كانت عائشة في حج إلى مكة حيث تلقت نبأ اغتيال عثمان في المدينة ، ثم تعيين علي كخليفة رابع . وفي مكة اتخذت القرار بقيادة المقاومة المسلحة ضد علي . ثم كانت هنالك أيام وأيام من عدم التقرير : هل كان يتوجب عليها ان تذهب إلى الكوفة أم البصرة ؟ كان يجب ان تكون لها مدينة هامة ، مع ما يكفي من الناقمين كي تستطيع العمل وإقامة مركز لقيادتها . وبعد اتصالات عديدة ، ومفاوضات ومناقشات اختارت البصرة . كان أبو بكرة هو أيضاً أحد اعيان هذه المدينة ، ومثل هؤلاء الأعيان كان في وضع صعب : هل

يمتشق السلاح ضد ابن عم النبي ﷺ وخليفته ، الذي وان كان من الممكن ان يكون له معارضوه الا انه خليفة شرعي ، ام انه يحمل السلاح ضد عائشة «حبيبة حبيب الله» و«امرأة النبي ﷺ على الأرض وفي الجنة»[5] . ومن جانب آخر ، اذا علمنا أنه أصبح مرموقاً في هذه المدينة العراقية التي لم يكن مع ذلك ينتسب لها ، يمكن أن نقدر بشكل أفضل مدى حالته السيئة .

يمكن القول إن الاسلام حمل له السعادة . فقبل ان يحتنق الاسلام كان أبو بكرة يعاني شظف العيش، وحياة ملأى بالضعة، وهي حياة عبد في مدينة الطائف حيث كان للاريستوقراطية (علية القوم) وحدها حق في الكرامة . وفي سنة ٨ من الهجرة / ٦٣٠م ، قرر الرسول ﷺ أنه لم يحن الوقت بالنسبة له ليمض إلى فتح الطائف . لقد فتح مكة جاعلاً فيها مدخلاً ظافراً وشعر بلزوم اخضاع سكان الطائف الذين كانوا يعادون الاسلام دائماً وقد دافع هؤلاء جيداً عن أنفسهم . وخيَّم النبي ﷺ أمام المدينة ، وحاصر الحصن خلال ثمانية عشر يوماً . وعبثاً . فالقبيلة الرئيسية التي كانت تحرس المدينة بنوتميم ، وحلفاؤها احتمت في الحصن واستعملت القوس والنشاب ضد المحاصرين ، موقعين الخسارة في جانب محمد ﷺ . لقد قتل من رجاله اثنى عشر شخصاً ، الأمر الذي أزعجه لأنه كان يرى كسب الحرب دون ان يفقد رجاله . كل جندي كان صحابياً ، وكان يعرف عائلته ، ولم يكن جيشاً مغفلاً . وقرر رفع الحصار والذهاب . ولكنه قبل ذلك ، أرسل رسلاً يهتفون حول الحصن والمدينة المحاصرة بأن كل عبد يترك الحصن وينضم إلى صفوف جيش محمد ﷺ سوف يكون حراً[6] . واستجاب عشرات العبيد إلى ندائه ، وكان أبو بكرة من هؤلاء . فأعلنهم النبي رجالاً احراراً ، رغم احتجاج اسيادهم ، وأصبحوا بعد اعتناقهم للاسلام ، أخوة ومساوين للجميع[7] . وهكذا اكتشف أبو بكرة فجاة الاسلام والحرية .

ها هو بعد بضع سنوات فيما بعد ، يصبح وجيهاً في المدينة العراقية مجسداً حلم محمد ﷺ : كل الفقراء والوضعاء في العالم ، يمكنهم الوصول إلى السلطة وإلى الثروة . ويلخص صحابي بشكل جيد كثافة وسرعة هذه الترقية الاجتماعية التي كونها الاسلام بالنسبة لأشخاص ، مثل أبي بكرة ، الذي لم يكن يستطيع

مطلقاً ان يتصور ترك مدينته ، مسقط رأسه ، وكرجل حر ، وان يغير وضعه الاجتماعي بهذه السرعة : «لقد كنتم أنتم العرب ، في حالة لا توصف من الضعة والعجز والانحلال وانقذكم اسلام الله ومحمد ﷺ أوصلكم إلى هنا حيث أنتم الآن»(٨) . وفي الواقع ، كان أبو بكرة منذ اسلامه أخذ يتسلق السلّم الاجتماعي بخطى مدوخة : «كان أبو بكرة تقياً جداً وبقي كذلك طيلة حياته وحتى موته. كان ابناؤه بين أعيان البصرة ، بسبب ثروتهم ومعرفتهم . . . .»(٩) .

وعندما بدىء ، من أجل الاجيال القادمة ، اعداد سيرٍ شخصية للصحابة ، تضايق بعض الخبراء لأن أبوة أبي بكرة لم تكن واضحة ابداً . فالامام ابن حنبل ، الذي شرع باجراء بحوث حول انساب الصحابة ، يعترف «بانه مر سريعاً بحالة أبي بكرة ، دون الدخول في التفاصيل ، لأنه نُصح بأن لا يتعمق كثيراً . . . »(١٠) . لقد كان أبو بكرة يشكل جزءاً من ذلك الصنف المبهم في نهاية العهد الجاهلي ، والذين كان يصعب إعادة رسم أبوتهم . فعدم الحصول على نسب صريح ، كان قلما يوجد اجتماعياً في المجتمع القبلي والاريستوقراطي . صحيح إن حالة الأطفال الطبيعيين نادراً ما كانت تحترم في المجتمع الاسلامي ، الا ان أسباب الازدراء تختلف كلياً ، ففي فترة ما قبل الاسلام ، كانت إعادة رسم الأبوة حتى الجد البعيد جداً هو علامة امتياز للاريستوقراطية . لم يكن يمكن للعبيد والطبقات الأخرى إعادة رسم نسبهم مع الضمانة المتوجبة ، ولا يكون ذلك الا مع تحول في المكان ، اقتلاع الجذور . ان الطفل الطبيعي في الاسلام هو موضع ازدراء لأن أمه خالفت قانون الاسلام الذي لايسمح بالعمل الجنسي الا في نطاق الزواج ، الأمر الذي لم يكن كما كان عليه الحال في زمن الجاهلية ، الزمن الذي لم يكن فيه للناس معايير لتميز بين ما هو مباح عما هو محرم ، وما هو شرعي عما هو غير شرعي . ان في ما قدمه الاسلام في موضوع الأبوة ، يمكن القول بشانه إنه كان تجديداً .

إن احدى المؤسسات الثورية (في معنى القطيعة مع الماضي) ، التي تبناها الاسلام كانت بكل وضوح ، العدة ، وهي فترة الانتظار التي تلزم امرأة مسلمة ، منفصلة عن زوجها لسبب أو لآخر (طلاق أو موت) ، ان لا تعود للتزوج مجدداً

قبل انقضاء عدة أشهر وانتظار عدة قروء .هدف العدة هو إيجاد الوالد الطبيعي للطفل بهدف الحاقه به ، في الحالة التي تكون فيها المرأة حاملاً . في العهد الجاهلي ، كان ربط الولد بالوالد مهملاً (بالنسبة للقبائل التي كان النظام الأمومي مازال مطبقاً فيها) ، أو كان غير واف بالغرض (نساء أسيرات عائشات مع خاطفيهم ، أو إماء ينتقلن من سيد لآخر حسب السوق والنزوات) أو كان مستحيلاً ، وهو حسبما يبدو غير هام جداً في حالة زواج المتعة المؤقت(١١). بالنسبة لهذا الزواج الأخير ، الذي يستمر الجدل حوله حتى اليوم بين السنّيين (الذين يدينونه) والشيعة (الذين يجيزونه)، يمكن لامرأة ولرجل أن يقررا العيش في حالة زواج خلال بضعة أيام ، بضعة أسابيع أو بضعة شهور ، ويكفي تحديد تاريخ الانفصال من البداية وينتهي الزواج في التاريخ المتفق عليه والمحدد من قبل الشريكين . هذا الزواج ، العملي بالنسبة للرحّل أو التجار الذين يقومون بأسفار طويلة ، حُرّم من قبل السنّيين ، الذين اعتقدوا بأنه كان مناقضاً بشكل فاضح لمبادىء الأسرة الاسلامية وبخاصة قاعدة الأبوة التي تربط الطفل بوالده المولد .

من الرجوع إلى أبوة أبو بكرة ، التي لم تكن حالة متفردة ، بل على العكس مصير كل اولئك السكان (المقطوعي الجذور) الذين كانوا يعانون الشكوك الحائمة حول أبوتهم والتي كانت تعبر عن حالتهم التبعية . وكثير من سير الصحابة تبدأ هكذا ، بجملة أو جملتين من المؤلفين حول الصعوبات التي يعانونها لاعادة رسم أبوتهم. كان أبو بكرة رجلاً لم يمنحه الاسلام ثروة واحتراماً فحسب، بل اعطاه أكثر من ذلك ، اعطاه هوية : «أنا اخوك في الدين» ذلك ما كان يقوله لمن يحيط به(١٢) . مع مثل هذا التاريخ يمكن ان نتصور بسهولة أنه كان عدواً لكل حرب أهلية يمكن لها ان تدمر استقرار المجتمع الاسلامي .

لماذا استُجرّ اذن ليفتت ذكرياته ويبذل الجهد العجيب كي يتذكر كلمات كان الرسول قد تلفظ بها منذ /٢٥/ سنة سبقت؟؟ .التحليل الأول، البعيد عن قابليته للإهمال ، هو أن أبا بكره تذكر حديثه بعد موقعة الجمل . في هذه الفترة، لم يكن مصير عائشة مما تُحسد عليه ، لقد كانت أعدمت سياسياً حيث صرع ثلاثة عشر ألف رجل من أنصارها في ساحة المعركة(١٣)، واستعاد علي المدينة وكل الذين لم

يختاروا جماعة علي ، كان عليهم تبرئة أنفسهم . وهذا ما كان يمكن به تفسير أن رجلاً مثل أبي بكرة كان بحاجة ليتذكر أحاديث سماوية . وسجله كان بعيداً عن أن يكون مرضيا لأنه كان رفض اتخاذ موقف في الحرب الأهلية. انه لم يمتنع عن اتخاذ موقف فحسب ، بل انه كان مثل عدد كبير من الصحابة الذين اختاروا عدم المشاركة في هذه الحرب ، وعمل على اعلان هذا الموقف رسمياً . ولأن عائشة ، التي غالباً ما كانت ترافق النبي ﷺ في غزواته ، كانت تعرف اجراءات المفاوضات التي تحصل قبل الاحتلال العسكري لإحدى المدن فقد اتخذت للاشياء عدتها . فقبل حصار المدينة أرسلت رسلاً مع كتب لكل الأعيان ، وشرحت لهم فيها الأسباب التي دفعتها لتخرج ضد علي ، كما شرحت نواياها وأهدافها التي تبتغي الوصول إليها ، وتدعوهم أخيراً لمساندتها(١٤) . كانت حملة حقيقية من الاعلام والاقناع ، وتكتيكاً عسكرياً أولياً لكل مبادهة كالتي اشتهر بها الرسول ﷺ . ومضت عائشة لاستخدام الجامع كمكان للتلاقي والنقاش العام لاعلام السكان قبل احتلال المدينة . وكان أبو بكرة كذلك أحد الذين جرى الاتصال معه منذ البداية بصفته أحد الأعيان(١٥) .

لم تعمل عائشة هكذا وفاء للطرق التي كان استعملها النبيﷺ فقط، لقد كان السبب أخطر : كانت تلك المرة الأولى منذ موت النبي التي يجد المسلمون أنفسهم وجهاً لوجه ، وهو وضع كان محمد ﷺ قد وصفه بأنه أسوأ ما يتعرض له الاسلام : الفتنة ، الحرب الأهلية ، التي تحول سلاح المسلمين للداخل بدلاً من توجيهه ، كما يريد الله ، نحو الخارج ليسود ويفتح العالم. لقد كان على عائشة ان تفسر اذن سبب تمردها ضد علي ،لقد نعت عليه انه لم يحاكم قتلة عثمان ، الخليفة الثالث المغدور ، وبعض من حاصر عثمان ، ممن عرفت هويتهم دخلوا في جيش علي كرؤساء عسكريين . وكان يفترض ان كثير من المسلمين قد فكروا كعائشة اذ أن قسماً مهماً من مدينة البصرة استقبلها وقدم لها الرجال والسلاح . لقد اقامت عائشة قيادتها العامة في البصرة بعد ان طردت الوالي الذي كان يمثل علياً واكملت مع حليفيها طلحة والزبير ، وهما شخصيتان من قريش مثلها ، حملتها الاعلامية ـ التفاوضية ـ الاقناعية ، بلقاءات فردية أو في الجوامع ، واعظة الجمهور ومحرضة له

على دعمها ضد الخليفة «الظالم» . كان ذلك في العام ٣٦ هجرية (٦٥٦)م ، وكان الرأي العام منقسماً إلى قسمين : اطاعة خليفة «ظالم» (الذي لم يعاقب قتلة عثمان) ، أو التمرد ضده ومساندة عائشة ، حتى ولو قاد هذا التمرد إلى الفوضى .

كان الخطر الأكثر فداحة ، بالنسبة للأولين ، والذي يمكن ان يواجه الجماعة الاسلامية ، ليس ان نحكم من قبل رئيس ظالم ، ولكن ان تسقط في الحرب الأهلية . ولا ننسى ان كلمة (اسلام) تعني : الخضوع . واذا عورض الرئيس ، فإن المبدأ الأساسي للاسلام كنظام يكون في خطر . أما الآخرون فكانوا يعتقدون ان ظلم رئيس الدولة الاسلامية هو أكثر خطراً من الحرب الأهلية ، ولا يجوز للمسلم ان يقف مكتوف الأيدي عندما يرى الرئيس يرتكب اعمالاً ظالمة وأعمالاً منكرة ؛ فالرسول ﷺ قال : «الذين يرون المنكر ولا يحاولون تغييره يتعرضون للعقاب الالهي» . وهناك ترجمة أخرى لهذا الحديث هي : «من يرى منكم منكراً فليحاول تغييره . . . إلخ»[١٦] . تلك هي كانت حجة الجماعة التي قتلت انور السادات ، الممثلين بأعلى درجة لأدب المتطرفين الغزير جداً[١٧])

وبالرجوع الى البصرة في سنة ٣٦هـ فان المعضلة التي كانت تنطرح على المسلم، هي اطاعة خليفة ظالم أو امتشاق السلاح ضده ، ولم يطرأ هذا الا في أوساط النخبة الحاكمة. واذا كانت الجوامع هي محافل واقعية وكاملة يأتي المسؤولون إليها ليتناقشوا مع المحكومين في القرارات الواجب اتخاذها من نزاع علي وعائشة ، فإنه يجب ملاحظة (تبعاً لقراءة الدقائق من المناقشات) ان السكان الذين تكلموا في الجامع طلبوا اعلامهم بصورة خاصة عما يجري . فالناس العاديون لم يعرفوا بماذا كان يتعلق الأمر . والمسألة الهامة بالنسبة لهؤلاء السكان كانت بصورة خاصة غياب الديموقراطية . لقد بدا لهم عندئذ ان الارتباط بما لا تعرف دوافعه مما يحرك الرؤساء والمنازعات التي تقسمهم ، هو شيء لا معنى له . وقد اعطى هؤلاء المؤمنون كحجة لرفضهم الانخراط في هذا الجانب أو ذاك فقدان الديموقراطية الذي ساد في تعيين الخليفة . في احدى المناقشات التي حصلت في جامع البصرة حيث دعي أنصار عائشة من قبل السكان لكي يوضحوا مقاصدهم ، أجرى شاب لا ينتمي إلى نخبة مداخلة وضحت منطقة غير واضحة من دينامية اسلام

البداية ، التي غالباً ما «اهملت» في أيامنا هي : البعد الغير ديموقراطي ، الذي عاشه كذلك الأشخاص العاديون. وقد تناول هذا الشاب الكلام في جامع البصرة باشارة سوف تكلفه حياته ، وتوجه إلى حلفاء وممثلي عائشة وقال لهم : «أنتم المهاجرون ، صحيح انكم كنتم أول من استجاب لدعوة النبي ﷺ . لقد كان لكم الامتياز بأنكم أصبحتم مسلمين قبل غيركم . ولكن الجميع أصبح لهم هذا الامتياز فيما بعد فالجميع اعتنق الاسلام . وبالتالي ، وبعد موت الرسول ﷺ ، عينتم شخصا من بينكم بدوننا (نحن الناس العاديين ، الذين لا نشكل جزءاً من النخبة) وبدون ان تشاورونا ، وبعد موت هذا ، اجتمعتم واسميتم خليفة آخر ، دائماً دون أن تطلبوا رأينا . . . (. . .) فاخترتم عثمان ، وأنتم الذين بايعتموه ودائماً بدون مشورتنا . لقد ازعجكم بسلوكه فأعلنتم عليه الحرب بدون مشورتنا . وانتم الذين قررتم تعيين علي وبايعتموه بدون مشورتنا أيضاً والآن ما الذي تأخذونه عليه ؟ هل ارتكب عملاً لاشرعياً ؟ هل اجرى عملاً يلام عليه ؟ اشرحوا لنا ماذا فعل . . يجب ان نكون مقتنعين لنقرر اتخاذ موقف في هذه الحرب. اذاً ما هو المقصود؟ لماذا تتقاتلون؟»[١٨].

ان واقعة عدم تقرير المشاركة في هذه الحرب لم تكن حالة نادرة ، موقوفة على بعض شخصيات من النخبة ، فالجوامع كانت ملأى بالناس الذين وجدوا انه من العبث متابعة الرؤساء الذين يريدون إيصال الجماعة إلى ان يمزق بعضها البعض الآخر . ولم يكن أبو بكرة استثناء .

فما ان التقى أبو بكرة بعائشة حتى أعلمها بجوابه : انه كان ضد الفتنة . ويجب ان يكون قد قال لها ، تبعاً لما روي بعد المعركة : «صحيح انك أمنا (إشارة إلى لقبها الذي منحه الرسول ﷺ إلى نسائه (أم المؤمنين) اثناء السنوات الأخيرة) ، وصحيح انه ما دام الأمر كذلك فإن لك علينا حقوقاً ، ولكنني سمعت الرسول ﷺ يقول :لن يفلح قوم ينيطون الملك بامرأة»[١٩]. وكما رأينا ، اذا كان كثير من الصحابة وسكان البصرة اختاروا الحياد ، فإن ابا بكرة وحده سوف يبرره بواقعة ان أحد الاطراف كان امرأة .

حسب وصف الطبري ، عاشت البصرة بعد هزيمة عائشة خلال بضعة أيام

في كرب محقق ، فهل يمضي علي لينتقم من اولئك الذين لم يؤازروه ، ومنهم أبو بكرة. «لقد انتهى علي باعلان عفو عام[٢٠] فكل الذين سوف يلقون السلاح، كما أعلن يوم المعركة ، وكل الذي سيدخلون إلى منازلهم سيحافظ على حياتهم»[٢١] .
«وأمضى علي بضعة أيام في ميدان المعركة ، فدفن كل الموتى الذي سقطوا من الجانبين وأقام صلاة جنائزية عامة قبل معاودة رجوعه للمدينة»[٢٢] .

مع ذلك لم يكن كل شيء سهلاً ، اذا اعتقدنا بمثال أبو موسى الأشعري ، المسلم الآخر المسالم الذي رفض الانخراط في حرب أهلية كان يعتبرها عبثية ، وقد أفقدته ماله ووضعه . مع ذلك فإن موقفي أبو موسى وأبو بكرة لا يمكن مقارنتهما ، خارج رفضهما التدخل . فقد التمست عائشة، زعيمة الحزب الخاسر، ابا بكرة ، في حين التُمس ابا موسى . . من قبل الظافر علي ، وبذلك صار واليا وممثلاً لعلي ورمزاً للدولة الاسلامية على رأس المدينة العراقية الكوفة . وقبل ان يعود علي إلى البصرة المدينة المحتلة من قبل عائشة ، أرسل إلى أبي موسى رسلاً طالباً إليه تجنيد السكان وارسال الجنود والأسلحة على وجه السرعة . ولم يختار أبو موسى عدم الطاعة هو شخصياً لخليفته ، فحسب ، بل رأى انه ملزم «بمشورة» السكان الذين يحكمهم . وقرر إدخال الشعب الذي جمعه في المسجد لإعلامه والنقاش معه وأوضح للجميع بصفته صحابياً عن موقف الرسول ﷺ بالنسبة للحرب الأهلية . لقد روى لهم أبو موسى أحاديث تدين الفتنة وأمرهم بعدم اطاعة الخليفة وعدم الاستجابة إلى دعوته بالتجنيد . وبالنسبة له ، كان واجب المسلم في حالة الفتنة ان يعارض بشكل مطلق كل مشاركة . وكانت الأحاديث التي رواها في جامع الكوفة كثيرة أو كلها ضد الفتنة . وضد الحرب الأهلية باختصار. ولم تكن هنالك مسألة حول جنس القائد[٢٣] .

هذا وان البخاري كان قد جمع هذه الاحاديث في فصل الفتنة ومن بينها يمثل حديث أبو بكرة الحديث الوحيد الذي يعطي كحجة للحياد، جنس أحد المتحاربين[٢٤] .

ومما يدعو لدهشة القارىء المعاصر الذي يتفحص مسيرة هذه المعركة الشهيرة معركة الجمل ، ذلك الاحترام الذي أظهره السكان ، مهما كان وضعهم

حيال الحرب ،اتجاه عائشة . فقد كانت المناسبات التي شتمت فيها نادرة ، وفي هذه الحالة ، لم يكن ذلك أبداً من قبل مسؤولين سياسيين وإنما من قبل أشخاص عاديين عامين[٢٥] . ويعيد المؤرخون التذكير بأن المؤرخين الشيعة وحدهم هم الذين تناولوا عائشة . فلماذا تميز أبو بكرة اذن بوضعية معادية للنساء لا مثيل لها ؟؟ .

اذا كان أبو موسى الأشعري قد خلع من وظائفه ، وفقد ولايته ، وطرد من الكوفة من قبل علي وابدل بوال أقل مسالمة وبخاصة أكثر طواعية[٢٦] ، فإنه يمكن التفكير ان وضع الآخرين «المسالمين» الأقل شهرة كان حرجاً أيضاً : والتذكر بسماع حديث آمر بعدم المشاركة بحرب اذا كانت امرأة ترأس جيشها كان يبدو كأمر سماوي أيضاً . وقد تذكر أبو بكرة أحاديث أخرى كلها سماوية أيضاً في الفترات الحرجة .فبعداغتيال علي لا يمكن لمعاوية الأموي ان يدعي الخلافة شرعاً الا اذا أعلن الحسن بن علي والذي هو اذن وريثه ، كتابة بأنه يتنازل عن حقوقه ، وهذا ما فعله تحت ضغوط ومساومات معترف بها قليلاً أو كثيراً[٢٧] . وفي هذه الفترة تذكر ابو بكرة حديثاً وثيق الصلة بالموضوع ، وفي ظروف سياسية لطفرات غير متوقعة : فقد سمع الرسول يقول : «ان الحسن بن علي سوف يكون رجل المصالحات»[٢٨] إن الحسن كان طفلاً ، عندما كان ممكناً ان يقول النبي ﷺ جده هذا . لكن ذاكرة أبي بكرة المدهشة للاحاديث السياسية المناسبة تمضي بشكل غريب في اتجاه التاريخ بأكثر ما يمكن من قوة .

ولكن ما أن يوضع الحديث في السياق التاريخي بوضوح حتى يمكن الانتقال الآن إلى تقييمه النقدي وذلك بأن نطبق عليه إحدى القواعد المنهجية التي استخلصها الفقهاء كمبدأ لعملية التحقيق[٢٩] .

أولى هذه القواعد هي ان نعتبر «هذا الدين كعلم» ، حسب الأمام مالك بن أنس (المتولد في السنة ٩٣ هجرية (القرن الثامن . م) والمعتبر مع الشافعي وأبي حنيفة «الأئمة الثلاثة الأكثر شهرة في المحيط الاسلامي ، وذلك لمساهمتهم في اقامة علم يؤهل المؤمن ليميز بين المباح والحرام»[٣٠] . فمالك بن أنس لم يتوقف عن ترديد : «هذا الدين علم ، وعليه فإنه يجب الانتباه لأولئك الذين

يؤخذ عنهم . وقد كان من نصيبي أن أجيء إلى العالم (في المدينة) في فترة كان لا يزال يعيش فيها / ٧٠/ صحابياً كان يمكنهم رواية الاحاديث . كانوا يمضون إلى الجامع ويشرعون في القول : النبي ﷺ قال . . . انني لم ادون أي حديث مما رووه ، ليس لأنهم لم يكونوا جديرين بالثقة بل لأنني وجدت أنهم اهتموا بأشياء لم يكونوا بها حاذقين»(٣١). وفي رأيه انه لايكفي ان يكون المرء قد عاش في عصر الرسول ﷺ ليصبح مصدراً للحديث ، بل يتوجب أيضاً الحصول على بعض الأسس المؤهلة للتحدث ؛ «فالجهلة يجب استبعادهم» اذ كيف يمكن اعتبارهم كمصادر لعلم في حين انه لا يوجد لديهم الاستعدادات العقلية الضرورية ؟؟ ولكن الجهل والاستعداد العقلي ليسا المعيارين الوحيدين لتقييم رواة الحديث . بل الأهم من كل ذلك هو دقة النسق الخلقي .

وحسب مالك ، لا يمكن في أي حال ، لبعض الأشخاص ان ينقلوا حديثاً واحداً . «لا يجوز أن يتلقى العلم سفيه، ولا واحد ممن تتحكم بهم عواطفهم ، ولا الذين يمكنهم ادخال البدع ، ولا كذاب يروي أي شيء للناس (. . .) وأخيراً لا يجب تلقى العلم من شيخ حتى ولو كان تقياً محترماً ، اذا لم يكن قد اتقن العلم المفترض انه ينقله . . .)(٣٢) .

ويدفع مالك الشك نحو رواة الحديث ، وهو يرى وجود ضرورة بالنسبة للمسلم لأن يحترس لدرجة انه ينصحنا بأن نتخذ كمعيار من أجل امكانية اشتغال مصدر بالحديث ، السلوك في الحياة اليومية ويقول : «يوجد أشخاص استبعدتهم كرواة للحديث ، ليس لأنهم كذبوا بصفتهم رجال علم في روايتهم لأحاديث كاذبة لم يقلها النبي ﷺ ، وانما بكل بساطة لأنني رأيتهم يكذبون في علاقاتهم التي كانوا يتعاملون بها مع الناس ، في العلاقات اليومية ، مبتذلين ، لايوجد لديهم شيء من العلم»(٣٣) . وإذا ما طبقنا هذه القاعدة على أبي بكرة ، فإنه يجب استبعاده على الفور لأن إحدى سيره الذاتية ، التي رواها ابن الأثير ، تعلمنا انه أدين وان عمر بن الخطاب قد جلده على شهادة كاذبة أدلى بها(٣٤) . انها تتعلق باتهام خطير جداً عاقب عليه عمر بالرجم ، اتهام بالزنى ، العمل الجنسي الغير مشروع . وفي الواقع ، ولوضع حد للتحلل والاختلاط الجنسي الذي كان يوجد في الجزيرة

العربية قبل الاسلام ومن أجل مراقبة الأبوة ، اذان الاسلام كل علاقة جنسية خارج الزواج معتبراً إياها كزنى ، ومشجعاً الرجال والنساء على الزواج ، وقد اعتبرت العزوبية كمفتاح للاغراءات من كل نوع . واعطي للرجال الحق بأن يكون لهم عدد من النساء ، وان ينفصلوا عنهن بسهولة وابدالهن بغيرهن ، شريطة ان يكون ذلك في نطاق الزواج الاسلامي .

إن عمر بن الخطاب الخليفة الثاني لجماعة ما زالت تحت التأثير الجاهلي ، رأى ان عليه ان يعمل بسرعة وقسوة كي تكون الفكرة الرئيسية في الاسلام ، الاسرة البطريركية ، راسخة في النفوس : الرجم بسبب الزنى لن يطبق الا اذا أكد أربعة شهود أنهم شاهدوا عياناً وفي الوقت ذاته عملية التزاني ، وهي شروط يصعب جداً الامساك بها ، الأمر الذي يجعل من هذه العقوبة مجرد احتراس أكثر مما هو تهديد واقعي . من جهة أخرى يجب تجنب توصل المتباغضين والوشايات لادانة الأبرياء . وعليه اذا لم يوجد سوى ثلاثة شهود رؤوا الجرم المشهود، فإنه لا قيمة لشهادتهم وأكثر من هذا فإن كل شاهد يجد لنفسه تسلية بالوشاية بأحدهم واتهامه بجرم الزنى ، فإنه سوف يعاقب بحد القذف : أي سوف يجلد بجرم الشهادة الكاذبة[٣٥] . تلك كانت حال أبي بكرة ، فقد كان بين الشهود الأربعة الذين جاؤواأمام عمر واتهموا رسميا بجرم الزنى شخصية مشهورة ، شخصية سياسية مرموقة ، المغيرة بن شعبة . فقد قرر الشهود الأربعة أمام عمر بأنهم شاهدوا المغيرة بن شعبة على أهبة الزنى الغير مشروع . وبدأ عمر في التحقيق ، وأقر أحد الشهود الأربعة بأنه لم يكن في الحقيقة واثقاً بأنه رأى الفعل تماماً . وكان شك أحد الشهود سبباً في تعريض الشهود الآخرين لعقوبة القذف (عقوبة الجلد للشهادة الكاذبة) وتم جلد أبي بكرة .

وعليه ، فإننا اذا أخذنا بمبادىء مالك في مادة الفقه ، فإن أبا بكرة يجب رفضه كمصدر للحديث من قبل كل المسلمين المالكيين العالمين .

ولاغلاق هذا البحث ، يمكن اجراء جولة أفقية قصيرة بهدف تقييم وضع فقهاء القرون الأولى تجاه هذا الحديث المعادي للنساء الذي يقدم لنا اليوم كحقيقة مقدسة لا يمكن مهاجمتها . فمع انه روي كحديث صحيح من قبل البخاري

وغيره ، كان هذا الحديث قد عورض بعنف من قبل الكثيرين . لقد عورض ونوقش ولم يتفق الفقهاء على اعطاء أية أهمية لهذا الحديث حول النساء والسياسة . بكل تأكيد وجد من اعتبره حجة لاستبعاد النساء عن سلطة التقرير ولكن وجد غيرهم من وجد هذه الحجة غير صحيحة وغير مقنعة بما فيه الكفاية. ويمثل الطبري بين السلطات الدينية الذي أخذ موقفاً ضده ، وهو لم يجد فيه ما يمكن ان يشكل قاعدة لانعكاس كافٍ يمنع النساء من سلطتهن في التقرير ، وتبرير استبعادهن عن السياسة[٣٦] .

فبعد محاولة إعادة اعتلاء مجرى التاريخ ، ومسلك الرواة والشهود ، وتحليل العصر المضطرب تاريخيا ، لا يمكن الا ان يُنصح بمضاعفة اليقظة عندما ، يصدم المؤمن بأخذ المقدس كحجة ، وكحقيقة أولى لمقولة سياسية على هذه الدرجة من الخطورة ولنتائج تاريخية بالغة . مع ذلك ، سوف نرى ، ان كان هذا الحديث «الكاره للنساء» نموذجياً ، وليس حالة خاصة .

مراجع وهوامش الفصل ٣

ـ الصحيح ـ مرجع سابق مجلد ١٤ ص ٢٢٦ ، كذلك انظر طبعة المطبعة البهية المصرية ، ١٩٢٨ جزء ١٣ ص ٤٦ ؛ طبعة مكتبة مصطفى الباقي في مصر ١٩٠٩ جزء ١ ص ١٦٦ .

٢ ـ ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري بشرح صحيح الأمام البخاري ، المطبعة البهية ، القاهرة جزء ١٣ ص ٤٦ .

٣ ـ انظر مارشال ح . س هودجيسون ، مغامرة الاسلام ، مطبعة جامعة شيكاغو ١٩٧٤ جزء ١ ص ١٩٩ .

٤ ـ فتح الباري ـ مرجع سابق .

٥ ـ حول هذا البرهان والانقسام الذي سببه . . ذات المرجع جزء ١٣ ص ٤٩ حول المداخلات السياسية والمناقشات الفلسفية التي عارضت عائشة في موقعة الجمل . وانظر الوصف الرائع الذي ذكره الطبري (بيعة علي) في تاريخ الطبري جزء٥ ص . ١٥٦ ـ ٢٢٥

٦ ـ الطبقات مرجع سابق جزء ٣ صفحة ١٥٩ .

٧ ـ ذات المرجع .

٨ ـ فتح الباري جزء ١٣ ص ٦٢٢ .

٩ ـ ابن الأثير ، اسد الغابة ص ٣٨ .

١٠ ـ ذات المرجع .

١١ ـ انظر فصلاً حول (الجنس قبل الاسلام) في كتابي ، جنس ايديولوجيا ، اسلام . طبعة تيروس باريز ١٩٨٣ ، واعطيت فيه عدداً من المراجع على المسألة وبخاصة أعمال جيرترود شتيرن وروميرتسون سميث حول نصوص التاريخ الديني . أيضاً التحليل الذي قام به أحمد الحوفي عن وضع الأم والزوجة في الشعر الجاهلي دار النهضة القاهرة طبعة ١٩٧٠ فصل ١ (الأم) ، ٢(الزوجة) ٣(البنت) . ص ٧٤ إلى ٣١٤ ، وانظر أخيراً الجزء ١٠ (البنية الاجتماعية عند البدو) في محاضرات في التاريخ العربي لأحمد صالح العلي مكتبة المثنى بغداد طبعة ٦ ١٩٦٠ ص ٦٣٤ .

١٢ - أسد الغابة - مرجع سابق ص ٣٨ جزء ٥ .
١٣ - مروج الذهب . جزء ١٢ ص ٣٨٠ .
١٤ - تاريخ الطبري - مرجع سابق جزء ٥ ص ١٨٢ .
١٥ - فتح الباري جزء ١٣ ص ٤٦ .
١٦ - ذات المرجع ص ٥٠ .
١٧ - انظر التحليل لحامد الانصاري المحاربين الاسلام في عصر السياسية - جريدة الشرق الأوسط ١٩٨٤ ص ١٢٣ - ١٢٤ .
١٨ - التاريخ جزء ٥ ص ١٧٩ .
١٩ - فتح الباري ص ٤٦ جزء ١٣ .
٢٠ - مروج الذهب جزء ٣ .
٢١ - مروج الذهب جزء ٣ ص ٦٤٤ .
٢٢ - التاريخ للطبري جزء ٥ ص ١٨٨ .
٢٣ - التاريخ للطبري جزء ٥ ص ٢٢١ .
٢٤ - البخاري - كتاب الفتنة ، الصحيح ، طبعة دار المعارف جزء٤ ص ٢٢١ .
٢٥ - مروج الذهب جزء ٢ ص ٦٢٥ .
٢٦ - التاريخ مرجع سابق جزء ٥ ص ١٩٠ .
٢٧ - فتح الباري جزء ١٣ ص ٥١ ومروج الذهب جزء ٣ .
٢٨ - فتح الباري ذات المرجع ص ٥٦ .
٢٩ - اني ممتنة ، من أجل البحوث المتعلقة بهذا الفصل للبروفيسور أحمد القمليشي ، حالياً رئيس قسم القانون الخاص بكلية الحقوق ، جامعة محمد الخامس .
٣٠ - امام بن عبد البر الانتقاد في فضل الصلاة للأئمة ، الفقهاء ، دار الكتب العلمية بيروت ص ١٦ و١٠ . المؤلف ابن عبد البر توفي في ٤٦٧ هجرية (القرن التاسع) . احد فوائد هذا الكتاب هو اقتضابه ، سيرة الأئمة الثلاثة مالك ، الشافعي ، أبو حنيفة ، مكثفة في ٢٠٠ صفحة .
٣١ - المرجع السابق ص ١٦ .
٣٢ - ذات المرجع .
٣٣ - ذات المرجع ص ١٥ .
٣٤ - أسد الغابة جزء ٥ ص ٣٨ .

٣٥ ـ عمر بن الخطاب أسس الرجوع إلى الرجم ، لعلة الزنى ، معاصريه لم يكونوا على اتفاق مع وضعه . انظر البخاري ، جزء ٤ ص ١٤٦ . حول عمر بن الخطاب يعرف المزيد في الفصل حول الاسلام الثوري : لقد كان المحرض على الحجاب وكان على خلاف كامل مع الرسول ﷺ حول طريقة معاملة النساء .

٣٦ ـ فتح الباري جزء ١٣ ص ٤٧ .

٤٠

البحث عن أحاديث أخرى معادية للنساء

في كل طفولتي ، حافظت على علاقة غامضة جداً مع القرآن الذي كنا تعلمناه في مدرسة قرآنية ذات آداب عنيفة بصورة خاصة . وفي حساسيتي الطفولية ، كان يبدو لي أن الاسلام وحده ، الهويّ بوضوح لجدتي الأمية ، لا لا ياسمينا هو الذي كان يسمح لي بالوصول إلى ديانة ـ شعرية .

لقد كان لديها ما يسمى المؤرقات ، ولكن ، وفي ذلك الوقت ، فإن مثل هذه الأفكار التي تبرز اهتماماً كبيراً بالذات ، لم تكن توجد أبداً . في كل الأحوال ، ليس عندنا . لقد كانت تغتنم الفرصة لتصلي صلاة الفجر وهكذا حولت مشاكلها من السهاد لأخلاقية ولفن استعمال الساعات الأولى من النهار . كانت توقظنا بعد قليل ، برائحة المهراش (حلوى من جريش فلاحي) المثيرة للشهية والممزوجة برائحة الشاي مع النعناع . كانت تحلم ، فيما كنا نأكل أنا واشقائي وأخواتي وابناء عمي ، بسفر خرافي : الحج إلى مكة . وكانت تدندن بمقتطفات من ملحمة كلاسيكية كانت ترممها على طريقتها ، والتي غالباً ما كانت تعود الكلمتان اللتان تطلقان عندي دائماً ، منذئذ ، الرغبة في الطيران بعيداً جداً : للمدينة المنورة ، المدينة المشعة ، مدينة النور ، مبتغى سفرها . وعندما كانت تُقاطع لتذكيرها بأن هدف السفر كان مكة ، كانت تطمئننا بالدهاء المرن للأميين

المغاربة : «ما في خطورة ، سوف اتوقف قليلا ، ولكن المهم أكثر هو قبر الحبيب /النبي/ﷺ . وآمل ، ان لا يكونوا نقلوه، في مدرستكم ، لأنه دفن في المدينة. وعلى كل حال ، ذلك ما تعلمته بوسائلي الخاصة» . لقد كان يوجد بينها وبين رجال العلم حرب لم تكن معروفة آنئذ لدي . لقد كانت تدندن بمحطات الحج ، وهي تصنع خبزها، والمسيرة نادراً ماكانت مما يؤكد عليه في المدرسة القرآنية. كانت تنسى أحياناً عرفات (محطة في السيرة الطقوسية للحج) وأحياناً محطة منى هي التي كانت تزول ، كانت متعجلة جداً إلى الوصول لمقصدها المثالي : المدينة المنورة الخالدة ، حيث يتلقاك رسول لطيف حسن الاستقبال : «وهنالك كثير من الشاي بالنعناع ، والاطفال ، ويجب الانتظار لشيء آخر . لقد نسيت ماهو الا انه بالتأكيد كان مختلفاً» . كانت تستنتج بأنه ، واقعي ومغامر . فاسلامها كان مناسبة لكي تسافر في بلدان أخرى أجنبية ، لتتفتح فيها ، ولتكتشف فيها الحب والنور .

كان يتابني الصداع بعد هذه الملاحم الصباحية بغوصي في عالم المدرسة الضيق والعنيف . في حين انه مع اللا لا ياسمينا ، كان يمكن اللعب بحرية مع الكلمات ، في المدرسة القرآنية أصغر غلطة في اللفظ كانت تصلح ويعقبها العقاب . «يجب قراءة القرآن كما نزل من السماء» . يوم التلاوة كان يوم الاربعاء : كل غلطة في اللفظ ، حسب طبيعتها وحسب ثقلها ، كانت تتناسب مع عدد من الضربات المدارة من قبل المحضرية ، الأكبر بين الطلاب ، ونادراً الاكثر نباهة، الا انه كان يمكن شراءهم بالكرز والاجاص والرمان حسب المواسم . لالا فقيها (السيدة المعلمة) كانت تحصر همها جداً باللفظ الذي كانت تشرحه لنا بالكاد ما أرادت الكلمات ان تقوله . قراءة وكتابة نص مفهوم كان بالنسبة للالا فقيها طريقة لتكريم القرآن كسر .

في يوم الاثنين كان يكتب على اللوح الآيات المتوجب حفظها . وكانت ترتل ونحن متربعين ، وحتى الأربعاء . وكان يوجد لنا حق بالتأرجح من الأمام للخلف عندما كان يتملكنا الايقاع : وكانت تقول لنا وهي تحرك عصاها الطويلة فوق رؤوسنا، إن القرآن نغم» : «إن من لا يحس بالايقاع فما عليه إلا ان يمضي لخدمة

النصارى واليهود» . ولتعاستي ، لم احفظ فعلاً سوى الآيات التي تتهادى فيها الكلمات كخيوط الحرير الصيني :

والطور
والكتاب المسطور
في رق منشور
والبيت المعمور .

آيات كهذه (السورة ٥٢) ، التي لم أفقه سوى ايقاعها ، سمحت لي بالتهرب ساعات مستمرة متأرجحة من الامام للخلف كي أخدع الانتباه الصارم (للالافقيه) . لقد بعدت كثيراً عن المدرسة ، وأسرعت نحو مدينة منورة حيث تشرب مشروبات رائعة .

هذا الغموض ، وهذه الثنائية التي تعاملت فيها مع النص المقدس ستبقى في نفسي . النص المقدس ، حسب من يستعمله ، يمكن ان يكون مجالاً للتملص أو سوراً لا يمكن اجتيازه . يمكن ان يكون تلك الموسيقى الغير اعتيادية التي تعد إلى الاحلام ، أو إلى نمطية (روتين) محزنة . كل شيء يتعلق بمن يستدعيه ، ولكن بمقدار ما كنت أكبر أكثر ، بمقدار ماكانت الموسيقى تبتعد . في المدرسة الثانوية كانت دروس التاريخ الديني تزخرف بالأحاديث ، والكثير من بينها ، التي كان الاستاذ يتلوها وهو يدور أمامنا ، صفحات مختارة من البخاري ، كان يضعني إلى حد كبير في حالة غير مريحة : فالنبي ﷺ قال : «الكلب والحمار والمرأة تقطع الصلاة اذا مرت أمام المؤمن ، فاصلة بينه ، وبين القبلة»[1] .

صدمت جداً بهذا الحديث ، ولم أعيده أبداً الا مع أمل بأن يمحى من ذاكرتي بقوة الصمت . كنت اردد لنفسي ، أنا التي أجد نفسي ذكية ، مبدعة طيبة ، عاطفية ، متحمسة ، كما لا يمكن ان تكونه ابنة ١٦ سنة ، متسائلة : «لماذا قال الرسول مثل هذا الحديث الذي يؤلمني ؟ علماً ان هذا النوع من الأقوال لايتناسب في شيء مع ما يروى لنا من جهة أخرى عن حياة محمد ﷺ ؟» كيف يمكن لمحمد ﷺ «الحبيب» ان يجرح إلى هذا الحد شابة مثلي ، في عنفوان شبابها ،

والمتحول إلى سناد حقيقي لأحلامها الرومانسية ؟ . إن محمداً لم يكن رئيس دولة فحسب ، بل كان أيضاً عاشقاً لعائشة .

«طلب الصحابي (عمروبن العاص) من الرسول ﷺ :

ـ من هو الشخص الذي احببته أكثر في العالم ؟

ـ اجابه الرسول ﷺ ، انها عائشة !

وقد دهش الصحابي عمروبن العاص عندما رأى من إجابة الرسول ﷺ أنه ليس رجلاً ذلك الذي يأخذ المكان الأول في قلب الرئيس ، وقد اذهله وهو الصحابي والمحارب المجرب ، كيف لا يكون الأول من بين الرجال المحاربين ! وقد اعاد الكرة بالسؤال مضيفاً ، ومن الرجال ؟ من هو الذي تحبه اكثر ؟ . . وبقول الرسول ﷺ : بأن الرجل الذي أحبه أكثر كان . . . أبو بكر ، والد عائشة ، حبيبته(٢) . لقد كان أبو بكر رجلاً معروفاً بحساسيته التي تقترب من الحساسية المفرطة : لم يكن يتمكن من قراءة القرآن دون ان يبكي !

في جزيرة عربية حيث كانت القوة تهيمن، وحيث كان السيف هو الملك ، كان هذا النبي الذي يؤكد علنا إيثاره النساء على الرجال، كان على أهبة امرار رسالة غير مألوفة ، وحسبما يبدو ، فإن أبا هريرة هذا الصحابي الذي يعتبر المرأة مع الحمار والكلب مزعجات للمؤمن، لم يفهم مطلقاً رسالته ، اذ جعل من المرأة عنصراً يقطع العبادة «بتوضعها بين المؤمن والقبلة» . ولنفهم خطر هذا الحديث ، يجب تعريف ما هي القبلة .

إن القبلة هي اتجاه مكة ، حيث توجد الكعبة ، المعبد من الوف السنين والذي ضم من قبل الاسلام في السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠) ، عندما استعاد محمد ﷺ فتحُ المدينة التي كانت مسقط رأسه . ان القبلة تعطي لصلاة المسلم ، خارج أهدافها الروحية (التأمل) والذرائعية (الانتظام) ، بعدها الكوني . انها تصور لامكانية الوجود في العالم ، للتعلق على الكون ، بما في ذلك السماء . لم تكن الكعبة دائماً الاتجاه المقدس بالنسبة للمسلمين . فخلال عدة أشهر ، كان هؤلاء ، بتشجيع من الرسول ﷺ ، يتجهون نحو معبد غريب ، القدس . في طفولة محمد ﷺ كانت الكعبة مركز العبادات الوثنية . ولكن منذ أن زاره جبريل ،

وتلقى اوائل الوحي ، كان من الطبيعي ان يتوجه نحو الكعبة مع زوجته خديجة ليكمل لأول مرة صلاته الغريبة آنئذ . وعندما أظهرت مكة عداءها له ، مزدرية برسالته ، ومستمرة على وثنيتها، فكر محمد ﷺ في البحث عن الالهي في مكان آخر . فطالما ان الاعراب اصروا على شركهم فسوف يتوجه نحو القدس: «وعندما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة ، خلال ستة عشر شهراً ، كان يقيم صلاته متوجهاً صوب القدس . ثم ، في أحد الأيام ، قال رجل من الأنصار كان قد اقام الصلاة مع الرسول بين جماعة من الأنصار : اشهد انني رأيت الرسول ﷺ يقيم الصلاة ، ووجهه نحو الكعبة ، فغيروا اتجاهكم اذن»[4] .

لماذا كان هذا الارتداد؟؟ وراء هذا التغيير للاتجاه ، تكمن عبقرية الاسلام ، الذي كان في الواقع أدان ، كما هو معلوم ، البنية الجغرافية ـ الدينية للمنطقة ، لكي لا يكون سوى تلفيقية وتركيبية متميزة قليلاً عن العبادات الوثنية المحلية ، أو فرعاً من المسيحية أو اليهودية التي كانت تسود المنطقة ، بما فيها العربية . فأي اتجاه يأخذه محمد ﷺ الذي أراد ابداع شيء جديد ، مميز للعرب ؟؟ كانت الكعبة اتجاهاً للوثنيين . في ٦٢٢ ، طرده هؤلاء من مكة . أيتجه صوب القدس ؟ كان ذلك يعني خضوعاً تحت طاعة اليهود والمسيحيين . عداوة المكيين كانت مثل عداوة اليهود والنصارى ، لأول وهلة ظهر له أهل الكتاب كحلفاء اكثر منطقية ، وأكثر تماسكاً عقائدياً . ولكن في الحين الذي أخذت فيه المسيحية المظهر الرحيم ، المتفهم وانما المتباعد ، للنجاشي الأسطوري في الحبشة ، الذي سوف يحمي أول المبعدين من مكة ، كان اليهود بعكس ذلك ، كانوا كثيرين ومؤثرين في المدينة وقد حاربوه بضراوة[5] .

سوف تستغل الجماعة اليهودية كل تاثير «التزدري» بالنبي ﷺ متهمة إياه بأنه ماكر ، حائلة دون ادعائه ، كأساس لرسالته ، بالتراث اليهودي ـ المسيحي . وتتضمن المصادر العربية أدباً غزيراً موزعاً فيها ، حول هذه الحرب من المعرفة بين يهود المدينة ومحمد ﷺ ، الذي كان في البداية ظن بأنه سيحصل على دعم منهم ضد عدوهم المشترك ، العبادة الوثنية . ولم يتنازل عن القدس ككعبة الا بعد ان يئس من اليهود : «عندما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة ، حيث كانت تسود

الديانتان المسيحية واليهودية اللتان تتوجهان الى القدس. أمر الله بالتوجه إلى هنالك بالصلاة . بهدف أن لا يتعارض معهما ولكي يكونا موافقين له(. . . .) . مع ذلك ، كان يرغب في أعماق ذاته ، ان يكون الاتجاه في الصلاة إلى الكعبة المعبد الذي كان أيضاً قبلة ابراهيم واسماعيل . ودعا الله كل يوم ان يحقق له هذه الرغبة . . . »[1] .

عكف المستشرقون على هذه المسألة مكرسين بصورة عامة خلاصة للسياق الدوَلي الذي بدأ محمد العمل فيه ، وبخاصة القوى المتواجدة التي واجهته على أرضية التدين والمعرفة . ويمكن مشاهدة ذلك في موقف أولئك الذين اتهموا محمداً وكذبوا نبوته . فبعضهم اعتبره مصروعاً وبعضهم اعتبره مجنوناً، وكان ذلك بخاصة موقف يهود المدينة تجاه عربي كانت لديه الجرأة في تملك المعرفة اليهودية ـ المسيحية[2].

إذا كان محمد ﷺ قد بدا تهديداً أكثر واقعية بالنسبة لليهود من المسيحيين ، فذلك يعود في جزء منه ، لسبب قرب الجوار الجغرافي وبالتالي تنازع المصالح : ففي المدينة كانت السلطة موزعة بين القبيلتين العربيتين الوثنيتين الأوس والخزرج ، اللتان دعتا محمداً ليأتي اليهما ، وبين الجماعة اليهودية ، وكانت إحدى الأسس لقوة هذه الجماعة مراقبة العلم اليهودي ـ المسيحي ، ولم يكن محمد ﷺ الذي شرع في وضع المقدمات لايديولوجيا عربية وطنية ليتمكن من فرض نفسه إذن ، الا بطريقتين : إما ان يحصل على دعم الجماعة اليهودية ، أو محاربتها فيما اذا خزلته ، وعابته . إن كل ما يبقى ، وبخاصة طرد اليهود واحياناً تحميدهم مادياً ، يتتابع بدءاً من هذا المنطق القاسي والمحتوم الذي تفرضه حرب العلم ، الحرب الوحيدة الذي لا يمكن الا ان تكون شاملة ، كما يثبته في عصرنا النزاع بين الغرب الذي يحتكر المعرفة التكنولوجية وبلدان العالم الثالث التي لا تفعل شيئاً سوى استهلاكها . فما فعله النبي ﷺ كان «تأميم» و«تعريب» التراث اليهودي ـ المسيحي . كما لو ان نبياً عربياً ينبثق في أيامنا بأينشتين، وماركس، وفرويد، ليس كأسلاف للعرب المسلمين المعاصرين فحسب ، وانما كتراث غير جدير باستشهاره سوى مجتمع اسلامي ، يستطيع وحده تطوير وانماء ، رسالتهم العلمية . لقد كان

اليهود يعتبرون النبي ﷺ ماكراً استولى على انبيائهم و«أهلها» لمصلحته الخاصة . وكانت لهم مصلحة بتجميد الرسول لسببين : ليس لأنه قوض مصدر تقديرهم ، الوصول إلى المقدس ، إلى السماء ، إلى النص الموحى به ، إلى الانبياء ، فحسب ، بل انه استعمل انبياءهم الخاصين ، وأساطيرهم الخاصة ومعرفتهم الخاصة لكي يتكون كقوة تسود العالم . كان الرسول على درجة من صفاء القلب ليعتقد ان الجماعة اليهودية لن ترى فيه غير حليف . ولم يكن هذا الا اثناء السنوات الحرجة ، السنوات من ٥ ـ ٨ من الهجرة ، هذه السنوات من عدم الضمان الحربي والازمة الاقتصادية ، حتى أعلن عليهم الحرب الشاملة . فماذا سيكون الاسلام لو أن اليهود قدموا مؤازرتهم لمحمدﷺ؟ هل يمكن الظن انه ما كان رأى النور ؟ وأنه سيصبح يهودية منحرفة قليلاً ، ومذهباً خاصاً بشكل ضعيف في البحر المتوسط الواسع الذي رأى الكثير .

مع ذلك ، لا يسوغ ان ننسى ان الرسول اذا كان قد انجح مهمته ، فذلك لأن الأرضية العربية كانت ناضجة لحصول اضطراب ايديولوجي : لقد كانت الجزيرة العربية تعيش أزمة ايديولوجية فادحة جداً وكانت تعكس أزمة اقتصادية واجتماعية عميقتين توضح وضع المسيحيين واليهود . كان العرب ينظرون إليهم باعجاب كجماعات حصلت على ما كان ينقصها : معنى للهوية ، وشعوراً بالانتماء إلى حضارة أعلى ، والشعور بكونهم شعباً مختاراً ، كان الله قد تحاور معه . من أجل هذا يوجد في القرآن مثل ذلك الإصرار على واقعة أن الكتاب الموحى به عربي . كان العالم العربي يعيش مثل هذه الحال من الأزمة بأنه لم يكن يعتقد انه جدير بأن يكون له نبي من جنسه الخاص ، ورب سوف يكلمهم باللغة العربية . ان تفسير الطبري للآية ٣ من السورة ٤١ التي تؤكد على القرآن بأنه «كتاب فصلت آياته قرآناعربياً لقوم يعلمون» ، يعبر تماماً عن هذا الدور للاسلام كجواب على أزمة قومية «أزمة ثقة بالذات»(٨) . ان الجماعات القبلية القديمة ، التي أثرت حتى الآن ، كانت مهددة بجماعات من نوع اقتصادي ، تحالفات التجار . وكانت اضطرابات البنى الاقتصادية والاجتماعية معاشة من قبل الكثيرين ، كما في أيامنا ،

وان البحث عن اله هو الذي سوف يتيح للقبائل العربية في تفتتها الكامل لأن تصنع من نفسها كقوة في العالم .

هنا يكمن الرهان الذي عمل على تغيير قرار محمد ﷺ فيما يتعلق بالقبلة ، ليتحول عن القدس، والتوجه بالصلاة إلى مكة . كان قد توجب ترك القدس كأفق رمزي وأيضاً أكثر خطورة في تقليده من مكة. وهذا الاختيار للكعبة كاتجاه ينظم المقدس ويبني الفراغ سوف يجعل من الاسلام ما أصبح عليه : في آن واحد ، دين يسجل في التقليد التوحيدي اليهودي - المسيحي ، ودين متميز يعرض نفسه كقوة مخاصمة ، ينازع على السيادة العالمية ، مع افتراق تجاه رسالة نخبوية يهودية : فالاسلام توجه إلى كافة الناس . لأن جامع محمد ﷺ ، خلافاً للأديان الأخرى ، ليس بناء وانشاء ، وانما هو أفق . فالجامع هو في كل مكان «الأرض كلها أصبحت جامعي»[٩] ويكفي المؤمن من أجل الصلاة أن يعدل اتجاهه إلى مكة «بالنسبة لشمالي أفريقيا ، إنه الشرق مشرق الشمس ، والعكس بالنسبة للأندونيسيين والصينيين»، وان يضع أمامه شيئاً يمثل رمزياً القبر المقدس. ان القبلة، هي العمل على تحويل العالم ، مع مدينة عربية كمركز سطحي . وابعاد النساء عن القبلة هو اذن ابعادهن عن كل شي، من البعد المقدس كما هو من البعد الوطني الذي يعبر عن الفضاء كميدان للمركزية الاتنية العربية والاسلامية .

في فضاء الاسلام يمكن اقامة الصلاة في أي مكان ،في الشارع، في سور في حديقة أو على ساحة الحرب. وعلى سبيل المثال فإن الرسول ﷺ كان غرز سيفه أمامه وانشأ بذلك قبلته ، واستطاع كذلك ، عندما كان في الطريق أو في تمام الغزوة اعطاء الاشارة إلى الصلاة[١٠] . ولكن عندما يتم وضع قبلة رمزية أمام المرء ، فإنه يتوجب استبعاد وجود أشياء تعترض بين هذه القبلة وبين المصلي ، وذلك بهدف أن لا يشرد ذهنه. وبما ان الأرض كلها هي الجامع ، فإن حشر المرأة بين الكلب والحمار كما فعل حديث أبو هريرة، واعتبارها كعامل اضطراب، يرجع إلى القول بوجود تعارض أساسي بين جوهرها والجوهر الالهي . فبحشرها بين حيوانين داجنين ، جعل راوي الحديث منها وباء محتماً ، وكائناً ينتمي إلى الجنس الحيواني . ويكفي أن تظهر المرأة في حقل الرؤية حتى يكون التماس مع القبلة،

أي الالهي ، مختلاً ووجود الكلب والحمار يُخرب العلاقة الرمزية مع الالهي ، ويوجب قطع الصلاة ومعاودتها من جديد .

الحضارة العربية بكونها حضارة الكتابة ، فإننا لحسن الحظ لا نمتلك سوى وجهة النظر الوحيدة لأبي هريرة حول المسألة . وحسب ابن مسروق ، انه عندما ذكر حديث أبو هريرة أمام عائشة ، هذا الحديث الذي قال ان الاسباب الثلاثة ، الكلب والحمار والمرأة تقطع الصلاة ، ردت عليهم : «تقارنوننا الآن بالحمير والكلاب . والله لقد رايت النبي ﷺ وهو على أهبة اقامة صلاته ، وكنت هنالك، ممددة على الفراش ، بينه وبين القبلة ، ولكي لا أشرد ذهنه ، كنت اتحاشى أن اتحرك . . . .»(١١) . لقد تعود المؤمنون أن يأتوا إلى عائشة ، ليتأكدوا مما يسمعونه من أقوال ، واثقين في أحكامها ، ليس بصفتها قريبة من النبي ﷺ فحسب وانما لامكانياتها الخاصة . «رأيت جماعات من أصحاب النبي ﷺ ممن هم أكثر رفعة ، يطرحون عليه مسائل تتعلق بالفرائض ، وقال ابن عطاء : كانت عائشة بين كل هؤلاء الاشخاص الشخص الذي كان عنده اكثر المعارف بالفقه والأكثر ثقافة، وبمقارنتها بمن كان يحيط به كان حكمها هو الأفضل». ورغم نباهتها ، فإن تأثير أبي هريرة ربما تسرب في النصوص الدينية الأكثر احتراماً ، ومن بينها صحيح البخاري ، الذي بحسب ما يبدو ، لم يعتقد دوماً انه ملزم لادخال التصحيحات التي اوردتها عائشة . وقد كان موضوع عدد كبير من هذه الأحاديث «منجس» للنسوي .

إن المهم بالنسبة للاسلام، من هذا المظهر النسوي ، المثير للاختلاط والقذارة ، هو ان نتوقف عند شخصية أبي هريرة ، ذلك الذي اضفى عليه بنوع ما الصفة الشرعية . وبدون الرغبة في الرجوع إلى التحليل النفسي الاستقرائي، يمكن القول إن كل مصير أبي هريرة وعقده فيما يخص النساء مسجلة في تاريخ اسمه ، أبو هريرة ، الذي يعني حرفياً (أبو الهرة الصغيرة) ، وكان يدعى سابقاً «عبد الشمس»(١٢) . وكان النبي ﷺ قرر تغيير اسمه الذي كانت ارتباطاته قوية بالوثنية . فـ «عبد الشمس» كان أصله من اليمن ذلك الجزء من الجزيرة العربية التي لم تكن تتبع عبادة الشمس فحسب ، بصفة ان هذه كوكباً مؤنثاً في اللغة

العربية ، وانما حيث كانت النساء توجه الأعمال والقلوب . فاليمن كانت بلدة ملكة سبأ ، بلقيس ، هذه الملكة التي أثارت اهتمام سليمان ، وكانت تحكم على عرش سعيد والتي ميزت الذاكرة العربية في القرن السابع لأنها ظهرت في القرآن . والتي وظفت لحسابها إعجاب سليمان :

«وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديداً أو لاذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون .»[١٤] .

كان أبو هريرة أصلاً من قبيلة /الدوس/ اليمنية[١٥] . وفي سن الثلاثين ، اعتنق عبد شمس الإسلام . واعطاه الرسول اسم عبد الله ولقب أبي هريرة لأنه كان يصحب معه قطة صغيرة كان يحبها[١٦] . لكن أبا هريرة لم يكن مسروراً من لقبه الذي لقبه به الرسول ، لأنه لم يكن يحب الأثر النسوي في اسمه ، وقال أبو هريرة : «لا تدعونني أبو هريرة . فالرسول ﷺ لقبني بأبي هر ، والذكر أفضل من الأنثى . . .»[١٧] وقد كان لديه سبب آخر ليكون حساساً من هذا التاريخ النسوي ، فلم يكن له انشغال ذكوري كثيراً . ففي مدينة في أوج فورانها الاقتصادي ، حيث سكان المدينة وبخاصة اليهود ، يجعلون من الزراعة فناً ، استمر المكيون في نشاطاتهم التجارية ، ودبروا أمرهم بخلطها بالغزوات العسكرية . وقد فضل أبو هريرة لنفسه حسبما تقول تعليقاته الخاصة أن يكون في صحبة النبي ﷺ : فقد كان يخدمه وكان يعطى احياناً «عملاً عابراً في منازل نسائه» [١٨] . الأمر الذي يمكن ان يزيل بعض الاستار عن سر حقده عن النساء ، وعلى القطط من جهة أخرى ، فهذان الصنفان على ما يبدو كانا مرتبطين بشكل كريه عنده بثبات مدهش .

لقد كان مشغولاً جداً بالقطط والنساء الأمر الذي جعله يتذكر بأن الرسول كان قال له حديثاً متعلقاً بهذه المخلوقات وفيه ان القطة تنجو بشكل أفضل بكثير من المرأة . إلا أن عائشة تشهد في اتجاه معاكس فقد روى صحابي : «كنا عند

عائشة ، وكان أبو هريرة معنا وقالت له عائشة : يا أبا القطة الصغيرة ، أليس انت من قال بأنك سمعت الرسول يصرح بأن «امرأة دخلت جهنم لأنها اجاعت قطة ولم تمكنها من ان تشرب ؟» .

- نعم سمعت الرسول يقول هذا ؛ أجاب أبو هريرة .

- وردت عائشة - إن للمؤمن قيمة كبرى في نظر الله ، كي لا يعذبه بسبب قطة (. . .) يا أبا القطة الصغيرة ، عندما ستشرع في ترديد أحاديث الرسول ، في مرة قادمة ، احترس مما ترويه»[19] .

لا عجب أن ينال أبو هريرة بدوره من عائشة . إنها في أحسن حال «أم المؤمنين» و«حبيبة حبيب الله» ، فهي كثيراً ما تعارضه . ففي أحد الأيام عيل صبره ، عندما هاجمته فدافع عن نفسه ، وكانت قالت له : «انك تروي أحاديث لم تسمع بها مطلقاً» ؛ فكان رده لاذعاً :«أيتها الأم ، انا لم افعل سوى البحث عن الاحاديث ، وكنت انت مشغولة جداً بالكحل والمرآة»[20] .

إن أحد الموضوعات الثابتة من النزاعات في الاسلام هي منذ الأصل حول السلوك تجاه العمل الجنسي والحيض ،فهل هما مصدر للنجاسة ؟؟ . فعائشة وبقية نساء النبي لم يدعن فرصة للتأكيد على الفعل الذي لم يكن للرسول ﷺ حياله الوضع الرهابي الذي كان له في الجاهلية . فهل كان الرسول يتوضأ أم لا بعد الجماع اثناء شهر رمضان ؟؟ «سمعت أبا هريرة يروي أن من يفاجئه الفجر وهو جنب لا يمكنه ان يصوم»[21] . وبسماع الصحابة لهذا القانون الذي أعلنه أبو هريرة سارعوا لعند زوجات النبي ﷺ للتحقق من صحته وطرحوا السؤال على أم سلمة وعائشة (. . .) وقد أجابتا : : «كان الرسول ﷺ يمضي الليلة جنباً ، دون ان يتخذ أقل طقس وضوء ، وفي الصباح كان يصوم»[22] . ورجع الصحابة إلى أبي هريرة في حالة من الحيرة . . . وأجابهم:

- «آه نعم أقلن هذا ؟ . . ورد الصحابة وهم في حالة قلق أكثر لأن صوم رمضان هو أحد الأركان الخمسة للاسلام :

- نعم لقد قلن هذا .

وعندئذ اعترف أبو هريرة ، مكرها ، بأنه لم يسمع الحديث مباشرة من النبي ﷺ ، ولكن من أحد الناس : «لقد رجع عما كان قاله، وعلم فيما بعد أنه قبل موته قد تراجع تماماً «عن هذا الحديث»[٢٣] .

لم يكن أبو هريرة الوحيد الذي روى الاحاديث حول شعائر الوضوء، وهي نقطة حقيقية من الخلاف والمنازعات بين عائشة والصحابة . «فقد أمر ابن عمر النساء اللواتي يقمن بشعائر الوضوء بأن يفكُّنَّ ضفائرهن قبل امرار اياديهن المبللة على شعرهن . وقد ردت عائشة عندما علمت بانتشار هذه التعليمات : «يا عجباً . . . لماذا ، عندما كان موجودا ، لم يأمر بحلق الشعور ؟ لقد كنت اغتسل مع الرسول من سطل ماء واحد. وكنت امرر يدي المبللة على شعري ثلاث مرات ، ولم افك ضفائري أبداً»[٢٤] . وقد كانت عائشة تصر على هذه التصحيحات لأنها كانت واثقة من اشكالاتهم : فقد كان أهل الجزيرة العربية قبل الاسلام يعتبرون الجنس، والمرأة الحائض بصورة خاصة كمصدر للقذارة والتدنيس وكقطب للقوى السلبية . وهذه النظرية حول القذارة كانت تعبر عن رؤية للنسوية تفصح عن نفسها عبر منظومة من الخرافات والمعتقدات أراد محمد ﷺ ادانتها كما لو أنها متكونة من جوهر الجاهلية ، من جهة ومن جوهر معتقدات اليهودية في المدينة من جهة أخرى .

وقد كان النقاش حول النجاسة مسألة أساسية . فمن جهة ، قدم الفقهاء اللذين ساهموا في هذا النقاش ،المعالج طويلاً في الأدب الديني ،والذين تكلموا فيه لمصلحة عائشة ، قدموا كحجة الواقعة بأن نقلها للاحاديث يبدو متوافقاً أكثر مع موقف النبي ﷺ ، الذي حاول بكل الوسائل أن «يقاوم ضد الأوهام الخرافية بكافة أشكالها»[٢٥] .

وتلك قضية لم تكن تهم سوى الأئمة ، وكان الخلفاء يشعرون صراحة انها تعنيهم : «كان معاوية بن أبي سفيان طلب إلى أم حبيبة ، زوجة النبي ﷺ ، اذا كان قد حصل له صلى الله عليه أن صلى في الثياب التي يجامع فيها ، فقالت له نعم، لأنه لم يكن يرى في ذلك أي شر»[٢٦] . ويوضح لنا الأمام النسائي لماذا أصر جداً على موضوع الطمث في فصل له حول شعائر الوضوء : إن الرسول ﷺ أراد

معاودة العمل ضد السلوك الرهابي لسكان المدينة من اليهود ، الذين كانوا يرون محرماً المرأة وهي في حالة الطمث «لقد أمر المؤمنين من الذكور الذين طرحوا اسئلة عن هذا الموضوع» بأن يأكلوا مع نسائهم ، ويشربوا معهن ، ويشاطروهن الفراش ، وان يفعلوا ما يريدون ، ما عدا الجماع»[٣٧] .

وتكرس كتب الفقه جميعها فصلاً أو عدة فصول لشعائر الوضوء التي يجب على كل مسلم ممارستها خمس مرات في اليوم قبل الصلاة . وما لا يمكن نكرانه ان للاسلام وضعاً قلقاً حيال الطهارة البدنية ، التي تحُرَض عند عدد كبير على صرامة شبه عصابية .

ففي بداية تعليمنا الديني يبدأ بهذا التنبيه المحمول للجسد ، ولافرازاته للسوائل ، ومنافذ الجسد التي على الطفل ان يتعلم السهر عليها لمراقبتها بدون توقف ، ويفرض العمل الجنسي طقساً أكثر إعداداً بالنسبة للرجل والمرأة ، فبعد أيام طمثها ، على المرأة ان تغتسل بالكلية حسب طقس واضح . ويؤكد الاسلام على واقعة ان الجنس والحيض هما بالفعل حدثان فوق العادة (بالمعنى الأصلي للكلمة) ولكنها لا تجعل من المرأة قطباً سلبياً «يلغي» بنوع ما الحضور الالهي ويعطل نظامه ، بيد أن رسالة النبي ، على ما يبدو ، وبعد خمسة عشر قرناً ، لم تدخل بعد في آداب العالم الاسلامي ، واذا قلت هذا فذلك تبعاً للرفض الذي أرجعني في بينانغ ، في ماليزيا ، في بغداد أو في القيروان في الحين الذي كنت على عتبة مسجد أو كنت أرغب الدخول لهذا المعبد .

ويروي لنا النسائي وهو الشديد التدقيق في التفاصيل أن أم ميمونة ، احدى زوجات الرسولﷺ و(كان عنده منهن تسعة في الفترة التي تعنينا، السنوات الأخيرة من حياته في المدينة) قالت : «كان يحصل أن يتلو النبي القرآن ، ورأسه موضوع على ركبة واحدة من بيننا والتي قد تكون في الحيض . وكان يحصل أيضاً لواحدة من بيننا وهي تحمل بساطاً للصلاة وتفرشها في الجامع ، في حين انها تكون في الحيض»[٣٨] . وقبل الفترة التي كتب فيها الامام النسائي (ولد في السنة ٢١٤ أو ٢١٥ للهجرة ، ق : ٩م) كان العلماء يشكون بوجود رسالة هناك تغيّر معاداة النساء المتجذرة في البحر المتوسط العربي قبل وبعد النبيﷺ ، وحاولوا

ان يكونوا متنبهين بقدر ما يمكن لعدم التنكر لهذا البعد المعكر لرسالة الاله هذه . هؤلاء الفقهاء، الذين شعروا بخطر معاداة النساء كإمكانية للتنكر للنبي ﷺ ، سوف يضاعفون من احتياطاتهم ، وتنقيبهم ، ويفتشوا حول الحياة الجنسية للنبي ﷺ ، باعطائهم الكلام لنسائه المصدر الوحيد الممكن تصديقه في هذا الشأن . لقد عملوا على تجميع التفاصيل حول حياته في الجامع كما في منزله . وسوف يكرس ابن سعد فصلاً لمخطط بيت الرسول ﷺ ، فصلا ، هو كما سوف نرى للحال ، هام جداً من أجل توضيح هذا البعد المفتاح للاسلام والذي هو ثورة شاملة بالنسبة لتقاليد اليهود ـ المسيحية ، والى الجاهلية للعلاقة النسوية . لكن سرعان ، ما أخذ الاتجاه المعادي للنساء يفرض نفسه بين الفقهاء ويأخذ لنفسه الأفضلية ، وسوف نرى انبثاق هذا الخوف الخرافي من النسوي الذي كان الرسول قد اراد ازالته . يمكن ان نقرأ في (صحيح البخاري) الحديث التالي :«سوء الحظ يوجد في اشياء ثلاثة : البيت ، المرأة ، الفرس .»[٢٩] . وبدون ان يذكر البخاري روايات أخرى كانت القاعدة مع ذلك ، بالنسبة إلى الفقه ، أن يعطي صيغة أو عدة صيغ متضادة بهدف أن يظهر إلى القارىء وجهات النظر المتنازع حولها وللسماح له بذلك ليكون مطلعاً بما فيه الكفاية كي يقرر لنفسه إزاء الممارسات التي صنعت موضوع المنازعات . وعليه ، لا يوجد أي أثر للتفنيد الذي قامت به عائشة لهذا الحديث في صحيح البخاري . «قيل لعائشة ، كما كتب الامام الزركشي ، إن أبا هريرة كان على أهبة لأن يؤكد أن رسول الله قال : ثلاثة اشياء تجلب سوء الحظ ، البيت ، المرأة ، الفرس ، فردت عائشة : إن أبا هريرة تلقى دروسه حتماً بشكل سيء . لقد دخل علينا في حين كان الرسول في وسط الجملة فلم يسمع سوى النهاية . كان الرسول ﷺ قد قال : قاتل الله اليهود، إنهم يقولون : ثلاثة اشياء تحمل سوء الحظ ، البيت ، المرأة ، الفرس»[٣٠] .

ليس فقط أن البخاري لم يدخل هذا التصحيح، بل إنه عالج الحديث كما لو إنه لم يشكل موضوعاً لأية معارضة . لقد ذكره ثلاث مرات ومع كل مرة بسلسلة اسناد مختلفة ، الأمر الذي يقوى ، في العادة ، الحديث ويوحي بانطباع من التوافق . ولم يرد أي ذكر للنقاش الذي حصل بين عائشة وأبي هريرة في هذا

الشأن . وأكثر من هذا ، فإن البخاري أتبع هذا الحديث المعادي للنساء بآخر ، من ذات المأخذ وهو يعكس ذات الرؤية للنسوية ، قطب التدمير وسوء الحظ : «قال النبي ﷺ : لم أترك بعد أي سبب للفوضى أكثر شؤماً للرجل سوى النساء»[٣١] . المصدر هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ثاني خليفة ، والمعروف بزهده العادي والذي كان يقطع ليله بالصلوات والوضوءات[٣٢] . لقد كان عبد الله مصدراً ، كثيراً ما أخذ عنه البخاري ، وهو منشيء حديث آخر مشهور يقذف به النساء في جهنم: «قال عبد الله بن عمر ، إن الرسول ﷺ قال : ألقيت نظرة على الجنة ، فرأيت ان أكثر سكانها مؤلف من ناس فقراء ، وألقيت نظرة على جهنم، فرايت ان النساء كن يشكلن الاغلبية»[٣٣] .

فماذا يجب ان يستنتج ؟ حتى لو ان الاحاديث صحيحة ، يقتضي ملاحظتها بدقة وانتباه ! ذلك هو حقنا، كما سوف يقول مالك بن أنس: فالبخاري مثله مثل كل الفقهاء ، بدأ مجموعته بطلبه من الله العون ، وبالتأكيد على انه وحده المعصوم من الخطأ . إن الشك بكل شيء ، وبخاصة الفقهاء والأئمة ، تلك هي سنتنا ، ويتوجب ، أكثر من أي وقت نبشها من عصور النسيان التي استطاعت اخفاءها ، وعلى الأخص تحاشي السقوط في التعميات والقول بأن كافة الأئمة كانوا وما زالوا معادين للنساء ، الأمر الذي ليس صحيحاً اليوم، ولم يكن صحيحاً بالأمس . ويشهد على ذلك الإمام الزركشي الذي لحسن حظنا سجل كتابة كل اعتراضات عائشة .

الامام الزركشي من أصل تركي ، ولد في مصر في منتصف القرن الرابع عشر (بدقة في سنة ٧٤٥ هجرية) . وككل علماء عصره تجول عبر العالم الاسلامي بحثاً عن العلم والمعرفة ، وتخصص في العلوم الدينية ولم يترك أقل من ثلاثين مجموعة فقد الكثير منها بالنسبة للباحثين بحيث لم يعرف سوى عناوينها . ومن بين ما وصل إلينا منها ، كتاب مكرس لمساهمة عائشة في الإسلام ، ومداخلاتها بصفتها مصدراً للعلم الديني ويبتدىء الكتاب هكذا :

«عائشة أم المؤمنين (. . .) ، هي حبيبة رسول الله (. . .) عاشت معه ثمانية سنوات وخمسة أشهر ، وكان عمرها ١٨ سنة عند موت الرسول ﷺ (. . .)

وقد عاشت ٦٥ سنة(. . .) وروت ١٢١٠ أحاديث. . .»[٣٤] . ويضيف : «هذا الكتاب مكرس لمساهمتها الخاصة ، أي لما تفردت به في هذا الميدان ، وبخاصة حول النقاط التي لم تكن فيها على وفاق مع غيرها والنقاط التي أضافت عليها اضافة من المعلومات ، والنقاط التي اختلفت فيها كلية مع رجال العلم في زمنها (. . .) وقد اعطيت هذا الكتاب عنوان مجموع التصحيحات التي قدمتها عائشة للشهود من الصحابة «الايراد فيما استدركته عائشة عن الصحابة»[٣٥] .

لقد بقي الكتاب تحت شكل مخطوط حتى سنة ١٩٣٩ وقد اكتشفه الافغاني وهو يفتش عن سيرة عائشة في المكتبة الظاهرية في دمشق . فلماذا شرع الإمام الزركشي أحد أكابر علماء المدرسة الشافعية في زمنه ، في عمله حول عائشة ؟؟. انه عمل ، يعتبر بكل وضوح ، هام جداً ، طالما أنه أهدى الكتاب إلى قاضي القضاة ، المعادل لوزير العدلية حالياً ، السلطة العليا في مادة الدين في مدينة مسلمة ؛ لأنه ، كما يقول : «إن النبي ﷺ اعترف بأهمية عائشة لدرجة انه قال : خذوا جزءاً من دينكم عن هذه الحميراء»[٣٦] وهي احدى التصغيرات المفضلة للنبي عندما كان يتكلم عن عائشة (الحميراء) رجوعاً إلى لون بشرتها البيضاء التي تعلوها سمرة خفيفة ، والنادرة في الحجاز ،الجزء الشمالي من الجزيرة العربية[٣٧].

لقد عارضت عائشة العديد من أحاديث أبي هريرة واعلنت لمن يريد أن يسمع : «انه غير موهوب لسماعه ، وعندما يكون ملتمساً ، فإنه يعطي أجوبة فاسدة» وقد أباحت عائشة لنفسها انتقاده وكانت ذاكرتها اعجوبة . «لم أجد في حياتي أحدًا كان له مثل هذه المعرفة في الفقه ، والشعر والطب التي كانت لعائشة»[٣٩] .كان أبوهريرة ماهراً في إثارتها، وكانت تصرخ في وجهه «ولكن من سمع هذا من أبي القاسم (لقب الرسول ﷺ) ؟؟»وذلك عندما كان يؤتى إليها برواية حديث عن هذا يصف فيه ما كان يفعله الرسول ﷺ بعد الحب[٤٠] .

إن التوقف عند شخصية أبي هريرة ، راوي الأحاديث التي تغرق الحياة اليومية لكل امرأة مسلمة عصرية بعد أن أصبح مصدر تفسير ضخم في الأدب الديني ، ليس مهمة عابثة . كان أبو هريرة ويبقى دائماً موضوع تناقضات . وهو بعيد عن ان يجمع عليه بصفته مصدراً موثوقاً . آخر الكتب التي تتعلق به

والمنشورة حديثاً بالاشتراك بين مكتبة لبنانية ومكتبة عراقية هو كتاب ثناء عليه يعظمه فيه كاتب هذا الكتاب واحد المعجبين به عبد المنعم صالح العلي وقد اعطى لهذا الكتاب عنواناً على درجة من البلاغة : في الدفاع عن أبي هريرة ، وقد لاقى هذا الكتاب رواجاً بحيث اعيدت طباعته في سنة ١٩٨٣[٤١] . ويبدأ المؤلف بالتأكيد على «ان الصهيونية وحلفاءها ومسانديها وجدوا سلاحاً آخر ضد الاسلام ، وهو ادخال الشك فيما يتعلق برواة الاحاديث (. . .) وبخاصة اولئك الذين رووا الكثير (. . .) من بينهم[٤٢] . وهذا من أجل اعطاء فكرة لكثافة المعارضة المتعلقة بأبي هريرة . . والمؤكد ان ابا هريرة ، حتى قبل الصهيونية ، كان موضوع هجوم من الصحابة في جيله الخاص . كان أبو هريرة يتمتع بشهرة على جانب كبير من الشك منذ البدء ، وكان البخاري عالماً بذلك لأنه هو بذاته يقرر أن : «الناس قالوا بأن أبا هريرة روى الكثير من الاحاديث»[٤٣]. ولكي يدافع عبد المنعم عرض كل الحوادث التي عورض فيها بعنف، ومن قبل آخرين غير عائشة ، وهو يؤكد لنا ان عمر بن الخطاب ، والخليفة الراشدي الثاني ، لم يقل عنه سوى «اكبر كذاب من المحدثين هو أبوة هريرة»[٤٤]. وينكر ان عمر هدده بالنفي وبطرده إلى اليمن ، بلده الأصلية ، اذا استمر في رواية الأحاديث[٤٥] .

إن عمر بن الخطاب الذي كان يتمتع عند الرسول ﷺ وعند الجماعة الاسلامية بالأمس واليوم، بتأثير لا مثيل له ، وذلك لعدة أسباب ، منها احترامه وتقديره وبصفته رجل سياسة ، وجرأته على المستوى القتالي وقوة شخصيته ورهبته للكذب ، قد تجنب رواية الحديث . لقد كان يرتعب من فكرة ان لا يكون مستقيماً دقيقاً. ولهذا السبب كان عمر من بين الصحابة الذين يفضلون الاستناد على رأيهم الخاص ، بدلاً من ان يعتمدوا على ذاكرتهم حيث كانوا يحسبون أنها معرضة للخطأ بشكل خطير[٤٦] ، وقد اغضبه إلى حد كبير جداً السهولة التي كان يطلق بها أبو هريرة الاحاديث : ويمكن ان نقرأ في السيرة الشخصية التي ألفها عنه ابن حجر ان عمر بن الخطاب «فكر يوماً بخصوص أبي هريرة وقال : لدينا الكثير من الأشياء التي يمكن قولها ، ولكننا نخاف من قولها ، وهذا الرجل لا وازع لديه»[٤٧] .

قابلية خطأ الذاكرة كانت بالنسبة للصحابي الورع مناسبة لأن يتفكر حول ضعف الكائن أمام مجرى الزمن ، الذي يسرق ليس الشباب فحسب وانما الذكريات بصورة خاصة . كذلك فإن عمرو بن حصن ، صحابي آخر واع لخيانة الذاكرة التي تفقد وقد قال : «لو أردت ، لتمكنت من رواية الأحاديث بدون توقف عن الرسول ﷺ ، لمدة يومين ، وان ما يمسكني ويمنعني من إجراء ذلك ، هو أنني شاهدت رجالاً بين صحابة رسول الله ، الذين سمعوا تماماً ما سمعته أنا بذاتي ، والذين رؤوا مارأيت ، وقد روى هؤلاء الرجال الأحاديث . هذه الأحاديث ليست تماماً ما سمعناه . وانني اخشى ان يشابه لي كما شابه لهم»[48] والعبارة العربية المستعملة (يشابه) تعني حرفياً هلوس ، هذى ، أي رأى حقيقة ما لا يوجد أبداً ، ولكنه يشبه ، بصفته «بالحقيقة» .

أبو هريرة ، على العكس من ذلك ، خلال السنوات الثلاث التي امضاها بصحبة النبي ﷺ ، نجح بتجربة تتطلب القوة لأن يتذكر ٥٣٠٠ حديث[49]. وقد احصى البخاري ٨٠٠ خبير ذكرهم كمصدر[50] . وهاكم ما يعلل به أبو هريرة ذاكرته الخرافية : «قلت للنبي ﷺ ، انني اصغي إليك بانتباه ، واسجل الكثير من أقوالك ، ولكني أنسى كثيراً»[51] . وعندئذ قال له النبي ﷺ ان يبسط عباءته ، اثناء كلامه معه ، وبعدئذ اعاد جمعها في نهاية الجلسة . «وهكذا فإنني لم أعد أنسى شيئاً»[52] . في ديانة كالديانة الاسلامية ، التي تمقت فيها الأسرار من كل نوع ، والتي قاوم محمد(ص) ضغط معاصريه لاحداث معجزات وأعمال سحرية ، وحيث ان أغلبية الفقهاء عاجلاً ما افرغوا في ذرائعية فادحة ، تكون قصة العباءة لهم ليست هي الطريقة المثلى لاقناعهم .

واعطى ابو هريرة ، أيضاً ايضاحاً أكثر واقعية من الأول : فكما يقول ، إن الصحابة الآخرين توظفوا في أعمال وامضوا وقتهم في التجوال في الأسواق ، لابرام عقود تجارية والعمل على تثمير أموالهم . في حين أنه ليس لديه عمل آخر سوى متابعة النبي ﷺ في كل مكان[53] .

لقد كان عمر بن الخطاب ، المعروف بنشاطه الطبيعي ، يعمل على ايقاظ المدينة في الفجر للقيام بفرض الصلاة ، ولم يكن يحب الكسالى والأشخاص الذين

كانوا يتسكعون دون عمل محدد . وقد استدعى مرة أبا هريرة من أجل ان يعهد إليه بعمل . وكم كانت دهشته عندما رفض هذا عرضه ، فقال له عمر الذي لم يكن يمزح أبداً في مثل هذا النوع من الأشياء :

ـ «اترفض ان تعمل ؟ إن رجالاً أفضل منك بكثير التمسوا العمل .

ـ وتساءل أبو هريرة «من هم هؤلاء الأشخاص الذين هم خير مني ؟».

ـ فاجابه عمر ، النبي يوسف بن يعقوب ، مثلاً . «لكي يضع نهاية لحديث يمكن ان يخرجه عن طوره».

ـ فأجابه أبو هريرة ، متمرداً ، لقد كان نبياً ابن نبي ، وأنا أبو هريرة ابن أميمة[٥٤] .

مع هذه الطرفة ، نرجع إلى نقطة البداية التي انطلقنا منها ، وعلاقة أبو الهرة الصغيرة بالنسوية ، والمسألة الفادحة جداً من العلاقة بين المقدس والمرأة . علاقة تنبسط من جهة أخرى مع مسرحية اكثر من خاصة في حالة الاسلام كممارسة جنسية ، لأنها تتفرد بمغامرة يشغل فيها الحجاب مكاناً أساسياً . كافة الأديان التوحيدية ، اخترقت بالنزاع الالهي ـ النسوي ، ولكن أي واحد منها لم يكن بعيداً عنها كالاسلام الذي اختار ..نسبة للاختباء النسوي ، رمزياً على الأقل ، محاولة لتغليفه ، لاخفائه ، لتقنيعه . هذا الموقف الشبه رهابي تجاه النساء ، يبدو مفاجئاً سيما وأننا رأينا النبي ﷺ قد شجع اتباعه للتراجع عنه ، بصفة أنه يمثل الجاهلية وأضاليلها . ومن هنا كان التساؤل التالي : هل يمكن الاّ يكون للاسلام ، على مستوى العقليات القديمة المتعلقة بالمرأة ، سوى اثر محدود وسطحي ؟هل يمكن ان يكون الحجاب ، المحاولة لحجب المرأة ، الذي نطالب به في أيامنا كمنشىء للهوية الاسلامية ، ليس هو في الواقع سوى التعبير عن عقلية الجاهلية ذاتها التي افترض ان الاسلام قد انهاها ؟ .

فماذا يمثل الحجاب حقيقة في سياقه الاسلامي القديم ؟ وماذا تعنيه هذه الكلمة ؟ وما هو منطقه وتبريره ؟ ومتى يجب اقامته ولمن ، واين ، ولماذا ؟ .

مراجع وهوامش الفصل ٤

١ ـ الصحيح ـ جزء ١ ص ٩٩ .
٢ ـ الامام الزركشي ـ الاجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة ، قدم له سعيد الافغاني المكتب الاسلامي طبعة ٢ ١٩٨٠ ص ٥٢ .
٣ ـ ذات المرجع .
٤ ـ الامام النسائي ، السنن شرح السيوطي ومراجعة الامام السبذي ـ المطبعة المصرية القاهرة جزء ١ ص ٢٤٢ .
٥ ـ حول الهجرة الأولى حيث ان عدداً من اصحاب الرسول قرروا الذهاب للاقامة في الحبشة ـ انظر السيرة جزء ١ ص ٣٤٤ .
٦ ـ محمد خاتم الأنبياء ـ مرجع سابق ص ١٣٥ ترجمة عن الفارسية مماثل لترجمة التاريخ للطبري جزء ٢ ص ٢٦٤ .
٧ ـ حول موقف بعض المستشرقين تجاه محمد ﷺ ، انظر بعض صفحات كتاب مونتغمري واط يكرسها في كتابه مدخل للقرآن . وانظر أيضاً خلاصة على دراسة مستشرقين حول القرآن وبصورة خاصة المسائل التي تعرض لهم بصفتهم غير مسلمين .
وفيما يتعلق بالطريقة التي حلل فيها بعض المستشرقين علاقة محمد ﷺ بسكان المدينة انظر التحليلات التالية التي تبسط فيها الخيارات السياسية والايديولوجية للرجل الذي يحلل والمثال على ذلك تحليل مونتغمري واط في المحلق/ب «التوحيد العربي واليهودي المسيحي وتأثيراته» . محمد في مكة ، مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٥٣ ص ١٥٨ . وتحليل مكسيم رودنسون في الفصل الثالث (ولادة النبي) الخ .
٨ ـ الطبري ، تفسير دار الفكر جزء ٢٤ ص ٩٠ .
٩ ـ السنن مرجع سابق جزء ١ ص ٢١١ .
١٠ ـ الصحيح ذات المرجع جزء ١ ص ١٩٩ .
١١ ـ الصحيح مرجع سابق جزء ١ ص ١٩٩ .
١٢ ـ ابن حجر ـ الاصابة جزء ٨ ص ١٨ .

١٣ - ذات المرجع جزء ٧ ص ٤٢٧ .
١٤ - القرآن ترجمة ماسون السورة ٢٧ (النمل) آية ٢٣ و٢٤ .
١٥ - عبد المنعم صالح دفاع عن أبي هريرة ص ١٣ .
١٦ - الاصابة - مرجع سابق جزء ٧ ص ٤٢٦ .
١٧ - ذات المرجع جزء ٧ ص ٤٣٤ .
١٨ - ذات المرجع جزء ٧ ص ٤٤٩ .
١٩ - الاجابة مرجع سابق ص ١١٨ .
٢٠ - الاجابة مرجع سابق جزء ٧ ص ٤٤٠ .
٢١ - الاجابة جزء ١١ ص ١٢٢ .
٢٢ - ذات المرجع .
٢٣ - ذات المرجع ص ١١٢ و١١٣ .
٢٤ - ذات المرجع ص ١١١ .
٢٥ - ذات المرجع ص ١١٥ .
٢٦ - سنن النسائي مع شرح السيوطي مرجع سابق ص ١٥٥ .
٢٧ - ذات المرجع ص ١٥٢ .
٢٨ - ذات المرجع ص ١٤٧ .
٢٩ - الصحيح مرجع سابق جزء ٣ ص ٢٤٣ .
٣٠ - الاجابة مرجع سابق ص ١١٣ .
٣١ - الصحيح جزء ٣ ص ٢٤٣ .
٣٢ - يمكن قراءة سيرة عبد الله بن عمر في الاصابة جزء ٤ ص ١٨٢ .
٣٣ - الصحيح مرجع سابق جزء ٤ ص ١٣٧ .
٣٤ - الاجابة ص ٣٧ و٣٨ .
٣٥ - ذات المرجع ص ٣٢ .
٣٦ - ذات المرجع ص ٣١ .
٣٧ - زاهية قدورة عائشة أم المؤمنين دار الكتاب اللبنانية ، بيروت ١٩٧٦ .
٣٨ - الاجابة ص ١١٦ .
٣٩ - الاصابة جزء ٨ - ص ١٧ .
٤٠ - الاجابة مرجع سابق من ص ١٢٠ .

٤١ ـ عبد المنعم صالح ـ دفاع عن أبي هريرة ـ دار التعلم بيروت ومكتب النهضة بغداد الطبعة ٢ ١٩٨١ .
٤٢ ـ ذات المرجع ص ٧ .
٤٣ ـ الصحيح جزء ١١ ص ٣٤ . .
٤٤ ـ دفاع عن أبي هريرة .
٤٥ ـ ذات المرجع .
٤٦ ـ أبو زهرة ـ (الرأي والحديث) مالك ، دار الفكر العربي ، ص ١٤٦ .
٤٧ ـ الاصابة جزء ٧ ص ٤٤٠ .
٤٨ ـ مالك ص ١٤٥ .
٤٩ ـ الاصابة جزء ٧ ص ٤٣٢ .
٥٠ ـ الصحيح جزء ١ ص ٣٤ .
٥١ ـ ذات المرجع .
٥٢ ـ ذات المرجع .
٥٣ ـ الاصابة جزء ٧ ص ٥١٧ .
٥٤ ـ ذات المرجع .

القسم الثاني

مدينة في ثورة:
السنوات المصيرية الثلاثة

-٥-
الحجاب

نزل الحجاب ،لغةً (الستار) ليس من أجل وضع حاجز بين رجل وامرأة ، وانما بين رجلين . والحجاب هو حدث محدد التاريخ يناسب الآية ٥٣ من السورة ٣٣ التي أوحي بها في السنة الخامسة هجرية (٦٢٧) .

«يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا ان يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا، فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق واذا سألتموهن متاعاً فسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ان ذلكم كان عند الله عظيما».

ويستعمل الفقهاء عبارة «نزول الحجاب» الذي يغطي بالفعل حدثين متزامنين ، يمران على سجلين مختلفين تماماً : فمن جهة نزول الآية القرآنية من السماء أي وحي الله إلى النبي ﷺ ، عملية تتبع سجلاً عقلياً ، ومن جهة أخرى انزال حجاب من قماش ، حجاب مادي ، ستار أسدله النبي ﷺ بينه وبين الرجل الذي كان وجد على عتبة غرفة زواجه .

إن آية الحجاب نزلت في غرفة الزوجين من أجل حماية حياتهما الخاصة وابعاد الشخص الثالث ، عن النظر وهو أنس بن مالك ، أحد صحابة الرسول . فأنس قد خص بالحجاب ، بصفته شاهداً ورمزاً لجماعة أصبحت مزعجة جداً ، وهذا الشاهد بذاته هو الذي يروى الحدث . وعندما تعرف الانعكاسات التي ستكون لاشارة هذا الحدث على حياة النساء المسلمات ، فإن الوصف الذي اعطاه له أنس يفرض نفسه : لما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام وقعد ثلاثة ثم انطلقوا . فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم انطلقوا فجاء حتى دخل وذهبت أدخل فالقى الحجاب بيني وبينه وانزل الله الآية . . إلخ . . فالحجاب سيكون جواباً من الاله لجماعة ذات اخلاق جلفة كانت بجلافتها آذت نبياً كان تهذيبه يقترب من الخجل ، وهذا كان على الأقل تفسير الطبري الذي افاض بوصف الحدث الذي ذكرته كل كتب التفسير وتفصيله :

«قال أنس بن مالك : «كان النبي قد تزوج زينب بنت جحش ، وقد كلفني بدعوة الناس إلى وقعة العرس . ونفذت الأمر وجاء الناس بعدد كبير ودخلوا جماعات أحدهم بعد الآخر وأكلوا ثم انصرفوا . فقلت للنبي ﷺ :

ـ يا رسول الله ، دعوت الكثير من الناس بحيث لم أجد أشخاصاً أكثر ادعوهم .

وفي لحظة معينة قال النبي ﷺ :

ـ أوقف الدعوة :

وكانت زينب جالسة في زاوية من الغرفة ، وكانت امرأة على جانب كبير من الجمال . وكان كل المدعوين قد ذهبوا ما عدا ثلاثة من بينهم كانوا قد نسوا انفسهم . فبقوا في الغرفة على أهبة النقاش فيما بينهم . وترك النبي ﷺ الغرفة مغيظاً . وتوجه صوب مسكن عائشة . وبرؤيته لها حياها بقوله :

ـ السلام عليك يا ساكنة البيت ، وردت عائشة :

ـ وعليك السلام يا نبي الله ، كيف وجدت رفيقتك الجديدة ؟

وأجرى دورة على مساكن زوجاته اللواتي استقبلنه بذات الطريقة التي استقبلته بها عائشة ، وأخيراً رجع عائداً لغرفة زينب ورأى ان المدعويين الثلاثة لم يذهبوا بعد وكانوا دائماً يتسامرون . كان النبي ﷺ رجلاً مهذباً ومتحفظاً إلى أقصى حد فعاود الخروج إلى منزل عائشة . ولم أعد اذكر ما اذا كنت أنا أم شخصاً آخر قد جاء لاعلامه بأن الأشخاص الثلاثة قرروا أخيراً الذهاب . عل كل حال ، عاد نحو غرفة الزواج ، فقدم رِجلاً داخل الغرفة وابقى الأخرى خارجها ، وفي هذه الحالة اسدل ستراً بينه وبيني ، ونزلت آية الحجاب هذه في تلك الفترة»[٣].

في هذا النص ، يستعمل الطبري مفهومين لا يوجد ميل لدمجهما : حجاب وستر ، الذي يعنى حرفياً /ستار/ ، ولْنُعِدْ الوقائع الأكثر بروزاً من هذه الشهادة :

١ ـ فبسحبه الستار ، يقول لنا أنس ، ان النبي ﷺ تلفظ بما سوف يكون تصنيف النص القرآني للآية ٥٣ من السورة ٣٣ التي هي بالنسبة للخبراء آية الحجاب . ويتعلق الأمر بالكلمات التي سمع أنس النبي ﷺ يهمس بها في الفترة التي سحب فيها الستر بينهما . الكلمات التي كانت الرسالة التي اوحى بها الله لنبيه كجواب على حالة ، لم يكن فيها النبي ﷺ على مايبدو ، يعرفه ماذا يفعل ولا كيف يعمل . ولابد من ان نتذكر هاهنا ان القرآن هو كتاب متجذر في الحياة اليومية للنبي وجماعته ، انه على الأغلب جواب على وضع معين .

٢ ـ الواقعة الثانية التي يجب ذكرها هي ان النبي ﷺ كان يحتفل بزواجه من زينب بنت جحش .

٣ ـ لقد دعا تقريباً كل الجماعة الاسلامية في المدينة .

٤ ـ جميعهم ساهموا في حفلة العرس وأكلوا وذهبوا ما عدا ثلاثة أشخاص غير مهذبين حيث استمروا بالثرثرة دون ان يفكروا بنفاذ صبر الرسول ﷺ ورغبته في البقاء لوحده مع عروسه الجديدة .

٥ ـ إن النبي ﷺ الذي اغاظه الأمر ، خرج في الباحة ، واجرى المائة خطوة ، ورجع إلى الغرفة وانتظر إلى ان يقرر المتخلفون الذهاب .

٦ ـ منذ ذهابهم أوحى الله لنبيه بآية الحجاب هذه .

٧ ـ سحب هذا الحجاب (الستر) بينه وبين أنس وهو يتلو الآية ٥٣ من السورة ٣٣ التي سنفصلها حالاً .

إن الطبري لا يحاول ان يعطينا الاسباب، وهو يصف أسباب «نزول الحجاب» ، لغيظ النبي ، المعروف بهدوء اعصابه ورباطة جأشه وصبره اللامحدود ، هذا الغيظ الذي أدى للاسراع بالوحي بقرار على هذه الدرجة من الخطورة ، اكثر من خطورة اقامة الحجاب . في الظرف الذي أوصل إلى الوحي بالحجاب يمكن ان نذكر السرعة الاستثنائية لتشابك الاحداث : غيظ النبي ﷺ ، والانعكاس الالهي الذي حصل تقريباً على الفور . وستكون هنالك فرصة لدراسة بعدة آيات وأسباب نزولها ، وغالباً ما يوجد بين اللحظة التي تحل فيها المشكلة واللحظة التي يكشف فيها الوحي ، فترة من الكمون بنوع ما ، وانتظاراً لوقت يمضي . وعلى ذلك ، في حالة الحجاب ، فإن السرعة الغير معتادة للوحي لا تحاط مع الايقاع النفسي النظامي لعمليات الوحي من جهة ، وبخاصة مع ما يعرف من صفة النبي ﷺ .

كان النبي ﷺ مشهوراً بقدرته الفائقة على التحكم بنفسه . فلم يكن يعمل مطلقاً بانفعال . بل كان يأخذ أياماً برمتها كي يفكر عندما تعرض مشكلة ، وكان الناس قد اعتادوا على هذه الروية في التفكير ، تسجيل المشكلة ، والتفكير فيها وقتاً طويلاً قبل اتخاذ قرار كان يشكل الملامح لطبع يسمح بالاستمرارية والتواصل مع مجتمع ذي اخلاق عنيفة .

إن الانطباع السائد الذي يستخلص من صورته «الرسمية» كما تمثل في كتب التاريخ ، هو انطباع عن رجل ناعم وخجول . فالنبي ﷺ «كان ذا قامة وسط ، لا كبير جداً ولا صغير ، لون بشرته كامد أبيض على وردي ، وعيناه سوداوان ، وشعره كثيف ، وضاء وجميل ، تحيط لحيته بكل وجهه ، وقد كانت كثة جداً ، وكان شعره طويلاً يصل حتى كتفيه ، وكان أسوداً . رقبته بيضاء (. . .) وكان في وجهه رقة بحيث اذا وجد المرء في حضرته مرة لا يمكن ان يدعه (. . .) أي واحد رآه كان يوافق على انه لم يجد قبله ولن يجد بعده رجلاً له مثل كلامه الساحر» . .[٤]

وبشكل متناقض ، وفي مجتمع يرجع فيه الناس بسهولة لامتشاق سيوفهم ، كما يقول الطبري ، من أجل تسوية مشاكلهم ، كان محمد ﷺ متميزاً بقدرته على امتصاص التوترات ، وان يبقى هادئاً . كان النبي ﷺ رجلاً شعبياً محنكاً ، خبيراً بمعاشرة الناس ، وافتتانهم به ، واقناع الافراد والجماعات الآتين من أصقاع مختلفة ، وقد تعود على تحمل الناس الثقلاء وبلا تكليف ، ومن جهة أخرى لم يكن يمكن لأحد ان يفرض نفسه كسلطة في المجتمع العربي اذا لم تكن لديه مهارة ذاتية مثالية ؛ ذلك هو ما قُيِّم به الرسول ، منذ شبابه الباكر ، وبأن يعرف كحكيم ، وكحكم في حالة النزاع . كيف يمكن اذن أن تفسر اغاظته التي هي على هذه الدرجة من الضآلة لتنطلق بمثل هذه السرعة ؛ وان يتخذ قراراًعلى هذه الدرجة من الشدة بالنسبة للحجاب الذي عمل على تفجير الفراغ الاسلامي إلى اثنين ؟ .

إن السياق التاريخي يمكن ان يساعدنا لنبدأ باجلاء هذا الغموض . ان السنة الخامسة للهجرة (٦٢٧) لم تكن كغيرها . انها السنة الأكثر شؤماً بالنسبة للنبي ﷺ بصفته رئيساً عسكرياً لمذهب توحيدي حاول ان يفرض نفسه في جزيرة عربية متعددة الآلهه ، سعيدة بأن تبقى كذلك .

لنعد إلى الفترة التي قرر فيها محمد ﷺ المضطهد في قومه ، أن يترك مكة ليجد مأوى لدى قبائل المدينة . ان مدينة مقيمين ، ومزارعين ، كالمدينة ما كان لها ان تتخذ قراراً بقبول التجاء ثائر إليها كان قد أعلن الحرب على كل الجزيرة العربية وآلهتها، وعلى مكة المخيفة والعنيفة ، اذا لم تكن أملت بهذا ان تكسب شيئاً .

يجب رؤية الاشياء بطريقة واقعية : فمحمد ﷺ ونجاح مشروعه لم يكن مضموناً إلا باهتمام ثابت بالواقع وتوتراته . لقد علم محمد ﷺ بهربه من مكة بعد ان حاول استثمار المعبد ، أنه لا يمكنه الانتصار إلا بالعودة إليها ، وكان المكيون يعرفون هذا جيداً وقد قرروا ان يمنعوه . إن أي واحد اذن كان يستقبل النبي ﷺ ويوفر له الملجأ كان يتعرض للحرب مع إحدى القبائل العربية الأكثر قوة ومع حلفائها ، قبيلة قريش ، قبيلة النبي ﷺ نفسها المهددة بمصالحها .

كان النبي ﷺ يعلم ان سكان المدينةكانوا ينتظرون منه أن يفرض نفسه

بالقوة العسكرية في المنطقة . وكان تحقيق انتصارات على ساح المعركة ضرورياً لكي يعطي المهاجرين ثقة بذاتهم ويثبتوا للمدنيين بأنهم اختاروا الأفضل بإيثارهم الاسلام. لقد كانت السنة الخامسة سنة كساد وهزال وركود منذ هزيمة أحد الحربية التي حصلت في السنة الثالثة للهجرة/٦٢٥/ . انها سنة على جانب كبير من الصعوبة وان كتائب محمد ﷺ كانت تذوقت النصر بعد معركة بدر التي حصلت في السنة الثانية للهجرة (٦٢٤) .

في بدر كان عدد المسلمين صغيراً لدرجة المهزلة بمقارنته بعدد خصومهم ، فلم يكونوا سوى ٣٧٤ رجلاً ، ٨٣ من المهاجرين المكيين ، أما الأنصار وحلفاؤهم من المدينيين فكانوا ٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج[٥] . لقد كان المكيون قد أتوا بعدد من «تسعمائة وخمسين بينهم مائة من الخيالة والآخرين يمتطون الجمال»[٦] .

عندما بدأت المعركة حول تلة بدر «دخل النبي ﷺ مع أبي بكر الخيمة ، وسجد مجدداً ، وبكى ودعا ، وقال : يا إلهي ، اذا هلك هذا الجيش الذي معي فلن يكون هنالك شخص بعدي يعبدك ؛ وسيترك كل المؤمنين الدين الحق ورفع يديه نحو السماء داعياً . . . »[٧] وعاجل الله عندئذ بمد الجيش بخمسة آلاف من الملائكة الغير مرئيين[٨] ولكن النبي ﷺ لم يكتف بالدعاء بل استعمل كل التكتيك العسكري : استخبارات عن العدو ، دراسة أرضية (بصورة خاصة احتلال احد الآبار الاستراتيجية) ، مفاوضات بالأساس مع رجال الجيش، وكلام نبوة وتقنيات أخرى كي يجعل من حفنة من الأفراد بداية جيش مقاتل ، «ودعا النبي ﷺ لوقت طويل ، ثم خرج من الخيمة وانتظم المسلمون في وضع القتال ، ويمر النبي ﷺ أمام الصفوف حاملاً في يده عصا ، وهو يرتب هذه الصفوف . وخرج واحد من الأنصار يدعى سويد بن غزية ، قليلاً عن الصف فضربه النبي ﷺ بعصاه على بطنه . . . »[٩] . كانت خسائر الأعداء قاسية : فقد قتل ١٤ مسلماً مقابل ٧٢ من جانب المكيين ، كما كان هنالك عدد كبير من الأسرى[١٠] . وكما ان غالبية هؤلاء من الارستقراطية ، كان ذووهم مجبرين على فدائهم (تجنباً لوقوعهم في الرق) مقابل غرامات شكلت غنيمة خيالية .

ولكن واحسرتاه ! فإن المعجزة معجزة بدر لم تتكرر عندما استمر المسلمون يواجهون تجمعاً ضخماً من المكيين في معركة أحد ، بعد ثلاثة عشر شهراً . لقد كانت أحد كارثة : فالمكيون كان عددهم ثلاثة آلاف رجل جميعهم مسلحين ، قسم منهم من سكان مكة ، وقسم من البدو الرحل . كان منهم مئتان من الخيالة ، والآخرون على الجمال . وكان منهم سبعمائة من المسلحين بالدروع . لقد زحفوا باتجاه المدينة ، وبوصولهم إلى أبواب المدينة ، توقفوا بالقرب من جبل ارتفاعه[11] ميل . وأسرع النبي ﷺ لملاقاتهم كي يتحاشى استيلاءهم على المدينة . فخرج على رأس ألف رجل ، ولم يكن عندهم سوى فرس واحد زيادة عن فرس النبي . وعندما يعرف ان عدد الدروع والخيول هي التي كانت تعين الطرف الغالب ، فلابد ان يعرف ان نصر المكيين كان سريعاً : «رأى الرسول وهو واقف ، المسلمين يهربون نحو المدينة . فصعد مع صحابته على تلة من الرمل ونادى : يا أصحابي ، انني هنا ، أنا نبي الله لكن هؤلاء لم يرجعوا ، مع سماعهم صوته . . »[12] . إن وصف هذه الموقعة ، وبخاصة أسباب الفشل ، وعلى الأخص واقعة ان بعض المسلمين كانوا اكثر اهتماماً بالغنيمة من الحرب المقدسة ، يشغل صفحات وصفحات من كتب التاريخ[13] . وكانت العودة إلى المدينة أقسى شيء : كانت خسائر المؤمنين ارتفعت إلى /٧٠/ رجلاً . «لم يكن يوجد في المدينة بيت واحد يخلو من الحداد ، وعندما عاد الرسول ﷺ إلى المدينة ، سمع النواح إلى باب الجامع . وطلب معرفة السبب ، فقيل له : انهن نساء الانصار يندبن قتلى أحد . . . »[14] .

إن السنة الخامسة من الهجرة ـ سنة نزول الحجاب ـ كانت اذن سنة مفجعة بصورة خاصة . ومنذ أحد لم يتوقف الرسول ﷺ عن تنظيم المغازي ليحافظ على الرغبة في النصر متقدة وكذلك على ذكرى بدر ، ولم يتوصل إلى تحقيق حلمه : وهو قهر المكيين ليصبح مصدقاً حربياً في نظر صحابته ، من المدينيين وعند الاقتضاء من كل العرب الآخرين . والأكثر سوءاً هو ان هؤلاء ، تحت قيادة المكيين ، جاؤوا تلك السنة لمحاصرة المدينة ذاتها . إن آية الحجاب تشكل جزءاً من السورة ٣٣ سورة الاحزاب ، التي تعني حرفياً تحالف القبائل والزمر . وتصف

هذه السورة . بين ما تصفه حصار المدينة ، التي عرفت باسم معركة الخندق ، لأن محمداً أمر بحفر خندق حول المدينة لحمايتها .

كان الاسلام يعيش فترة أزمة حربية فادحة لم تنته الا في ربيع السنة /٨/هـ (٦٣٠) عندما حقق النبي ﷺ نصراً حاسماً على المكيين ، فتح مكة في بدايته ثم كل الجزيرة العربية . ان العارض الذي حصل اثناء ليلة عرس النبي ﷺ وزينب يجب اعادة وضعه في سياقه ، فترة من الشكوك والفشل الحربي يتآكل اخلاق سكان المدينة .

إن الآية ٥٣ من السورة ٣٣ المذكورة اعلاه اعتبرت من قبل مؤسسي العلم الديني كأساس لمؤسسة الحجاب . وتكرس كتب الفقه دائماً فصلاً عن «نزول الحجاب» . وليست هذه الآية الوحيدة المتعلقة بهذا الحدث ، لكنها كانت الأولى من سلسلة أوصلت ، في الواقع إلى شرخ في الحيز الاسلامي . وتكشف لنا اعادة قراءة متأنية لهذه الآية ان اهتمام الله في هذه الآية هو نوع من الأمر لمعرفة السلوك وابلاغ الصحابة بطرق التهذيب التي كانت تنقصهم ، كواقعة الدخول إلى منزل بدون طلب الاذن .

خارج قواعد التهذيب ، فإن القسم الأخير من الآية عالج موضوعاً آخر ، قرار الله بأن يمنع على المسلمين **التزوج بنساء النبي** ﷺ **بعد موته** ، اذ تنتهي آية **الحجاب هكذا « . . . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ان ذلكم عند الله عظيماً».**

إن الطبري الذي يفسر القرآن جملة فجملة يتعرض لهذا الجزء الأخير بشكل منفصل . كان النبي قد **هُدّد من قبل أشخاص كانوا أكدوا** في حياته برغبتهم بالتزوج من نسائه بعد موته ، **فكيف يكون ذلك ممكناً ؟** . . إن أزمة المجتمع يجب ان تكون عميقة ليحصل مثل هذا العدوان **الشفهي فعلاً** ، والخطر رمزياً ، بما **لا يمكن النطق به** . فخارج الحدث حول عدم تهذيب المدعويين يوم الزواج من زينب ، يبدو ان الحجاب جاء ليضع النظام في وضع مشوش جداً ، وحركية معقدة . ولسوف يكون الحجاب حلاً لشبكة من المنازعات والتوترات . وعلى ذلك فإن قراءة سريعة للنص القرآني ، كما هو الحال في قراءة شهادة أنس التي أعاد

الطبري ذكرها ، تعطي الانطباع المعاكس ، ومن هنا كانت المسألة المنهجية التالية : هل نحن ملزمون لتحديد استقصائنا لهذه الآية بليلة عرس زينب ، وعلى العكس من ذلك ألا يخولنا الاسلام البحث عن الأسباب الأخرى ، في السياق التاريخي مثلاً؟؟ حسبما يبدو من التقليد العلمي المتبع من الفقهاء انه يشجعنا للاندفاع في الاستقصاء بأكثر ما يمكن . فالسيوطي ، على سبيل المثال ، مؤلف كتاب أسباب النزول يقول لنا : «يستحيل فهم آية دون فهم قصتها والأسباب التي أدت إلى الوحي بها»(١٥) ويضيف : «غالباً ما يقدم المفسرون عدة أسباب لآية واحدة وليس هناك مانع من تعدد الأسباب»(١٦) . وبالرغم من كثرة تفسيرات وشروح النص القرآني ، لا يمكن ان نجد في أي مكان (حسب معلوماتي) تركيباً يحاول ان يدمج مجمل الأسباب المقررة لآية معينة في تسلسل تاريخي من جهة وتحليل الأثر النفسي والاجتماعي الحاسم من جهة أخرى . إن السيوطي الذي شاء مطابقة الأسباب والوحي ، مثل الطبري الذي يريد تفسير الآية ويدعي اذن انه عمل عملاً أكثر شمولاً ، ويكتفي الأثنان باجراء تاريخ للأحداث . إن كتاب السيوطي حول أسباب النزول هو ملخص ببضع مئات من الصفحات لتفسير الطبري الضخم الذي يضم ثلاثين مجلداً ، لأن هذا الأخير يضيف إلى تطابق ظروف الوحي التحليل اللغوي لكل عبارة والخلافات والمناقشات بين الخبراء المتعلقة بالتفسير ، وأخيراً استنتاج الطبري ذاته . ولكن بدون تأليف وتركيب : وعليه ، وبدون هذا التركيب ، لا يمكن في أيامنا فهم كل تعقيدات الحدث ، ومن هنا كانت الضرورة لتفحص كل المعلومات التي بحوزتنا ، وبخاصة البعد اللغوي لعبارة الحجاب .

إن مفهوم الحجاب ثلاثي الأبعاد ، وهذه الابعاد الثلاثة غالباً ما تتقاطع من جديد . فالبعد الأول هو بعد رؤي Visuelle : الحجب عن النظر . فجذر الفعل حجب يعني أخفى ، خبأ . والبعد الثاني هو فراغي Spacial ، فصل ، عين حداً ، أقام عتبة ، وأخيراً البعد الثالث والأخير وهو أخلاقي يعود لميدان المحرم . . . والمقصود بهذا المستوى ليس الاصناف الملموسة التي توجد في واقع الحواس ، مثل الرؤي أو الحيزي (الفراغي) ، وإنما بحقيقة مجردة ، من نظام

فكري . إن الحيز الخبيء أو المستور بحجاب هو حيِّز محرم . ولا يساعدنا معجم لسان العرب كثيراً . انه يشرح لنا ان كلمة حجب تعني «اخفى بستر» . والستر في اللغة العربية، يعني حرفياً ستار Rideau .؛ واذن، فإنه العملية التي تقسم الحيز (الفضاء) إلى اثنين وتخفى قسماً عن النظر ويضيف هذا المعجم ان بعض مرادفات فعل حجب ، تكونت انطلاقاً من كلمات ستر وحجاب . فستر وحجب تعنى كلاهما «اخفى» . ومن لديه صبر في متابعة مؤلف هذا المعجم عبر الأمثلة التي يتعهد ذكرها بعناية ، يصل تدريجياً لتوضيح واغناء هذا المفهوم الأساسي .

إن المؤتمن على مفتاح الكعبة ، أو القبر المقدس ، يمتلك امتياز الحجابة : ويوضح «ان بني قصي كانوا يقولون ان حجابة الكعبة لهم ، أي انهم كانوا مسؤولين عن حمايتها ، وان مفاتيحها كانت لديهم . . .» . ويذكر أيضاً : «حجاب الأمير» : فالرجل الأكثر قوة من الجماعة الاسلامية كان يلجا إلى الحجاب كي يتوارى عن نظرات من يحيط به ، وهو تقليد سوف يثير فضيحة ، مطبقة في أيامنا على حكام الدول العربية! فالحجاب هو بين الناس الستار الذي كان الخلفاء والملوك يجلسون خلفه ليتهربوا من نظرات بطاناتهم ، كما تقول لنا الموسوعة الاسلامية : «وهذه العادة المجهولة على ما يبدو من سكان الحجاز ، قيض لها ان تدخل في الاسلام ، وعلى الأرجح تحت تأثير الحضارة الساسانية ، ومن قبل الأمويين (. . .) فمعاوية وورثته كانوا منفصلين عن بطانتهم بستارة وستر ، ولكنها المتعلقة بذات العادة التي بتطورها لتصبح مؤسساتية[١٧] . هذه العادة التي تبدو لنا اليوم انها غريبة ، قد طبقت منذ أيام معاوية ، الخليفة الخامس[١٨] . وقد ادخلت بعدئذ إلى الأندلس وأفريقيا الشمالية ، ومصر ، حيث ان الأسرة الفاطمية (٩٠٩ ـ ١١٧١) اقامتها لدرجة انها جعلت منها احتفالاً حقيقياً . ومع الفاطميين ، أكتسب البعد المقدس للخليفة أهمية خاصة : «الخليفة المعتبر كأقنوم للعقل الفعال للعالم ، كان تقريباً موضوع عبادة . وفي هذا الواقع كان من المتوجب ان يتوارى في المقياس الممكن عن نظر المؤمنين به ، الذين كانوا هكذا محميين من أشعاع وجهه . . .»[١٩] .

لا يمكن استكشاف معنى الكلمة حجاب بدون ذكر استعمالها بالمعنى الذي

اخذ به الصوفيون المسلمون ، والذي لا يرى فيه شيء من معنى الستار . فعند هؤلاء يتم التوصل إلى الآفاق اللانهائية بتأملات روحية على المسلم ان يدعيها حيث يكون الحجاب أساساً ظاهرة سلبية ، تشويش ، وعدم جدارة «فيسمى محجوب في الصوفية ذلك الذي حد وعيه بالشهوة الحسية أو العقلية ، والذي لا يتبصر بالنتيجة النور الالهي في القلب . وبحسب هذه العبارة ، انه الانسان المغطى بحجاب أو ستار وليس الهاً»[20] فالمحجوب في اللغة الصوفية هو الذي اعيق في حقيقته الأولى ، الغير قادر على أن يعبر عن حالة مرتفعة من الوعي . ان الشخص الغير مكرس بالنظام الصوفي لا يعلم كيف يستكشف قدراته الغير مسموعة من أدراكات متعددة ، يمكن استخلاصها بقوة الجذب والانتظام ، من المادي ، وتوجيهها نحو الأعلى ، نحو السماء ، نحو الالهي .

ان البحث الدائم عن الله ، كان عند الحلاج ، هو الذي يسمح بتجاوز الحجاب الذي يحجب وعينا : «تضل المخلوقات في ليل مظلم فيك (الله) ، باحثة ، ولا تتبصر سوى الأوهام»[21] . وعند الصوفيين فان مقابل الحجاب هو الكشف[22] .

وعليه ، فإنه يلاحظ ان مفهوم الحجاب هو أحد تلك المفاهيم (الأساسية) مفاتيح الحضارة الإسلامية ، كمفهوم الخطيئة في الحضارة المسيحية ، أو مفهوم الاعتماد Crédit في الحضارة الأمريكية الرأسمالية . وان تخفيض تمثيل هذا المفهوم بقطعة من القماش فرضها الرجال على النساء كي تحتجب عندما تمشي في الشارع ، هو بالفعل افقار لهذه العبارة ، إن لم نقل إنه تفريغ لها من معناها ، وبخاصة عندما يعرف ان الحجاب وحسب الأية القرآنية وتفسير الطبري المعطى أعلاه ، انه «نزل» من السماء ليفصل الحيِّز بين الرجلين .

لنقل ان الحجاب يمكن ان يعبر عن بعد مكاني ، يميز عتبة بين منطقتين متميزتين ، وانه يمكن ان يحجب ، ما هو قوة أو سلطة : كما في حالة حجاب الأمير ولكن الذي يستطيع أن يعبر عن المفهوم المعاكس ، كالحجاب الصوفي الذي يمنع المعرفة بالإله ، وفي هذه الحالة الأخيرة ، فإن الفرد المنتقص هو المحجب . وعليه اذا كان الحجاب الذي يفصلك عن الأمير هو ما يجب احترامه ، فإن الذي

يفصلك عن الإله يجب أن يدمر .

ومن أجل إتمام الموضوع يجب إبراز الاستعمال التشريحي لكلمة حجاب التي تعني حداً ووقاية في الوقت ذاته . فالحاجب ، كما يقول لسان العرب ، هو المثال الذي يمزج بين هذين المفهومين: «الحاجبان هما العظمان الواقعان على العين مع عضلاتهما واهدابهما (. . .) وقد سميا هكذا لأنهما يحميان العين من أشعة الشمس» فكل ما يفصل ويحمي فهو حجاب ، ومن هنا استعماله الشائع في التشريح ، فالحجاب الحاجز هو حجاب جوف (المعدة) ، وغشاء البكارة هو حجاب العذرية .

واذا تركنا الميدان اللغوي وعدنا لنص القرآن ، نكتشف حجاباً سلبياً مماثلاً للفكرة الصوفية ، مفهوم عتبة يمنعنا من رؤية الله : «نجد في القرآن والذي يستعمله سبع مرات فقط ، معلومات على جانب كبير من الأهمية حول المعنى الفعلي المجازي لهذه العبارة ، الحجاب . والتي توضح لنا أيضاً في مقياس ما ، شيئاً حول تطوره . وبصورة عامة ، انها تدل على الفصل : انه الحجاب أو الستار الذي تسترت به مريم بعيداً عن أهلها (السورة ١٩ ، آية ١٧) «فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا» ؛ انه أيضاً الاعتزال (الخدر فيما بعد) المفروض بدئياً على زوجات النبي ﷺ وحدهن (سورة ٣٣ آية ٥٣ وسورة ٣٣ آية ٣٢) ، بناء على نصيحة عمر على ما يبدو . وفي يوم الحساب الأخير ، يفصل الناجون عن المدانين بحجاب «وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون» (السورة ٧ آية ٤٦) وهو جدار ، كما يقول المفسرون للقرآن . «وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء انه عليّ حكيم» ، (٤٢ -٥١) وهو معين كما هو واضح ليحمي المختار من اشعاع الوجه الإلهي . . . .»[٢٣] .

هذا المعنى الأخير للحجاب ، الذي سيخفي الإله عن البشر ، يأخذ في القرآن ، احياناً ، قيمة سلبية للغاية ، عندما يصف عجز بعض الأفراد عن تبصر الإله وذلك هو حال الآية ٥ من السورة ٤١ ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه

وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ ، والتي يعبر الحجاب المتعلق بها ، حسب الطبري ، عن الصعوبات التي كانت لدى القرشيين المشركين ، أن يفهموا الرسالة التوحيدية لمحمد ﷺ .

في هذه الآية ، يكون الحجاب انقاصاً للعقل البشري ، ومن جهة اخرى فإن عنوان السورة (فصلت) هو بكل وضوح «الآيات التي عرضت بوضوح»[٢٤] . فالحجاب هنا مرادف للأكنة التي هي غلاف كالغلاف الذي يحمي القوس»[٢٥] . ويضيف الطبري ان معنى الحجاب في هذه الآية «يعني فارقاً معارضاً ومخاصماً للدين»[٢٦] لأن القرشيين الذين قاوموا النبي ﷺ مارسوا عبادة الأصنام ، في حين ان النبي ﷺ دعاهم ليعبدوا الإله الواحد : «فالحجاب الذي يدعي المشركون كانه موجود بينهم وبين رسول الله هو في الواقع خياراتهم الخصامية في مادة دينية»[٢٧] . فمن هو أعمى بالحجاب ، هو المشرك قبل كل شيء . وبالنسبة لبعض علماء اللاهوت ، فإن الحجاب هو قصاص ، وذلك هو حال النيسابوري : «فبين الدعوات التي تلاها السري السقطي يمكن ملاحظة التالية : يا إلهي إذا رأيت تعذيبي بشيء ما ، فلا تعذبني بمذلة الحجاب»[٢٨] . غريب اذن ان يراعى الطريق الحديث لهذا المفهوم الذي كان له منذ البدء ، في القرآن ، مفهوم على هذه الدرجة من السلبية : علامة حتى لما هو ملعون ، ومحروم من امتياز وفضائل روحية يمكن ان يصل إليها المسلم ، انه حتى يومنا ، مطلوب كرمز للهوية الاسلامية ، وكهبة سماوية للمرأة المسلمة .

إن العديد من إعادة طبعات الكتب المتعلقة بالمرأة ، والاسلام والحجاب هي مشروعات من قبل «السلطات الدينية المعنية بمستقبل الاسلام» وتوضح في مقدماتها أن هدفها هو أن «تنقذ المجتمع الاسلامي من الخطر الذي يمثله التغيير» . وفي فترة من الزمن حيث يعيش فيها الكتاب العربي أزمته العنيفة التي تعود في قسم كبير منها الى الحرب اللبنانية (تقليدياً ، لبنان هو المركز الكبير لصناعة الكتاب) وحيث تتسلق الاسعار بشكل يدعو الى الدوار ، من شهر الى آخر ، فإنه مما يثير الدهشة أن نرى هذه الاعادة للطبعات وهي على درجة كبيرة من الاتقان وذات تجليد مذهب ، ويجري تداولها باسعار متدنية بشكل يدعو الى العجب : فبـ ٥٠

درهم (حوالي ٤٠ فرنك فرنسي) يمكن شراء الطبعة الجديدة١٩٨١ من (أحكام النساء لأبن الجوزي[٢٩] ، الكاتب الرجعي جداًمن القرن الثالث عشر (مات في سنة ٥٨٩هـ) . ومع ابن الجوزي ، فإن البعد المتعلق بالحجاب يصل لمرحلة الهذيان . وبمجرد قراءة بسيطة لبعض عناوين الفصول تعطى نغمة هذا الكتاب ؛ فالفصل ٢٦ «تحذير النساء من الخروج» أو الفصل ٢٧ «خير أعمال النساء ما تختار للمنزل» والفصل ٣١ «الحجة في اثبات ان الأفضل للمرأة ان لا ترى الرجال» . وبداهة ان مساهمة النساء بصلاة الجماعة يعتبر عملاً فاضحاً . ويذكر لنا حديثاً غريباً حيث كانت نساء النبيﷺ يتسللن إلى الجامع في ظلمة الليل، ويصلين فيه جماعة وهن مغطيات بأحجبتهن ويتركن المكان مسرعات قبل الفجر[٣٠].

أما بالنسبة لحق القيام بالحج إلى مكة، فيبدأ ابن الجوزي هذا الفصل باعطاء الشروط المطلوبة كي تستطيع امرأة بالشروع بمثل هذا السفر: فيجب ان تكون حرة (المرأة العبدة محرومة اذن آلياً من الحج)؛ وان تكون قد تجاوزت سن البلوغ، وان تكون عاقلة، ويجب أيضاً ان تكون غنية (لتقدم لنفسها نفقات السفر) وأخيراً أن تكون مصحوبة برجل محرم عليها بشريعة التحريم. ويضيف إلى ذلك، أنه على كل حال لا يمكن للمرأة أن تسافر اكثر من ثلاثة أيام إن لم تكن مصحوبة بوالدها، زوجها، أو ابنها[٣١] . وان ابن الجوزي الناطق باسم المذهب ، الممثل لأكثر المذاهب رجعية ، والأكثر تنسكاً ، والأكثر صلابة لمدارس الاسلام الأربعة السنية ، يعرض ، الختانات الطبيعية التي فرضت على النساء كالقطع ، التي لا يرى لها شيء موجود مع الاسلام والتي كانت مجهولة تماماً في جزيرة محمد العربية في القرن السابع . الفصل ٦ بعنوان (ختان النساء) والفصل ٦٧ يعطي للزوج «الحق بضرب زوجته»[٣٢].

إن اعادة طباعة كتاب ابن الجوزي ليس عملاً معزولاً ، إنه يشكل جزءاً من حملة حقيقية وسيطه . فمنذ ١٩٨٣ ، نشرت أول طبعة ، اتت من القاهرة هذه المرة ، الفتاوى المتعلقة بالنساء للشيخ ابن تيمية (مؤلف من القرن الخامس عشر) مستخرجة من كتابه الأثري ، مجموع الفتاوى الكبرى ؛ (الفتاوى هي آراء سلطات دينية كبرى ، حول موضوع معين) . وقد استخلص الذين سهروا على

هذه الطبعة كل ما يتعلق بالنساء من ٣٥ مجلد من الفتاوى ، قرارات ذات طبيعة قانونية ـ دينية متعلقة بمشاكل من كل الأنواع ، وهدفها هو «أن تساعدنا نحن النساء المسلمات ، بأن تضع تحت تصرفنا كل الفتاوي في مجلد واحد يسهل تداوله ، لكي يتيح لنا «محاربة أولئك الذين يتكلمون في أيامنا عن حرية النساء»[٣٤] . ان الرغبة باخفاء الجسد النسوي يبدو في هذا المجلد كوسواس : فصل يفصل «ضرورة حجب الوجه واليدين اثناء الصلاة» (ص ٣٣) . ويتساءل آخر : «هل تبطل صلاة المرأة عندما يكشف شعرها ؟» (ص ٣٥) . ويعرض فصل آخر مأزقاً اقتصادياً يبدو انه عذب شيخنا : «امرأة تملك ١٠٠٠ درهم هل يجب ان تستعملها لتقوم بالحج إلى مكة أو ان تشتري جهازا لابنتها» ؟ (ص ٨٩٠) . وبداهة ، انه يوجد في فصل /٤٠/ «ختان المرأة» الذي لا يربطه شيء بالاسلام ولا بالثقافة العربية .

لكن الذروة حول سوق «الكتاب النسوي» تبقى الطبعة الجديدة (١٩٨٠) من كتاب فقيه من أصل هندي ، محمد صديق حسن خان الكنوجي «حسن الاسوة ، الذي تجاوز كل الآخرين في مادة معاداة النساء[٣٥] فمقابل ٦٠ درهم (٥٠ فرنكاً فرنسياً تقريباً) ، يمكن قراءة كل شيء حول «الشهوة الجنسية الكبرى عند النساء» (ص ٥٢) ، واقعة ان المرأة «غير مكلفة بالذهاب للجامع أو الصلاة العامة يوم الجمعة ، (ص ٣٤٥) ويمكن ان يقرأ فيه بالتفصيل «كل ما قرر لنا حول عدم أهلية المرأة لأن تفكر ، وعدم أهليتها في كل ما يتعلق بالديانة» (ص ٣٦٥) وهو يعلمنا ، بداهة ، كل ما يعرفه حول «عدد النساء بين سكان جهنم» (ص ٣٣١) .

هذه الطفرة في التاريخ ، لمؤسسة الحجاب لتفسيرها عبر القرون التي تنبثق ، وتنفتح في نهاية القرن العشرين وتشد السكان المسلمين الباحثين عن هوية عبر انتاج توجيهي يشدد على الحجز وحبس المرأة كأساس للاسلام ، هذا المنظور المزدوج ، يجب الحفاظ عليه في الذهنية اذا ما أريد فهم ما كان يعنيه الحجاب في السنة الخامسة للهجرة ، وماذا كانت المراهنات التي مثلته وما هي المراهنات عليه اليوم .

إن «نزول الحجاب» منذ البداية تضمن معنى مزدوجا، مستوى ملموساً : الرسول أسدل ستاراً ملموساً بينه وبين أنس بن مالك، ومستوى مجرداً : نزول الآية من السماء على الأرض من الله إلى النبي ﷺ الذي تلاها . إن الرسول يسدل ستاراً واقياً بينه وبين الرجل الوحيد الأجنبي في منزله الذي وجد معه أيضاً بعد ذهاب المدعويين ، ويتلو في الوقت ذات الآية التي اوحيت له مباشرة من الله .

في احدى نصوص البخاري ، يقول لنا أنس : «عندما ذهب القوم ، رجع الرسول الى غرفة الزواج ودخل إليها وأرخى ستراً . ويضيف تفصيلات هامة : «وكنت معه دائماً في الغرفة عندما شرع يتلو : يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلى طعام الا إذا أذن لكم . . . الخ»[٣٦] ففي وصف البخاري هذا كما في وصف الطبري ، كان الحجاب قطع للحيّز (المكان) بين منطقتين ، عازلاً الرجلين الحاضرين ، النبي ﷺ من جهة والشاهد أنس الذي وصف لنا الحدث من جهة أخرى . وهذا البعد للحجاب في تحديده للمناطق تأكد كثيراً في بعض النصوص حيث قيل ان «النبي ﷺ ضرب ستراً بينه وبين أنس ونزل الحجاب . . .»[٣٧] والستار يرجع للستار المادي ، والحجاب للآية القرآنية .

وتجدر الاشارة إلى انه في الترجمات الفرنسية المستعملة في فرنسا للقرآن ، لدينيس ماسون وريجي بلاشير ، ردت مفهوم الحجاب إلى مفهوم الغطاء ، عنصر ثيابي ، والبعد المكاني ، الذي هو الستر ، بقي غير معبر عنه بوضوح .

ان حدثاً صغيراً نسبياً ـ تأخر المدعويين أكثر مما يجب بعد وليمة العرس ـ يثير جواباً على هذه الدرجة من الأهمية مثل قطع الحيِّز الاسلامي بين العالمين ، عالم الداخل (المنزل) والعالم الخارجي (الحيز العام) . لا يمكن الا ان نتعجب من عدم التناسب بين الحدث والجواب على الحدث ، فالنبي ﷺ كان عليه ان يطلب بكل بساطة من الناس أن لا يدخلوا عليه بدون إذن . لقد كان محبوباً ومحترماً كي يطاع . وان الآية ، وفق التفسير الذي اعطي لها ، تترك مجالاً للافتراض ان الناس عاودوا الدخول عند النبي دون أقل رسمية . ويترك كذلك لنا أن نفترض أن بيت النبي ﷺ كان معداً لاستقبال الجماعة ، وانه اكثر من هذا كله لم يكن فيه أي فصل بين حياته الخاصة وحياته العامة ، بين الحيِّز الخاص (مقر النبي ﷺ ومنزل نسائه)

والحيِّز العام (الجامع مكان الصلاة، ومكان اجتماع الجماعة)

ويستخلص اذن فيما لو أعدنا أخذ كل العناصر المثبتة في هذا الفصل، انه أثناء فترة مضطربة من بداية الاسلام، يعلن النبي آية على هذه الدرجة من الاستثناء والمحددة بالنسبة للدين الاسلامي الذي يدخل انقطاعاً في المكان الذي يمكن فهمه كفصل للعام عن الخاص أو بين الدنيوي عن المقدس، لكنه سوف يتوجه نحو عزل للجنسين : هذاالحجاب الذي نزل من السماء، سوف يغطي المرأة، ليفصلها عن الرجل، عن النبي، واذن عن الله . واذا توضح هذا المظهر للأشياء مرة واحدة - في حقيقته اللغوية، الاجتماعية، التاريخية والدينية، للحجاب - أفلا يتوجب التساؤل كيف كان النبي ﷺ يعيش، وأية علاقات كان يتعامل بها مع صحابته، ونسائه ومواطنيه وفي أية امكنة - هو الذي شعر بالضرورة لأن يحمي نفسه كضرورة مطلقة وجذرية ؟؟ .

مراجع وهوامش الفصل -٥-

١ ـ كل المؤمنين متفقون حول السنة ، ولكن الشهر يختلف حسب الأطوال . فابن سعد في كتابه الطبقات جزء ٨ ص ١٤٤ ، والطبري في تاريخه ، جزء ٣ ص ٤٢ في ترجمته الفرنسية الجاري انطلاقاً من النص الفارسي ، يعطي السنة ذاتها ، ولكن شهراً مختلف عن تاريخ آية الحجاب ص ٢٢١ وما يليها . وابن هشام في السيرة جزء ٣ ص ٢٣٧ .

٢ ـ القرآن سورة ٣٣ آية ٥٣ ترجمة المؤلف ، ريجي بلاشير ودينيز ماسون . تدع في الظل البعد المكاني للحجاب التي تعبر عنه الكلمة ستر ، باستعماله كلمة الحجاب (Voile) لتترجم في آن واحد الحجاب والستر .

٣ ـ الطبري ، التفسير ـ جزء ٢٢ ص ٢٦ .

٤ ـ الطبري التاريخ ص ٣٣٧ .

٥ ـ السيرة جزء ١١ ص ٣٦٤ .

٦ ـ محمد خاتم الأنبياء ، مرجع سابق ص ١٥٠ .

٧ ـ ذات المرجع ص ١٥٦ .

٨ ـ السيرة جزء ٢ ص ٢٨٥ .

٩ ـ محمد خاتم الانبياء مرجع سابق ص ١٥٤ .

١٠ ـ السيرة جزء ٢ ص ٣٧٠ .

١١ ـ محمد خاتم الأنبياء ص ١٩١ .

١٢ ـ ذات المرجع .

١٣ ـ السيرة جزء ٣ ص ٦٤ ـ ١١٢ .

١٤ ـ محمد خاتم الأنبياء ص ٢٠٩ .

١٥ ـ السيوطي لباب العقول في أسباب النزول دار الأحياء بيروت ص ١٣ .

١٦ ـ ذات المرجع ص ١٥ .

١٧ ـ الموسوعة الاسلامية ، مادة الحجاب .

١٨ ـ لا يوجد خليفة خامس في الأصولية الاسلامية . لا يوجد سوى أربعة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومعاوية الذي أخذ السلطة مستعملاً طريقة اعتبرت غير مقبولة ، وتحكيماً مغشوشاً يشكل اذن انقطاعاً في سلسلة نقل السلطة . فلم استعمل اذن الرقم /٥/ سوى في هدف تعليلي لمساعدة القارىء ليتوضح من الأمر .

١٩ ـ الموسوعة الاسلامية ذات المرجع .

٢٠ ـ تيتوس بوركاروت ، مدخل للمذاهب الباطنية في الاسلام باريز ١٩٦٩ .

٢١ ـ ديوان الحلاج ـ ترجمة ماسينيون ـ باريز ١٩٨١ .

٢٢ ـ الدرقاوي ، رسائل معلم صوفي ـ ترجمة تيتوس بوركاروت ، ارشيه ميلان ١٩٧٨ .

٢٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية .

٢٤ ـ القرآن ترجمة ماسون ص ٦٣١ .

٢٥ ـ التفسير جزء ٢٤ ص ٩١ .

٢٦ ـ ذات المرجع . ٢٧ ـ ذات المرجع .

٢٨ ـ النيسابوري تفسير غريب القرآن ورغيب الفرقان ، مضاف لتفسير القرآن للطبري في طبعة دار المعرفة جزء ٢٢ ص ١٨ بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٢ .

٢٩ ـ كتاب أحكام النساء ـ المكتبة العصرية بيروت ١٩٨٠ .

٣٠ ـ ٣٣ ـ ذات المرجع الصفحات ٢٠٠ /٢٥١/١٤٢/٣٣٠ .

٣٤ ـ ابن تيمية فتاوى النساء ـ مكتبة العرفان . القاهرة أول طبعة ١٩٨٣ ص ٥ توفي الكاتب في ٧٢٨ للهجرة .

٣٥ ـ محمد صديق حسن خان،حسن الأسوة بما ثبت من الله في النسوة ، مؤسسة الرسالة بيروت ، طبعة ١٩٨١ ـ مات الكاتب في ١٣٠٧ هجرية أي في نهاية القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين .

٣٦ ـ الصحيح مرجع سابق جزء٣ ص٣٥٤ الآية التي ذكرت هي الآية ٥٣ من السورة ٣٣ .

٣٧ ـ الصحيح ـ ذات المرجع جزء ٣ ص ٢٥٤ ابن سعد ، جزء ٨ ص ١٧٣ .

-٦-

النبي والمكان

اعطى محمد ﷺ ، طيلة فترة بعثته النبوية ، سواء أكان في مكة (٦١٠ - ٦٢٢) أو في المدينة (٦٢٢ - ٦٣٢) ، مكاناً رئيسياً للنساء في حياته العامة . كان عمره أربعين سنة (بعض النصوص تقول ٤٣) عندما تلقى أول الوحي في سنة ٦١٠ ، وكان ذلك بين ذراعي زوجته الأولى خديجة ، حيث استكن ليجد الطمأنينة والسند . أوصاف كروب النبي طيلة الكشوف الأولى من الوحي ، كثيرة ، وكلها تصفه لنا في هذه العلاقة الزوجية مستمداً الطاقة التي كان بحاجة لها . فلم يكن قد كشف مخاوفه عند رجل.«نزل محمد ﷺ من جبل حراء... كان مضطربا ورجع إلى بيته (...) واضطرب كل جسده بعدئذ من الخوف والرعب مما كان أوحى به جبريل (...) . لقد أحنى رأسه وقال « ملوني ، زملوني» وغطته خديجة بعباءة ونام.. كانت خديجة قد قرأت الكتب القديمة وتعرف تاريخ الأنبياء كما كانت على علم باسم جبريل(...)...»[1]

لقد كان أحد أسباب كرب النبي ﷺ انه لم يرد أن يماثل لا بالشعراء ولا بالمستنيرين[2]. فهؤلاء كانوا مأخوذين بقوى غير مرئية تملي عليهم كلمات لم

تراقبها ، وكانت تنبع من جهات أخرى . وهذه كانت ترعبه .وكان لخديجة ابن عم هو ورقة بن نوفل الذي كان معتنقاً النصرانية . . وقد أكد لها أنه ليس بشاعر ولا مجنون ، وانما نبي دين جديد . وستكون خديجة أول اتباعه . وقال محمد يوماً اثناء أحد النقاشات الطويلة التي كانت تحصل بينه وبين خديجة عقب كل مرة كان يظهر له جبريل : «من سوف أدعو؟ من سيؤمن بي؟» وهتفت خديجة وهي سعيدة بأن تراه وهو لم يعد يرتاب ببعثته الجديدة : «تستطيع أن تدعوني أنا على الأقل ، وقبل كل الناس الآخرين ، لأنني أؤمن بك»! وكان النبي ﷺ سعيداً جداً، وقدم الصيغة إلى خديجة التي آمنت به»[٣] . . والصيغة المقصودة كانت الشهادة : «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وهكذا بدأ الاسلام في حضن امرأة حبيبة . بعد موت خديجة ، سوف يبحث الرسول عن الحب قرب نساء أخر. سوف يتزوج ويصبح متعدد الزوجات وسيعرف مصير الأزواج المتعددي الزوجات ، مخاصمات، غيرة ، ولكن لذة أيضاً بأن يكون مركز اهتمام نساء جميلات وذكيات . عشية الهجرة الى المدينة سوف يتزوج امرأة مسنة مثله /سودة/ . كان الحب الكبير في حياته عائشة ، ابنة أحد صحابته واصدقائه ، أبو بكر . خطبها قبل سفره للمدينة . ومعها عرف أنواع المرح والضحك من امرأة ـ طفلة ، وهو يشاهد تفتح عقلها وذكائها : حيوية ومصادمة . ويقدر باعجاب ذاكرتها العجيبة بالنسبة للتاريخ والأنساب التي تعلمتها من والدها أبي بكر . مع ذلك تزوج من نساء أخر ،وكانت غيورة حتى انها نظمت مؤامرات ضد بعضهن . ضد مارية القبطية مثلاً، الجميلة وذات الشعر الأجعد التي ولدت من النبي ابنه ابراهيم . كان النبي ﷺ أول زوج لعائشة ، ولم يكن ذلك هو الحال بالنسبة للنساء الأخريات ، أم سلمة مثلاً ، ويمكن توضيح موقف الزوجة الشابة برمته . بعض هذه الزيجات كان لازماً لاعتبارات حربية : تقوية شبكة التحالفات مع القبائل التي اعتنقت الاسلام مجدداً أو مصاهرتها لكن ، في بعضها الأخر ، كان الجمال الطبيعي للنساء هو العامل المسيطر : فقد تزوج جويرية بنت الحارث بعد فشل قبيلتها اثناء غزوة بني المصطلق طيلة السنة ٦ من الهجرة . وكانت زينب بنت جحش (التي أوحيَ بالحجاب أثناء

عرسها) ابنة عمه ، فلم يكن هنالك اذن أية مصلحة حربية مبررة لهذا القران(٤)
اضافة إلى ذلك ، كانت متزوجة من ابنه بالتبني ، زيد عندما أحبها النبي ﷺ

ويصف الطبري ، كغيره من المؤرخين ، هذه الصعقة التاريخية للحب ، ويقول لنا ان زينب كانت «اجمل نساء عصرها» وفي أحد الأيام كان النبي ذاهباً للقاء زيد في بيته ، وبوضع يده على الباب وفتحه ، شاهد وسط المنزل ، زينب جالسة عارية الرأس ، وسألها وهو يحول وجهه عنها ، اين زيد ، فأجابته لقد خرج»(٥) . لقد كان غالباً مايشاهد زينب فيما سلف. لكن تلك المشاهدة حصلت مفاجأة وهي في حياتها الخاصة ،«والتي كان لها عليه تأثير كبير . ولم يرد رؤيتها مرة ثانية . واغلق عينيه وقال : سبحان الله الكبير ، سبحان الله الذي يقلب الأفئدة والعيون وذهب»(٦) وكانت تلك صعقة الحب ، ولسوف يتزوجها بعد طلاقها .

عند موت النبي ﷺ كان له تسعة نساء ، ولكنه لم يتعاط بعلاقات جنسية الا مع النساء اللواتي كان الجاذب الطبيعي بدئياً هو الأقوى ، فهل كان ذلك نتيجة الصدفة ؟ وكن أيضاً اللواتي يوجد معهن تواصل عقلي وقوي أيضاً كعائشة وام سلمة . لم تفصله الحرب عن نسائه ، سواء أكان ذلك اثناء المغازي المحتدمة أو في فترات الحصار الطويلة : فكان يعمل على أن ترافقه منهن واحدة أو اثنتان ، تستخلصا بالقرعة لتجنب الغيرة والضغائن .

كان محمد ﷺ رجل دولة يعلن أهمية التأثير العاطفي والجنسي . ولم تكن نساؤه على ساح المعركة مجرد متفرجات ولكنهن يشاطرنه في اهتماماته الاستراتيجية . كان يسمع نصائحهن ، التي تكون حاسمة أحياناً في مفاوضاته الشائكة. ففي أثناءمعاهدة الحديبية مع المكيين في سنة٦٢٨م، التي عارضها الصحابة كمعاهدة مذلة على المستوى الحربي ، كان النبي ﷺ حائراً فانفتح للمرأة التي كانت تصاحبه : «بعد ابرام المعاهدة ، أعطى الرسول ﷺ أمره للمسلمين ليحلقوا رؤوسهم ويعودوا لحالة الاحرام ، فلم يرد أحد منهم على دعوته التي كررها ثلاث مرات . فاغتم النبي ﷺ ، ودخل خيمة زوجته ام سلمة التي كان قد اخذها معه . فسألته هذه عن سبب حزنه ، وقال لها :

- امرتهم ثلاث مرات ليحلقوا رؤوسهم ، فلم يلب أحد .

وأجابته أم سلمة : لا تحزن يارسول الله ، احلق رأسك انت وأكمل التضحية . ونهض النبي ﷺ ، وذبح الجمل المعَّين للأضحية التي يجب ان يقدمها بذاته وحلق رأسه . وما أن رآه اصحابه يفعل هكذا حتى أخذ بعضهم يقول للبعض الآخر عن ذلك ، وعمل كل واحد على حلق رأسه وقدم الأضاحي[٧] . »

لم تكن الجماعة الاسلامية الأولى بقيادة رجل مخنث أو بارد العاطفة الجنسية المنصرف بالكلية للبحث عن السلطة . لقد قاد بذاته خمسة وعشرين غزوة ، وتقول بعض النصوص «سبعة وعشرين» وإضافة إلى ذلك: « نفذ ، بجماعات من الجيش ثلاثة وخمسين غزوة دون أن يشارك فيها شخصياً»[٨] . هذه النشاطات الحربية والدينية ، لم توصله ، مع ذلك ، في أية فترة لأن ينقص من حياته الخاصة أو يبعدها إلى المستوى الثانوي . منازعاته الزواجية كانت تشغله احياناً لحد انه كان يحادث بشأنها أصحابه الأكثر قرباً ، وبخاصة حمواه القريبان ، أبو بكر وعمر .

وكان واضحا أن هذا الاصرار من جانبه على وضع حياته الخاصة والعامة على نفس المستوى من المساواة سيستخدم ضدَّه من قبل مدينة أصبحت في فترة أزمة السنوات الرابعة والخامسة والسادسة معادية ومؤذية مثل مكة قبلا .

فعبر هذه النساء . كان المنافقون والمراءون المدينيون الذين رأوا فيه تهديداً لمصالحهم ولأمن المدينة ، يمضون لمهاجمته ولزعزعته في عواطفه . ففي مدينة حزينة بهزيمة أحد (السنة ٣) . والمتضررة بالحصار لمعركة الخندق ، تتخذ المقاومة السياسية الوجه القبيح من أولئك الذين سوف يسميهم محمد ﷺ المنافقين ، لأنهم لم يهاجموه مباشرة الا فيما ندر ، ولكنهم سوف يفضلون استعمال النمائم والافتراءات والاشاعات وطرائق أخرى أكثر مخاتلة ومكراً : ملاحقة زوجات النبي ﷺ ومضايقتهن في الشوارع ، مثلاً . انها طرائق ، كان النبي ﷺ المثبط بمصاعبه الحربية ، بدون دفاع أمامها ، انها طرائق أوصلت إلى التشكيك بالنساء وقبول الحجاب الشهير .

في سنة ٦٢٢ عندما وصل النبي إلى المدينة ، نزل بدئياً عند عائلة انصارية ، عند شخص يسمى كلثوم بن هدم . ولكنه نظم مفاوضاته مع أعيان

المدينة في بيت عزب لا أهل له سعد بن خيثمة «عندما ترك بيت كلثوم كي يذهب للالتقاء بالناس ، كما يقول ابن هشام ، جلس للناس في بيت سعد لأن سعد كان عزبا لا أهل له ، لقد كان المضيف الذي نزل عنده العزاب من بين المهاجرين»(٩) . ومنذ أول مفاوضاته تأكدت فوارق العادات ، المتعلقة بصورة خاصة بالعلاقات بين الرجال والنساء ، بين المهاجرين (المكيين) والانصار (المدنيين) الذين كان الفصل الجنسي بالنسبة إليهم ، على ما يبدو ، مسألة صغيرة . . وهكذا ، فإن علياً بن أبي طالب الذي التحق بالنبي ﷺ بعد ثلاثة أيام ، سكن عند امرأة «لم يكن لها زوج»(١٠) .

هذه التفاصيل الصغيرة ، سوف تمضي مع الأيام لتأخذ مقترحات غير منتظرة وتصبح أحد موضوعات للتوتر والنزاع الأكثر اهتماماً بين الجماعتين . وكان هنالك غيرها اذ ان النبي ﷺ الملتمس جداً من قبل الأنصار وجد نفسه أمام مشكلة حرجة : كيف يختار محلاً لاقامته وهو يعالج الحساسيات والخصومات السياسية ؟؟ كل الأنصار يرغبون في استقبال النبي ﷺ إلا ان هذا علم انه بقبول هذا العرض أو ذاك ، يعني فتح الباب لتفسيرات عن التفضيل والتحالف المتميز ، الأمر الذي كان يريد ، قطعاً ، تجنبه . وكان هنالك رد فعل سوف يوجَد على الأغلب فيما بعد ، مبني على الاهتمام بالمساواة الضيقة : فقد طلب إلى الناس ان لا يقطعوا الطريق أمام ناقته . وانه سوف يختار محلاً لإقامته حيث تتوقف : «خلوا سبيلها حيث تريد (. . .) أنها مأمورة»(١١) وكرر هذا القول لكل من حاول اعتراض طريق الناقة ليدعوه إلى الاقامة عنده .

وتوقفت الناقة حيث بركت أمام مربد (موضع يجفف فيه التمر) لغلامين يتيمين من بني النجار . واحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله ووضعه في بيته ونزل عليه رسول الله . وسأل عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء هو لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه ، فاتخذه مسجداً(١٢) . وكافأ الملاك مقابل ملكيتهم وبدأ العمل(١٣) ولم يكتف بدعوة المسلمين إلى العمل ومراقبتهم بل إنه شارك بذاته(١٤) وربما كان الكسل راجحاً على الحماس إذ أن أحد المؤمنين ارتجل بيتاً من الشعر قال فيه :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

كما ارتجز علي بن أبي طالب :

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيه قائماً وقاعداً

ومن يرى عن الغبار حائداً[١٥]

وعندما انتهت الأعمال ، كان يوجد ، على المكان القديم ، ليس جامعاً فحسب وانما تسعة غرف للاستعمال الشخصي للنبي ﷺ . خمسة انشئت من الجريد (اغصان النخيل) مغطاة بالتراب ، والاربعة الأخرى من الحجر[١٦] . وقد شغلت نساء النبي ﷺ ، تقريباً منذ وصولهن ، الغرف التي يسميها المؤرخون تارة ، بيوت ، وتارة حجرات وهي عبارة جماعية للدلالة على المجموع الذي هو المنازل . ويوضح ابن سعد : «أن منازل نساء النبي كانت توجد على الجانب الأيسر من الجامع ، عندما تنهض من أجل الصلاة مواجهاً للإمام الواقف على المنبر»[١٧] وهنالك إشارة مكانية جرت بالنسبة إلى منزل عائشة ، الذي رتبه النبي ﷺ بحيث يكون له ممر مباشر إلى الجامع : «بنى النبي ﷺ منزل عائشة ، وفتح باباً في جدار الجامع الذي كان يواجه باب منزل عائشة . كان يستعمل هذا البيت عندما كان يمضي للصلاة»[١٨] . لقد كان القرب بين الجامع وغرفة عائشة بحيث أن الرسول كان أحياناً من أجل اتمام طقس الوضوء ، يجعل عائشة تغسل له شعره دون ان تكون به حاجة لترك الجامع . وكما يقول ابن سعد «كان يكفي الرسول ان ينحني ليخرج رأسه من الجامع لعتبة باب عائشة ، التي كانت تغسل له رأسه هكذا ، في حين تكون هي في حالة الطمث»[١٩] . وقد ذكر ابن سعد هذه التفاصيل ليوضح المسالة التي سبقت معالجتها بشأن القذارة .

وفي الواقع ، كان توزيع المكان بحيث ان الجامع ، وحجرات النبي ﷺ واقاربه المقربين وصحابته تشكل مجموعاً متكاملاً . وعندما كان يصل مهاجر جديد ، كان يحاول بدئياً ان يجد له حجرة في جوار الجامع ؛ الذي غدا ليس قطباً دينياً وسياسياً ، فحسب ، وانما أيضاً علامة مكانية تعدل التطلعات «السكنية» للجماعة ، سواء أكانوا مهاجرين أم انصار . ولم تجد فاطمة ابنة النبي ﷺ وزوجها

علي الذي وصل متأخراً قليلاً، سوى مسكن بعيد عن الجامع . وكان النبي ﷺ يرغب في ان يكون مسكنها اكثر قرباً . لقد كانت من بين بناته تلك التي يعزها أكثر ، واحد أسباب ذلك كونها ضمنت ذرية للنبي ﷺ ، ولكونها متزوجةً من ابن عمه علي الهاشمي مثله ، ولدت منه ولدين هما الحسن والحسين . وحتى يومنا هذا يعيد كل الشرفاء أي الذين يدعون تحدرهم من النبي ﷺ رسم خط نسبهم إلى الحسن أو الحسين ، وذلك هو الحال ، مثلاً ، لملك الأردن الحالي ، وعند الشيعة فإن فاطمة هي بدون معارضة أول سيدة في الاسلام ونموذج النسوية الأكثر باعثاً على التقوى. وفي حياة النبي ، كان حنانها بالنسبة له عظيماً جداً بحيث أقيمت علاقات متوترة جداً بينها وبين عائشة التي كانت تعيش كخصم لها . وحيث انه لم يكن لعائشة أولاد ، كان النبي يعامل الحسن والحسين كولديه الخاصين. ومن هنا كان اصرار فاطمة لتسكن باقرب ما يمكن من والدها . ولكن ، ومع ان محمداً رغب بهذا بكل ما يمكن من قوة لتجد مسكناً بالقرب منه ، فإنه تردد في التدخل لدى المالك النعمان بن حارثة الذي «كان عنده منازل قرب الجامع وحوله»[٢٠] . والحت فاطمة ، وأصرت على النبي ﷺ ؛ فقال لها : «لقد ترك لنا منزلاً ، بحيث انني محرج في أن أطلب إليه واحداً آخر»[٢١] وأخيراً ، باع المالك المنزل وانتقل بذاته مختاراً ، بتبادل بين المسكنين»[٢٢] .

واقعياً ، لماذا هذه التفاصيل ؟ والجواب ان ذلك من أجل الاشارة للسياق الاجتماعي - المكاني الذي عاشه الإسلام الأول . إن علاقة زعيم سياسي مع المحيطين به تتغير دائماً اذا كان هذا يسكن قصراً بعيداً عن الناس ، على جبل أو في واد لايمكن الوصول إليه الا بصعوبة، وعما اذا اختار محل إقامة بين المواطنين ولكن في ذات الشروط وارتبط بهم بعلاقات جوار ومبادلات ثابتة . هذا القرب بين الحاكم والمحكومين يجب ان يساعدنا لفهم حساسية النبي ﷺ المفرطة حيال الاشاعة أو الضجة ، ولما يقال ، إلى ديناميكية المدينة . كان يغرق، مستنزفاً في كثافة الاحتكاكات في المكان الذي كان يعالجه ، وفي اهتمامات الناس اليومية ، ولكنه في الوقت نفسه استطاع التقاط التوترات وادراك الضغوطات والمقاومات بقوة.

بين أصحابه الذين كانوا في الوقت ذاته جيرانه ، لم يكن يوجد سوى «المسلمين الممتازين الطيبين» ولكنه يوجد أيضاً سكان مسلمون بلسانهم فقط ، وهم الذي اطلق عليهم تاريخياً اسم المنافقين كما ذكرنا .

لقد كان يفترض ان يكون السبعون شخصاً من الأعيان الذين ابرموا اتفاقاً مع النبي ﷺ ، ودعوه لكي يقيم بينهم في المدينة ، ممثلين لكل السكان . لكن هؤلاء السكان كانوا يقدرون بـ ١٠,٠٠٠ ساكن إن لم يكن أكثر[٢٣] . وكما هو معلوم فالأمر يتعلق اكثر بمفاوضات حماية قبلية ، ولذا فإن على التمثيل أن يثير الكثير من الزبائنية، أكثر مما يثير من لعبة ديموقراطية . الأمر الذي يوضح وجود المنافقين ، الأفراد الذين حسب الظاهر لا يشعرون بارتباطهم بيمين بيعة رؤسائهم للنبيﷺ. كانت المدينة تجمعا قديماً تقع على بعد٣٠٠كم إلى الشمال الغربي من مكة . وكان سكانها مستقرين ، يتعاطون الزراعة واستثمار الاشجار المثمرة . من جهة أخرى ، لم تكن مدينة بمقدار ما هي تجمع وتراكم ضيع «كفور» ومزارع وحصون مشتة على اتساع واحة خصبة تمتد على مسافة ثلاثين من الكيلومترات من الأراضي الصخرية الغير مستثمرة . . .»[٢٤] . بين أولئك الذين لم يدعوا النبي ﷺ ولم يعطوا موافقتهم على هذا القرار، كانت الجماعة اليهودية في المدينة ، «المدينة كانت تشغلها قبيلتان : الأوس والخزرج ، وكانت هذه الأخيرة الأكثر عدداً . قرى منطقة المدينة ، مثل خيبر ، قريظة ، وادي كيورة والينبع ، كانت مسكونة من قبل اليهود أو العرب المنحدرين من بني اسرائيل ، من اولئك الذين كانوا قد أتوا من سورية والقدس (. . .) ، وكان الأوس والخزرج يريدون احتلال هذه القرى ، لكنهم لم ينجحوا ، اذ كان لدى اليهود حصون قوية، كبيرة وصلبة . . .»[٢٥] .

كانت المدينة إذن ، مكاناً تتناقض فيه مصالح جماعات مختلفة ، حيث كانت النزاعات الرئيسية بين اليهود وغير اليهود تتدعم بالنزاعات بين القبائل وسط كل عشيرة ، وبدقة بنزاعات وسط القبيلة ذاتها ، وبين العائلات المختلفة حسب مصالح كل منها .

ويمكن ان نشير إلى ان عبارة المنافقين تعني تلك الفئة من سكان المدينة الذين لم يكونوا من اليهود وكانوا يوالون رؤساء عشائر الخزرج والأوس ولكنهم لم يقبلوا مطلقاً إقامة زعيم غريب في المدينة ، أولئك الذين تتغير قناعاتهم حسب الظروف ، أي حسب المصالح السياسية والاقتصادية . فالمنافقون تطبق إذن على الانتهازيين من كل جانب ، وعلى المعارضين السياسيين للنبي ﷺ ، كما على كل الذين انتقدوه على مستوى حياته الخاصة . ولا يمكن معرفة التأثير الذي كان لهؤلاء المنافقين على دينامية المدينة اذا لم يؤخذ بالحسبان ثقل الرأي العام ، والشائعة الناتجة في آن واحد عن كثافة مساكن جماعة المهاجرين والعلاقات الكثيفة التي تعاملت بها هذه الجماعة فيما بين أفرادها . ويقرر ابن سعد ان النعمان بن الحارث ، الذي كان يمتلك أراضي قرب الجامع ، كان يتركها «للنبي في كل مرة كان يصل فيها قريب له إلى المدينة» لدرجة انه في آخر الأمر «انتقلت كل بيوت ابن الحارث لأيدي النبي ﷺ وزوجاته»(٢٦) . وقد ساهم في تدعيم كثافة العلاقات وتدخل الشائعات وتداولها أيضاً ، أن الزيجات المتداخلة بين العائلات المهاجرة ، كانت ممارسة شائعة .

فبمقدار ما تكون حياة جماعة اكثر كثافة ، بمقدار ما تكون أقل عظمة المبادرةالفردية : فالذين عاشوا في مدن قديمة أو في دوارات (قرى صغيرة) يعرفون ذلك جيداً غير ان هذه الكثافة ، التي يحلم بها سكان الضواحي المجهولة من العواصم الأوربية الكبرى ، لها منغصاتها : فثقل الرقابة الاجتماعية ، ثقل ينيخ بكلكله على الفرد ويمنعه أن يكون مغايراً ، وان يجدد ، وان يغير الأشياء حوله . وذلك هو ثقل هذه الرقابة الاجتماعية ، التي ترجع إلى حيوية المبادلات في هذه الجماعة الاسلاميةالأولى ، التي سوف تعمل كقوة مقاومة غير مسموع بها للتغيير . للحكم على هذا القرب المكاني بشكل أفضل في الأزمنة الأولى للاسلام ، تحسن قراءة ابن سعد الذي ينقل إلينا ، انه مع انتصار الاسلام ، فرض مشروع تكبير الجامع نفسه ، والشيء الأكثر وضوحاً كان دمج منازل النساء : «رأيت منازل نساء النبي ﷺ في الفترة التي كان فيها عمر بن عبد العزيز أمير المدينة في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥) . وكان قد قرر هدمها لكي يوسع المجلس» .

ويضيف هنا الكاتب ، ان سكان المدينة بكوا عندما اتخذ هذا القرار لأنهم كانوا يريدون «أن لا ينفق الناس كثيراً من المال في البناء ، وانهم كانوا يرون بعيونهم بذاتهم أين كان يعيش النبي ﷺ ، هذا الرجل الذي كانت بيديه مفاتيح العالم»(٢٧) . كانت هذه المنازل متواضعة جداً ، وكانت تزعج بقدمها وتلفها ، الخلفاء الذين كانوا آنئذ يعيشون بعد بضع عشرات من السنين ، في القصور . وقد أعطى اولئك الخلفاء من سلالة العباسيين الايضاح ذي الدلالة اليوم «لقصور الف ليلة وليلة» . فأي فارق بين هذه الأبهة ومسكن محمد المتواضع ؟ ؛ ويروي شاهد شاب : «كنت يافعاً ، عندما دخلت منزل النبي ﷺ ، وكنت استطيع بكل سهولة ان المس السقف بيدي»(٢٨) .

إن بساطة المساكن ، واختلاطها وقربها من الجامع يضفي هذا البعد الديمقراطي على الجماعة الاسلامية الذي يجعلنا جميعاً نحلم بفقدان المسافة بين الرئيس و«شعبه» . وبفضل هذه السهولة في التعامل وسط المهاجرين ووجود الجامع ، يتم دمج الأنصار وكل معتنقي الاسلام الجدد بسرعة . ومن أجل تسريع التماثل بين المدينيين والمكيين رجع محمد ﷺ إلى طقوس تنشىء صلات من المواخاة : فلكل انصاري عين «أخاً» مهاجراً ، هو مسؤول بنوع ما عنه «لمساعدته في أن يتغلب على مشاعر الاغتراب»(٢٩) .

لكن في أي مكان يوجد حب ، اعجاب وحماس ، يوجد أيضاً رقابة ، مقاومة وكبح . إن هذه الصميمية للمكان بين الجامع والمقر والحب الشبه عشائري الذي احاطت به عائلات المهاجرين النبي ﷺ سوف يقدم له القوة ، والحماس اللذين كان بحاجة إليهما ، لكنها غالباً ما أنشات أيضاً كابحاً ومقاومة لمشاريعه ، وبخاصة الأكثر ثورية فيها . فكل تغيير حتى القليل جداً ، في البنى الشهوانية يشكل ، كما هو معلوم اليوم ، تهديداً على أعماق الكائن ويحرك المقاومة والعنف . وعليه ، فإن الطريقة البسيطة للعيش عند النبي ﷺ كانت بالنسبة للمحيطين به تهديداً ، لأنه لم يكن يؤمن اطلاقاً بفضائل التقسيم بين مكان خاص ـ مكان عام ، ولا يمكن للتفرق الذكوري ان يوجد وان يتدعم إلا اذا كانت القسمة بين عام وخاص قد دعمت واعتبرت كشبه مقدسة .

فلفهم هذا الاسلام اليومي ، الاسلام كممارسة تضم المكان وتضفي الصفة المسرحية عبره على رغباته بآفاق لا نهائية ، حيث كانت الهندسة المعمارية قد تميعت ، سوف نختار الفترة الحرجة لمرض وموت محمد ﷺ . لقد بدأ محمد ﷺ يستشعر الأمراض بنهاية شهر صفر ، الشهر الثاني من سنة ٦٣٣ م وقد أجبر لأن يلزم الفراش أول يوم من الشهر الثالث ومات في اليوم ١٣ من الشهر ذاته(٣٠) . وقد كان يشغله اثناء مرضه مستقبل الاسلام ، كذلك شعائر الصلاة التي ترمز له : ففي البدء كان يوجه الصلاة من منزل عائشة حيث كان طريح الفراش ، لأنه كان يطل مباشرة على الجامع . وعندما شعر بنفسه بضعف أكثر ، طلب إلى أبي بكر ان يؤم الصلاة مكانه . وفي «أحد الأيام» كان النبي ﷺ قد شعر بتحسن قليل ، فجاء ليحضر صلاة الفجر، وكان أبو بكر واقفاً أمام الناس ، يؤمهم . وعندما دخل النبي ﷺ إلى الجامع ، مستنداً على علي (. . .) حصلت حركة في الجماعة . فانكفأ أبو بكر دون ان يقطع الصلاة . ولكن النبي ﷺ ابقاه في مكانه في المحراب ، واضعاً يده على ظهره ، وصلى إلى يمينه . ولعدم قدرته على البقاء واقفاً ، جلس وأكمل الصلاة هكذا ، وبعدئذ ، عاد النبي ﷺ إلى منزله ونام»(٣١) . ويوم وفاته ، ظهر على عتبة منزل عائشة : «كان الناس في صباح يوم على أهبة اقامة الصلاة عندما رفع النبي ﷺ الستر ، وفتح الباب وبقي واقفاً على عتبة بيت عائشة . كان المسلمون سعداء جداً لرؤيته ، وعلى درجة من الهياج بحضوره ، بحيث كادت الصلاة تنقلب إلى فوضى . فأشار إليهم بأن يكملوا وابتسم لرؤية انتظامهم اثناء الصلاة»(٣٢) .

اثناء مرضه ، كان الأنصار والمهاجرون يدخلون لرؤيته في منزل عائشة ، وكان هنالك ذهاب وإياب مستمر من النساء والرجال، اقارب واباعد من عائلة النبي ﷺ(٣٣) . كان السماع بين المكانين ممكنا بحيث ان محمداً يستطيع المتابعة بالسمع ، لكل ما يجري في الجامع ، كما يرويه المشهد التالي : عندما تحقق انه لم تعد لديه طاقة لأن يؤم شعائر الصلاة ، أمر بأن يدعى أبو بكر لاجرائها . فأخذت عائشة المبادهة في أن لا تطيعه، وهي تعتقد ان اختياره غير ملائم، مع انه يتعلق بأبيها وان مثل هذه الاشارة كانت بنوع ما تعيينه كخليفة سياسي ،

فاستدعت عائشة صحابياً آخر ، عمر . وفسرت ذلك فيما بعد بأنها تخوفت في الفترة التي سيدعى فيها أبو بكر ليأخذ خلافة النبيﷺ . لقد كانت تفضل ان يبقى جانباً ، لأنها كانت تعلم ان نزعات ستتولد . . وعندما سمع النبيﷺ ، الذي كان لايزال على فراشة في المنزل ، صوت عمر يتردد في الجامع ، صرخ ، مندهشا ومعارضاً: «ولكن أين‌هوأبو بكر اذن»؟[٣٤] فاعلمته عائشة بأنها عملت على استدعاء عمر بديلا عن أبيها لأن صوت هذا ضعيف وعلى درجة من الحساسية وأنه يبكي عندما يقرأ القرآن ، وان لعمر ، كما أوضحت صوت يسمع من بعيد[٣٥] . وفي هذه المناسبة اغتاظ النبي ﷺ لأنه لم يطاع ، وأشار قاصداً عائشة ، انكن صواحب يوسف . انه رد فعل غير مؤذ إلى الحد المشوب بالرقة والتودد ، والذي سوف يضطلع ، خلال قرون من التراكمات المعادية للنساء ، بقسوة لعنة حقيقية ضد الجنس النسوي .

إن استاذي في الأدب لم يتوقف عن تكرارها لنا في المعهد ، في كل مرة كانت واحدة منا تشوه قصيدة أو تخلط بين التواريخ[٣٦] .

وباختصار يمكن القول إن الفن المعماري النبوي كان حيزاً ، فيه المسافة بين الحياة العامة والخاصة معدومة ، وبحيث لم تكن الاعتاب الطبيعية تشكل عقبات الا فيما ندر . كانت هندسة معمارية ينفتح فيها المنزل على مستوى واحد وبسهولة على الجامع وبذلك سوف يلعب دوراً حاسماً في حياة النساء وعلاقتهن بالسياسة . هذا التنافذ (التأثير المتبادل) المكاني بين المنزل والجامع سوف تكون له نتيجتان لم يعتقد الاسلام الحديث الرسمي انه من المستحسن الأخذ بهما أو أنه لم يواجههما . الأولى هي أن هذه المعادلة بين الخاص والعام سوف تشجع الصياغة من قبل النساء لمطاليب سياسية ، وبخاصة معارضة الامتيازات الذكورية المتعلقة بالأرث وحق حمل السلاح . والثانية المتفرعة عن الأولى هي ان الحجاب الذي قدم لنا انه صادر عن الارادة النبويةقد فرض من قبل عمر بن الخطاب ، الناطق باسم المقاومة الذكورية لمطاليب النساء . ولم يُسلِّم محمد ﷺ بذلك الا في أوج كارثة عسكرية ، وفي فترة كانت الأزمات الاقتصادية والسياسية تمزق المدينة من كل جانب وتدعها ، هشة وغير يقينية لصراعات الاحزاب الضارية .

مراجع وهوامش الفصل. ٦.

١ ـ الطبري . . محمد ص ٦٧ ، التاريخ ، جزء ٢ ص ٩٠٢ . والسيرة لابن هشام جزء ١ ص ٢٤٩ .
٢ ـ المرجع السابق ـ التاريخ جزء ٢ ص ٢٠٧ .
٣ ـ محمد خاتم الانبياء مرجع سابق ص ٦٨ .
٤ ـ واط يدعم الرأي المعاكس في كتابه محمد ﷺ ص ١٣٩ . وحجته تبدو لي أقل اقناعاً من المصادر الاسلامية الأخرى التي تتكلم عن (اغتياظ محمد ﷺ) بالنسبة لزينب .
٥ ـ محمد ﷺ . مرجع سابق ص ٢٢٢ .
٦ ـ ذات المرجع .
٧ ـ تاريخ الطبري جزء ٣ ص ٨٠ ومحمد . . . ص ٢٤٨ .
٨ ـ السيرة ـ جزء ٢ ص ١٣٧ .
٩ ـ ذات المرجع .
١٠ ـ ذات المرجع .
١١ ـ ذات المرجع جزء ٢ ص ١٤٠ .
١٢ ـ ذات المرجع جزء ٢ .
١٣ ـ ذات المرجع وفي احدى نصوص الطبري ان الأرض كانت مشغولة بحقل تمر ومقبرة .
١٤ ـ السيرة جزء ٢ ص ١٤١ .
١٥ ـ ذات المرجع .
١٦ ـ الطبقات لابن سعد جزء ٨ ص ١٦٧ والسيرة جزء ٢ ص ١٤٣ ، ملاحظة من فريق التحقيق (تقديم نقد نص قديم أي عمل اكمال لبحوث معمقة) .
١٧ ـ الطبقات جزء ٨ ـ ١١٦ . المنبر هو القطعة الخشبية التي يقف عليها الامام وسط الجامع بهدف رؤيته عندما يدير الصلاة.
١٨ ـ ذات المرجع .
١٩ ـ ٢٢ ـ ذات المرجع .

-٧-
محمد (ص) والنساء

رب المسلمين هو الرب الوحيد الأحد الذي يُفتح بيته المقدس ، الجامع على غرفة للسكن، الوحيد الذي اختار نبياً لا يكتم اهتماماته كرجل وانما على العكس ، يبحث صراحة عن الجنسية وشهوة الجنس .

لقد استطاع الأئمة بداهة ، الافادة من الجهل الذي قدسنا به النصوص كي ينسجوا حجابا - ستارة على الجامع - المنزل - ، ولكن كل واحد يعلم ان «الذكرى تنفع المؤمنين»[1] وانه يكفي ان يعكف على صفحات الكتب المصفرة من تاريخنا لتظهر واضحة دعابات عائشة ، ونزق وحِدّة وتساؤلات أم سلمة ، وحضور مطاليبهن السياسية في مدينة مسلمة عجيبة : مدينة مفتوحة على السماء .

نساء النبي : الفترة السعيدة

عندما طلب النبي يد ام سلمة ، في السنة الرابعة للهجرة /٦٢٦/ ، كانت عائشة غيورة جداً لأنها سمعت الحديث عن جمالها . وعندما رأتها لأول مرة ، تقطع

نفسها: «إنها أكثر جمالاً مما كنت اعتقد!»[1] ويصف لنا مؤلف كتاب الاصابة، أم سلمة « امرأة ذات جمال بارع ، تمتلك حجة مفحمة وسنطقاً فورياً وقدرة خارقة على التوصل لصياغة آراء صحيحة»[2] .

إن أم سلمة ، كمحمد ﷺ كانت تنتمي للطبقة الاريستوقراطية من قريش ، وكان لها أربعة أطفال من زواجها الأول عندما طلب النبي ﷺ يدها . فبدأت بالرفض ، اذ قالت له : «سبق أن كان لي أولاد ، وانني أغار كثيراً»[3] . فقال لها النبي ﷺ لإقناعها : انه سيدعو لها الله كي يخلصها من عقدة الغيرة وأما فيما يتعلق بالسن ، فانه كان على كل حال أكبر منها سناً[4] بكثير . وكان ابن أم سلمة هو الذي زوجها من النبي ﷺ . وعندما لزمت منزل النبي ﷺ كانت ترضع آخر ابنائها ، زينب ، وقد اعتاد النبي ﷺ ان يحييها عندما يدخل بيتها قائلا : «أين زناب»؟ تصغير تحبب لزينب[5] .

إن أم سلمة كانت تنتمي إلى ذلك الصنف من النساء من اريستوقراطية قريش حيث كان الجمال الطبيعي والذكاء يضمنان مع السن نفوذاً خاصاً على المحيط وامتيازاً بأن يؤخذ رأيها عندما يتعلق الأمر بقضايا حيوية للجماعة[7] . إن الزوجة الأولى خديجة كانت أكثر تمثيلاً لتلك النسوة الكاملات المليئات بالمبادهات ، في الحياة العامة ، كما في الحياة الخاصة . وكان لخديجة زوجان قبل النبي ﷺ ، وكانت قد ولدت من كل منهما ولداً . وهي التي طلبت يد النبي ﷺ لأنها وجدت فيه مزايا تحققت أكثر من عند أي رجل آخر . لقد كانت كما رأينا وارثة ، أيضاً ، لثروة كبرى تركها لها زوجها السابق ، ثروة عملت على استثمارها في عمليات تجارية دولية . وتشير السنة إلى فارق السن عند الزواج بين محمد ﷺ وخديجة (٢٥ سنة لمحمد ﷺ) و (٤٠ سنة لخديجة) ، الا انه يمكن التساؤل عما اذا كان عمر خديجة أقل من ذلك في الحقيقة طالما أنها سوف تلد له في ١٥ سنة من الحياة المشتركة ، سبعة أولاد .

النموذج المثالي للمرأة الدينامية ، المؤثرة ، الملأى بالمبادهات على المستوى الخاص كما في الحياة العامة ، تبقى هند بنت عتبة ، التي لعبت دوراً مركزياً في مقاومة المكيين لمحمد ﷺ ، لدرجة ان النبي ﷺ عندما فتح مكة ، كان اسمها

على القائمة بين المكيين القلائل الذين كان النبي ﷺ طلب اعدامهم . لم يغفر لها هذا مطلقاً طقوسها في الاغاني والرقص على ساح معركة أحد بين جيش المسلمين : «كانت النساء العائدات من الجبل تقف خلف الجيش ، وتضرب على الدفوف لتشجيع الجنود وكانت هند أمرأة أبي سفيان تقفز وترقص وهي ترتجز وتغني بهذه الأبيات من الشعر :

نحن بنات طارق (نجمة الصباح)
نمشي على النمارق
الدر في المخانق
والمسك في المفارق
ان تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق
عرس المولى طالق[٨] .

إن أحد ادوار المرأة العربية في الجاهلية اثناء الحرب ، كان تشجيع الرجال على القتال حتى النهاية ، وان لا يستسلموا ، ومواجهة الموت على ساح المعركة . وهذا الدور هو بكل وضوح ، لا يوجد فيه ما يشاهد في صورة المرأة المواسية ، المرأة التي تضمد الجراح وتحمل الغوث للموتى . ان هنداً وغناءها القتالي يعبران على العكس من ذلك عن صورة نسوية كمحرضة على الموت . من جهة أخرى ، فقد وصفت هند من قبل المؤرخين المسلمين آكلة للحوم البشر اذ افترضوا أنها أكلت كبد حمزة عم النبي ﷺ التي كانت تكرهه بصورة خاصة[٩] .

ويبرر ابن حجر ، من جهة أخرى ، افراطات هند على ساح معركة أحد ، مذكراً بأنها أرادت ذلك لعم النبي لأنه كان قتل عمها شعبة وساهم في الكمائن التي أدت لموت ابيها عتبة[١٠] . فحقدها على الاسلام لم يكن معروفاً فحسب وانما كان معترفاً به كحقد حقيقي لأن الاسلام أودى بقبيلتها ، ومعروف إذن ، ان الرسول طلب رأسها بعد دخوله مظفراً مكة في السنة ٨ من الهجرة (٦٣٠) . وكما انها

كانت زوجة أبي سفيان، رئيس المدينة، فقد طلب هذا العفو من محمد ﷺ، وما أن وافق، حتى توجب مثولها أمام محمد ﷺ مع وفود النساء من سكان مكة، لمبايعة النبي ﷺ، بعد الاعلان عن الايمان، طبعاً.

إن بيعة هند التي نقلها المؤرخون كلمة فكلمة، تبقى عملاً رئيساً من الدعابة والجرأة السياسية من جانب امرأة مكرهة على الخضوع، ولكنها لم تتنازل مطلقاً عن حقها في التعبير. فعندما طلب إليها النبي ﷺ ان تحلف بأن «لا ترتكب الزنى مطلقاً». اجابت هند: «ان المرأة الحرة لاترتكب الزنى أبداً». وقد نفترض ان الرسول كان ألقى نظرة مداعبة نحو عمر «لأنه كان يعرف مغامرات هند وعلاقتها مع عمر، قبل الاسلام»[11].

لقد أبهرت شخصية هند المؤرخين الذين كرسوا لها صفحات برمتها[12]. فكيف تكلموا عن هند، هذه المرأة التي تلقت الاسلام مع كثير من التردد؟ بمقدار ما يبدو عجيباً حتى أيامنا هذه، ولشرف المؤرخين المسلمين الكبير، تطفو شخصية هند في تعقيدها مع حقدها المفرط وأكلها اللحم البشري الذي جعلها تزدرد لحم رجل مسلم من جهة، ولكن مع مواهبها التي لا تنكر من جهة أخرى: «أصبحت هند مسلمة يوم فتح مكة وقد كانت من عقلاء النساء»[13].

فالرسول لم يفاجأ اذن برؤية امرأة كأم سلمة - على نقيض عائشة التي كانت لاتزال مراهقة - تثير مسائل سياسية للغاية، لا يمكن الا للنساء الناضجات ان يكن على مقياس عرضها. فقد طلبت يوماً إلى النبي ﷺ قائلة: «لماذا يذكر الرجال وحدهم في القرآن ولماذا لا نذكر نحن»؟[14]. وما ان سمع هذا السؤال يطرح حتى اصغى إلى السماء.

بينما كانت في أحد الأيام وهي تمشط شعرها بهدوء مشغولة بواقعة عدم تلقيها جواباً عن سؤالها، - لكن في هذا الوقت، كان الله يستجيب عندما يسأل رجل أو امرأة عن حالته في الجماعة الجديدة -، سمعت النبي ﷺ يتلو في الجامع آخر آية أوحي له بها، وهي تتعلق بها: «كنت سألت النبي ﷺ لماذا أن القرآن لا يتكلم عنا كما يفعل بالنسبة للرجال. وكم كانت دهشتي، عندما سمعت في يوم بعد الظهر دعوته من على المنبر، في الحين الذي كنت فيه على أهبة حل

شعري فشبكت شعري بسرعة ، وركضت إلى أحدى الغرف (التي يمكن السماع منها بشكل أفضل) فوضعت أذني على الجدار . . وها هو النبي ﷺ يقول : - أيها الناس يقول الله في كتابه : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً و الذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً [١٦].

هل كانت النساء الأخريات يشاركن أم سلمة اهتماماتها، أم أن الأمر كان يتعلق بمبادرة فردية محضة، ورغبة خاصة من جانب امرأة اريستوقراطية طموحة ومتعالية؟؟. ام هل كانت نزوة لأم سلمة ، أو أنها على العكس من ذلك ، كانت تياراً لرأي عام بين نساء المدينة ؟؟ .

إن هناك الكثير من الأمارات التي تحملنا على الاعتقاد أنها كانت تتعلق بحركة احتجاج من نساء المدينة. وإن سؤال أم سلمة كان نتيجة اضطراب احتجاجي وليس نزوات زوجة متزلفة . .

بدئياً ، تقول لنا بعض النصوص ان المبادهة جاءت من نساء الجماعة : «جاءت نساء لعند زوجات النبي وقلن لهن : «تكلم الله عنكن بنوع خاص في القرآن ، ولكنه لم يقل شيئاً عما يتعلق بنا . أفلا يوجد فينا اذن شيء لنستحق أن يشار إليه» ؟

لم تشارك النساء في اهتمامات أم سلمة فحسب ، ولكنهن أخذن هذا الجواب من السماء بالنسبة لما كان : انقطاع مع الممارسات الجاهلية ، وإعادة وضع العادات الحاكمة للعلاقات بين الجنسين موضع التساؤل . ومهما كانت تلك االتقاليد ، فإن النساء حسبما يبدو كن مسرورات من التغيير وكن يأملن برؤية الاشياء تتغير مع الاله الجديد . وكان نصرهن ان سورة هي السورة ٤ (النساء) سوف تحمل اسمهن وتتضمن القوانين الجديدة حول الإرث الذي يجرد الرجال من امتيازاتهم ليس بأن النساء لم تعد تُورَّث كما تورث الجمال واشجار النخيل فحسب بل انهن سوف يرثن أيضاً . فالمرأة سوف تدخل في منافسة مع الرجل لمشاطرته

الثروات : «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً»[١٨].

لقد كان لهذه الآية القصيرة وقع القنبلة بين سكان المدينة من الذكور الذين وجدوا أنفسهم لأول مرة ، في نزاع مباشر وشخصي مع رب المسلمين . فالرجال وحدهم ، قبل هذه الآية كان لهم الحق بالميراث في الجزيرة العربية وكانت النساء تشكل جزءاًمن الأموال الموروثة : «فعندما كان يموت رجل كان ابنه البكر يرث أرملته . كان يستطيع ، إن لم تكن أمة ، إما أن يتزوجها ، وإما ان يمد حقوقه عليها إلى شقيقه أو ابن أخيه اذا رغب . وكان بمكنة هؤلاء الزواج بها بدلاً عنه»[١٩] .

وقد راى الرجال ، ان التنظيم الجديد للارث قد مس نطاقاً لم يكن للاسلام التدخل فيه : علاقاتهم مع النساء . وحسب الكثيرين من الصحابة ، إن على الاسلام ان يغير كل شيء ما عدا امتيازاتهم تجاه النساء . لقد تأثروا بشكل مزدوج : فالأموال الموروثة تناقصت لأن المرأة التي كانت تشكل قسماً جيداً منها ، لم تعد تعتبر من هذه الأموال ؛ إضافة إلى ذلك فإن القليل من الميراث ، يجب ان تشاطره فيه .

المرأة في الجاهلية لم يكن ليها أي حق في الإرث ، الذي بقي ، في كافة الأحوال قضية للرجال ، رجال قبيلة الزوج أو رجال قبيلتها الخاصة : «قبل الاسلام ، عندما كان يفقد أحدهم والده ، شقيقه أو ابنه ، واذا كان الفقيد قد ترك أرملة ، فإن الوريث الجديد يستفيد من امتيازات المهر المدفوع من قبل الميت ، وبذلك كان يسرع إلى هذه ، ويغطيها بثوبه وهكذا يستاثر بالحق المنحصر به للزواج منها . وعندما كان يتزوجها ، يجردها من حقها بالنصيب الأرثي المتكون بالمهر . ولكن اذا كانت أرملة المتوفي قد نجحت في الالتحاق بقبيلتها الخاصة قبل وصول الوارث الجديد ، فإن هذا كان يجرد من حقوقه عليها لمنفعة قبيلتها»[٢٠] .
فالمرأة ، في حين الميراث ، لم تكن تظهر الا بصفتها موضوعاً ، تتاكد عليه ادعاءات الورثة الذكور ، سواء أكانوا منتمين لقبيلة المتوفي أو ينتمون إلى قبيلة المرأة . وقد اعادت القوانين الجديدة طرح الموضوع حيث أكد الاسلام فكرة الفرد

كصاحب ارادة ماثلة دائماً في العالم ، وصاحب وعي اسمى لا يمكن ان يزول طالما ان الشخص بقي على قيد الحياة . لقد لجأ الرجال لمعارضة هذه القوانين ، وهم عالمون بأنهم اذا تركوها تمضي ، فإن محمداً وربه سوف يساعدان النساء على التقدم بمطاليب اخرى وبخاصة الحق بممارسة الحرب وبأن يكون لمن حق بالغنيمة .

في حالة الحرب ، كانت النساء تبقى سلبية خارج النزاع ؛ ففي حالة الخسارة كن يقعن سبايا (اسيرات حرب) ، في حين كان الرجال يصفّون طبيعياً . لقد كانت الجزيرة العربية مجتمعاً عبودياً ، وكان الافراد ينتمون إلى صنفين : الاحرار والعبيد . وكان هذا يصلح بالنسبة إلى الجنسين ، ولكن في حين ان الارادة العليا لرجل حر لا يمكن أن تعلق ـ اذا انه كان يقتل في الحالة التي يؤخذ فيها ـ أما ارادة المرأة فكانت تزول في حالة الارث وفي حالة خسارة الحرب : فالنساء الحرات يمكن ان يورثن وان يرددن إلى حالة الأسر اذا لم يجر افتداؤهن . وكانت حالة الأسيرة مماثلة لحالة العبد تماماً(٢١).

«فذكّر إن نفعت الذكرى» كما يقول لنا القرآن [سورة ٨٧ آية ٩]، فعلى ضوء الماضي يأخذ الحاضر وضوحاً مضطرباً : فالطريقة التي تعامل فيها معاصرو النبي ﷺ مع هذه القوانين معروفة لنا تماماً . لقد بدأوا منذ البداية برفض هذه القوانين الجديدة ، راغبين بالاستمرار على تطبيق تقليد الجاهلية رغم اعتناقهم الاسلام . ثم حاولوا اجراء الضغط على النبي ﷺ كي يعدل الله هذه القوانين . وأخيراً ، بعد أن يئسوا ، انقضوا على تفسير النص كوسيلة للتخلص منه ، وكل ذلك في حياة النبي ﷺ . ولكن النساء لم يدعن الفرصة تفوت ، وهرعن لعند الرسول ﷺ عندما أصر الرجال على تطبيق التقليد ، أي الممارسات الجاهلية .

لقد كان ذلك هو حال ام قجة ، امرأة من الأنصار جاءت تشكو إلى النبي ﷺ قائلة : «مات زوجي وقد منعت من ميراثه» ، اذ ان شقيق زوجها قال لها ، كي يبرر قراره ، بأن تلتزم بالتقليد الجاهلي وتتجاهل القوانين الجديدة : «النساء لا يمتطين الجياد ولا يحاربن . . .»(٢٢) . لقد كان لأم قجة خمس بنات ابعدن جميعاً عن الأرث من قبل رجال القبيلة . ففي هذه الفترة «كان الرجال

وحدهم يرثون . وكان الطفل الذكر والمرأة مبعدان عن الميراث»[٢٣] . لقد كانا يعتبران كمواطنين على مستوى ثانوي ، لأنهما لا يساهمان في العمل الحربي ، وهو عمل يسمح للقبيلة ، في مجتمع ندرة ، أن يكون لها الحق بالغنيمة ، احدى الطرق الأكثر شيوعاً ، مع التجارة والأرث للوصول إلى الغنى . لكن أم قيجة لم تكن الوحيدة التي شكت ، فقد شاهد النبي ﷺ موكباً لا ينقطع من النساء اللواتي جئن إليه يطلبن تطبيق القانون الجديد . وسيكون لحال كبشة بنت معن ، انعكاسات هامة ، لأن الله سوف يحسم الموضوع .

فقد اراد ابن زوج كبشة ان يرث منها على الطريقة التقليدية . فشكت له قائلة «يا نبي الله ، لم أرث من زوجي ولم تحفظ لي حريتي بأن اتزوج ثانية ممن أريد»[٢٤] . فقد كان ابن زوجها أبو قيس بن الأصلت ، رفض تطبيق القانون الجديد وتشبث بأنه يريد أن يرث امرأة ابيه . ويبدو انه كانت هنالك مشروعات أخرى في رأسه . إن النزاع الذي وجه الرجال ضد النساء سوف يمزق الجماعة مرة أخرى ، لكن ، في هذه المرة أيضاً ، سوف تنتصر النساء لأن الله رد على طلبهن ، فتأتي الآية /١٩/ من سورة النساء قاطعة كشفرة مقصلة : فيفقد قيس امتيازات الرجولة التي اعطته الحق بامتطاء الجياد واستعمال السيف والقوس :

«يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً»[٢٥].

كان الذكور من سكان المدينة ، وبخاصة الانصار مكروبين بهذه الآية . فكبشة كانت طلبت بكل بساطة انهاء عادات هذه المدينة : «كان الارث عند قوم يثرب (الاسم القديم للمدينة) هكذا: عندما كان يموت رجل، كان الابن يرث زوجة أبيه ، ولم تكن هذه تستطيع ان تعارض هذا التملك . وقد كان يستطيع إما أن يتزوجها ، اذا رغب ، وعندئذ كان يمكن ان تكون له معها ذات العلاقات التي كانت لمن قبله ، وإما ان ينفصل عنها اذا لم يعد يحبها . وعندما يكون الابن الوريث شاباً صغيراً ، كانت زوجة ابيه تمنع من الزواج ثانية ، وكانت مجبرة ان تنتظر ليصبح هذا أكبر كي يستطيع اتخاذ قرار بشأنها»[٢٦].

إن ما كان يهم القبيلة وورثتها الذكور، بالنسبة لزوجة الأب، الحق بثروتها أكثر من المفاتن الطبيعية . ومن حيث المبدأ ، فإنه كان على الوريث ان يسلم حقه من ميراثه في زوجة أبيه لرجال قبيلته ، وفي الحالة التي لم يكن يتزوجها ، كان «الفجور» للمنفعة المادية يغلف بابهة العمل القراني . أما بالنسبة لقوم مكة ، الذين كانوا لكثير من الاعتبارات أقل رقة مع نسائهم من المدنيين ، فإنهم لم يكونوا يرتبكون من هذه الشكليات التي كان الانصار بحاجة لها . ففي مكة ، طبقوا ، على سبيل المثال (العضل) ، وهو اجبار المرأة جسدياً بالمعنى الأكثر قوة لهذه العبارة . كان الأمر يتعلق بعمليات حقيقية من الابتزاز ، التي تسجل بموجب عقد والتي كان يمكن ان توجد حتى خارج الأرث : «كان العضل يوجد عند قريش في مكة . فإذا تزوج رجل من امرأة شريفة ، فاذا لم تعد ترضيه ، فإنه ينفصل عنها بعد أن يتفق معها بأنها لن تستطيع ان تعاود التزوج بدون اذن منه . وكان الزوج يعمل على جلب شهود وينظم أمامهم عقداً خطياً متضمناً عبارات الاتفاق . وعندما كان يطلب طالب زواج يد هذه المرأة ، لم يكن ليستطيع ان يعقد زواجها دون الحصول على رخصة من الزوج القديم . ولكي يحصل على هذا الأذن ، كان يجب عليه ان يدفع مبالغ نقدية لتعويضه وارضائه وبدون هذا كان يعضلها[7]» .

ممارسة العضل كممارسة ارث المرأة من قبل وريث زوجها كانا موضوع عدة آيات ادانتهما كعمل لا أخلاقي . ولم تكن النساء المتزوجات وحدهن يسقطن تحت ضربة هذه الأنواع من الاكراهات والابتزاز ؛ ففي حالة موت رئيس عائلة ، كانت الفتاة كذلك . وقد كان وضعها ، في الواقع ، اسوأ ، ولهؤلاء الشابات كرست مجموعة من الآيات ، منها على سبيل المثال ، في سورة النساء ، الآيات ٢ ، ٣ ، ٦ ، ١٠ ، ٣٦ ، ١٢٧ وفي السورة /٢/ البقرة الآيات ١٧٧ و ٢١٥ إلخ . وقد وجد كثير من العرب ان هذه الآيات لايمكن فهمها ، وكان من العبثية ان تطلب فتاة حقها من الأرث . فالآية/٢/ من سورة النساء مثلاً ، تأمر الرجال بهذا الأمر المتعلق بالوريثات الشابات :

«وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم انه كان حوباً كبيراً»[٢٨].

لم تكن البنات ، يجردن من ارثهن في الجاهلية فحسب ، وانما كن موضوع سوء معاملة من الأهل ، وكن يتعرضن لاساءة استعمال جنسي من كل الأنواع . فكان الوصي يجبر الأكثر جمالاً ، احياناً على الزواج منه ، مسيطراً في آن واحد على نصيبها من الإرث ومتجنباً أن يدفع لها مهراً . وعندما تكون اليتيمة سيئة الحظ بأن تكون غير جميلة كان الوصي يتذرع ببشاعتها ليعارض في زواجها . وهكذا يتفادى ان يسدد لها نصيبها من الإرث : «عندما تكون اليتيمة قبيحة الشكل ، لم يكن الوصي يدفع لها نصيبها . وكان يمنعها من الزواج ، وكان ينتظرها إلى ان تموت كي يتمكن من الاستحواز على ارثها»[٢٩] . وسوف يصادف قبول الأولاد من الجنسين كأطراف في الأرث مقاومة قوية ، ولذلك اعتبر الله عدم إعطاء اليتامى ما يتوجب لهن من الكبائر السبع[٣٠] .

وحسب ذوق رئيس القبيلة ، فإن توريث يتيمة قبيحة كان يلقى مقاومة كبرى . فقد كان لجابر بن عبد الله ابنة عم عمياء قبيحة الشكل وقد ورثت عن أبيها ثروة هامة . ولم يكن لجابر ابداً نية بالزواج منها ولكنه عارض في زواجها خوفاً من أن يستحوز الزوج على ثروتها ، فذهب ليستشير النبي ﷺ حول المسألة ولم يكن الوحيد ليفعل ذلك . فكثير من الرجال امثال جابر ، كانوا مسؤولين عن يتامى ، ولم يكونوا يرون وجهاً لما أراده محمد من تغيير حالة الأشياء القديمة .

وقد كان هذا رفع صوته أمام النبي ﷺ قائلاً «أفتاة عمياء وقبيحة يكون لها حق بالأرث ؟» فرد عليه النبي ﷺ «نعم وبشكل مطلق» وأخذ يتلو : «ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن»[٣١] .

لقد افهمت هذه الآية الرجال ان محمداً وربه لم يعملا دائماً في اتجاه مصالحهم ، وان الدين الجديد لم يكن وعداً بالفتوحات فحسب ، وانما كان أيضاً نظاماً اخلاقياً فرض بعض التضحيات . لقد أصبح الخلاف بين الله والصحابة من المسلمين مفتوحاً ورسمياً

ويقول الرجال «كيف يمكن اعطاء المرأة والطفل اللذين لا يعملان ولا يكسبان معيشتهما الحق بالأرث . فهل يبدأون الآن بنوال الميراث كالرجل الذي اشتغل لكي يكسب هذا المال ؟؟ لقد املوا بتعديل يرد من السماء . وقالوا لأنفسهم عندئذ : «يجب ان نمضي للحصول على الايضاحات» ، وحضروا أمام النبي ﷺ وطرحوا أسئلتهم في هذا الشأن»[٣٢] . ولم يخجل الرسول منهم ، فأكد على موقفه قائلاً : ان الله جعل لهم نصيباً بقراره في هذا الشأن وليس عليهم الا الطاعة ، ولكن هؤلاء ما أن جوبهوا بقوانين لم تعجبهم ، حتى حاولوا تحويطها بالرجوع الى تصنيع التفسير . ولسوف يحاولون التعامل مع النصوص بطريقة يدعمون فيها امتيازاتهم .

النساء والسفهاء

مع وجود مقاومة القوانين الجديدة حول الإرث ، سوف يضاعف الله من الاحتياطات . وتكرس سورة النساء جزءاً كبيراً من آياتها لتفصل بدقة الجانب الذي يعود إلى كل واحد في كافة أحوال القضايا القابلة للتصور ، فالمرأة بصفتها أُمّاً ، وبصفتها ابنة وحيدة ، أو مجتمعة مع أشقائها إلخ .. كل حالة من هذه الحالات مثبتة بدقة بهدف منع كل غموض .

«ولكم نصف ماترك ازواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد . . . »إلخ . . .

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات والتوضيحات استمر الرجال بتصميمهم على خنق البعد الاسلامي في المساواة ، البعد الذي فاجأهم ، هم الذين جاؤوا إلى الاسلام لكي يغتنوا ولتكون لهم حياة أفضل . وهاهم يجدون أنفسهم وقد جردوا من امتيازاتهم الأكثر ارتباطاً بشخصهم . وخلافاً للعبودية التي لم تمس سوى الاغنياء ، فإن تغيير حالة النساء كانت تمس الجميع ، ولم توفر أي رجل ، مهما كانت طبقته ووسائله . ثمة آية تستعمل عبارة على جانب من الغموض ، هي عبارة السفيه ، سوف يستخدمونها مقفزا لابطال القوانين الجديدة .

تقول الآية : «لا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً»[٣٤] .
وتلك هي الآية التي كانوا ينتظرونها : بما ان السفهاء مستثنون ، فإن النساء ، هن سفهاء، هكذا بكل بساطة «السفهاء هم الاطفال والنساء يقول بعضهم، وعليه يجب استبعادهم جميعاً من الارث»[٣٥] . الأمر الذي ، بكل وضوح ، يعيد إلى الممارسات في عهد الجاهلية ، عهد كان فيه معيار الخير والشر لم يتكشف بعد : فإذا جرى الاصرار بما يكفي ليكون مفهوم السفيه يشمل المرأة ، فكل الكائنات من الجنس الذكوري ستكون سعيدة ، وسوف يتمكن رب المسلمين ونبيه دائماً من الحفاظ على قوانينها الشاذة حول الأرث . وسوف يقام اتفاق ودي بين الجنس الذكوري حول هذه العبارة السماوية (المرسلة من العناية الالهية) للسفيه .
لقد هلل اكثرهم رجعية لهذا : فبرأيهم ، ان كلمة سفيه كانت تعني «النساء والاطفال» .
وأكد هؤلاء على أن النساء هن «اسفه السفهاء بكل تأكيد»[٣٦] . فكيف ، يعود الطبري بعد عدة قرون ، وهو الحريص على النص المقدس ، إلى بحث هذا النزاع الذي واجه فيه رب المسلمين المؤمنين من الجنس الذكوري ؟ .
يمضي الطبري بعمله كخبير : اذ سوف ينقل لنا تسعة وعشرين شهادة متعلقة بمختلف التفسيرات لهذه الآية ، مع اعادة تذكيرنا بأنه سبق ان كرس شروحاً غزيرة لهذه الكلمة (سفيه) ، التي سبق ان وجدت في النص القرآني في عدة مناسبات[٣٧]؛ فعندما تدرس عبارة سفيه في كل احداث ورودها ، نبقى أقل تقدما عما سبق ، فكلمة سفيه ترد للجهلاء في النص ، وللأطفال في نص آخر ، وتدل احياناً على اليهود واحياناً على المشركين[٣٨] . وأخيراً ، يمكن لكلمة سفيه أن تدل على الشخص الذي ينقصه العقل والتمييز ، أي أهلية التمييز بين الخير والشر[٣٩] .
يبقى اذن ، الآن ، ان نستوضح بصفتنا مؤمنين حول الطريقة المثلى بالنسبة لنا لفهم كلمة سفيه . هنالك صنفان ممكنان من التفسير ، ذلك الذي يقول ان كلمة سفيه ليس لها علاقة بالجنس وانما ترتبط بفقدان التمييز وتبذير المال في التفاهات[٤٠] ، وذلك الذي يضاهي النساء بالحمقى لالغاء حقهن بالارث . إن الطبري ، الذي قام بكتابة مجلدات تفسير لتنوير الأجيال المقبلة بكل دقة حول

المعنى (الحقيقي) للنص القرآني ، وجد نفسه أمام مشكلة فائقة الأهمية نظراً لأنه جرى حول هذه الآية نقاش حتى في حياة النبي ﷺ ، وانها مسألة أساسية من مسائل الفقه ، الأمر الذي يوضح جزئياً السهولة التي أمكن تداول المقدس فيها بسبب فقدان التركيب المنطقي وتجاوز التجريبية . إن الفقه الاسلامي لا يحاول التدخل بين النص المقدس وقارئه ؛ كما انه يريد لنفسه ان يكون موضوعياً بما يمكن ، ويكتفي بأن يقدم لنا تعددية الآراء مضيفاً إليها رأيه . وخوفاً من ان ، يدع شخصاً نيته تظهر ، سوف يمتنع عن كل مبادهة في مادة التركيب Synthèse عندئذ تكتشف تتمة للحالة، تعددية آراء، ولكن بدون أية محاولة لاستخلاص المبادىء والقوانين والاتجاهات التي تسمح بتمييز البنيوي عن الظرفي من كل هذه المادة .

يكتفي الطبري بأن يضيف رأيه بعد ان يكون قد عرض آراء الآخرين ، ولم يحاول استخلاص مبدأ فيما يتعلق بالعلاقة بين الجنسين . أي علاقة المساواة . وفي رأينا ان الطريقة الصحيحة لتفسير كلمات الله «ولا تعطوا أموالكم التي اعطاكم الله اياها للسفهاء» هو أن الله احتفظ لكلمة السفيه بمعناها العام ، ولم يحددها بصنف معين من السفهاء . فهذه الآية تريد اذن أن تقول : لا يجب إن تردوا إلى سفيه ماله مهما كان عمره وجنسه ، فالسفيه يدل على الشخص الغير مؤهل ليدير ثروته ، أي ذلك الذي يبدد أمواله ، ومثل هذا الشخص يجب ان يبقى تحت الوصاية ، وعلى الوصي ان يراقب استعمالَه لأمواله»(٤١).

لم يضع الطبري نفسه على أرضية المبادىء مطلقاً ، ولا في أية فترة . فما هي اذن الحجة التي سيقدمها لتحسم هذا الجدل ؟ انه بالتصاقه بالنص يقدم كحجة رئيسية من قواعد اللغة ، مؤكداً على واقعة ان العبارة عامة : فكلمة سفيه لا تستثني إلا اولئك الذين ادركوا سن الرشد بمعنى التمييز ، وهو يضيف على العكس ، انّ استثناء النساء من الأرث هو ادخال تمييز استناداً للجنس وهذا ما لا يوجد في النص القرآني . «فمن يقول ، إن السفهاء في هذه الآية تعني بصورة مميزة للنساء ، فإنه يشوه اللغة بكل بساطة . لأن العرب لايستعملون صيغة (الفعلاء) الا بالنسبة لجمع المذكر أو بالنسبة لجمع المذكر والمؤنث» ، وينتهي

باجراء برهان على الجموع من اللسان العربي . ويرايه ، لو أن الله أراد القول إن النساء كن السفيهات ، لكان استعمل الجمع المتوجب»[٢٢] .

إن أي اعداد لمخططات نظرية لم يستخلص المبادىء المحورية الأساسية للاسلام بصفته فلسفة ، وبصفته رؤية حضارية . ومن فرط إرادة الفقهاء للحد من ذاتيتهم ، اقتصروا على تجميع الآراء المختلفة التي تهمهم . وبما أنه يعطى لكل واحد الحق بأن يكون له رأيه ، سوف يكون هنالك أدب توضع او تجمع الآراء . لقد شاء الأدب الديني ان يكون علمياً ، وسوف يكون كذلك . لكنه سيكون علماً تجريبياً ، حيث سوف يقتصر كلُ مؤلف على المقابلة بدون استخلاص تركيبات تساعد على «تمييز» الأساسي عن الثانوي . إن الإمام يمحي بخشوع أمام الحقيقي . وبحصول هذا ، يفتح الطريق للمداولات بمنحى التفسيرات كما تظهره المناقشة حول كلمة سفيه . فكل واحد سوف يختار ويستند على الراي الذي يصنفه في تعددية الآراء التي يجمعها الفقه عندما يتعلق الأمر بآية تختلف حولها .

يمكن أن نفكر، أو نحلم ، بأن اقامة نظام للمبادىء الأساسية كان سيسمح به على الأرجح في الاسلام ، بصفته حضارة للكتابة ، والوصول منطقياً لنوع من اعلان حقوق الانسان ، مماثل في اتجاهاته الكبرى للاعلان العالمي لحقوق الانسان ، اعلان عالمي ما زال موضوع نزاع في أيامنا هذه ، كغريب عن ثقافتنا ومستورد من الغرب . إن موقف الاسلام الحديث ، بصفته مجتمعاً ، حول مسألة المرأة وحول مسألة العبد ، يوضح تماماً هذه الفجوة في الذاكرة في مادة مبدئية ، وهذا القصور للاسلام السياسي ، الاسلام المعاش الذي يحكم العلاقات اليومية ، ليعيش المساواة كمميز داخلي النمو . من جهة أخرى ، رغم موقف الاسلام مبدئياً ضد العبودية التي سوف نبحثها ، فانها لم ترفع من البلاد الاسلامية الا تحت الضغط وتدخل القوى الاستعمارية (أنظر مادة العبد في دائرة المعارف الاسلامية) .

من أجل تقييم عمق هذه الفجوة في ذاكرة المسلمين المعاصرين الذين يعيشون مساواة الجنسين كظاهرة غريبة توجب علينا العودة دائماً إلى المدينة ، في أزقتها حيث كان النقاش حول مساواة الجنسين يشكل سعاراً وحيث كان الرجال ملزمين بأن يناقشوها وإلا قبلوها طالما ان الله و نبيه أوجباها

النساء والغنيمة

بعد نجاح أم سلمة والآيات المؤكدة لمساواة النساء وبخاصة الحق في الأرث ، كانت هنالك فترة حرجة . اذ أتت آيات اخرى أخرت مبدأ مساواة الجنسين واعادت التأكيد مجدداً على الهيمنة الذكورية ، بدون ان تلغي مطلقاً الأحكام السابقة لمصلحة النساء ، وهكذا حصل غموض في النصوص ما زال يستمر حتى الآن من قبل النخبة المسيطرة . وفي الواقع ، كان انتصار النساء لمدة قصيرة جداً: ليس فقط لأن السماء لم تعد ترد على تساؤلاتهن، ولكن لأنهن في كل مرة كن يضعفن فيها مطاليب جديدة ، كانت تنزل من السماء آيات حازمة ومعاكسة .

إن النساء وقد تشجعن بواقعة ان الله اعتبرهن كمؤمنات مثلهن مثل الرجال تصلبن في مطاليبهن حتى وصلن إلى حد المطالبة بحق المشاركة في الحرب ليتوصلن منها إلى نوال الغنائم، ولحق المبادهة عندما يتعلق ذلك بالعمل الجنسي. هذه المطاليب تمضي بالتأكيد لينظر فيها الرجال بالنسبة لما هن عليه : تعريض الأساس الذي تقوم عليه الهيمنة الذكورية ذاته الى البحث . ولكن رؤساء العائلات، وقد ادركوا ان ما تطلبه النساء سياسي للغاية ، تحركوا بجد للمقاومة مع قائد من الصحابة هو عمر بن الخطاب . إن عمر بن الخطاب رئيس عسكري لا مثيل له في جرأته وشجاعته التي اثارت حمية الجيوش الاسلامية، حتى ان النبي بذاته اعترف له بذلك قائلاً «إن اعتناق عمر الاسلام كان نصراً وفتحاً»[3]. كان عمر معجباً بدون حدود ، بالنبي ﷺ وباطروحاته للتغيير وخلق مجتمع عربي . كان على استعداد للمضي بعيداً مع النبي ﷺ ولاتباعه في رغبته بتغيير المجتمع بصورة عامة . ولكن إلى الحد الذي لا يصل في اتباعه له لتغيير العلاقات بين الجنسين . فلم يستطع عمر ان يتخيل اسلاماً يشوش العلاقات التقليدية، أي مما قبل الاسلام، بين الرجال والنساء فقد وجد عمر في مطالبة النساء بحمل السلاح والمساهمة بفاعلية بالعمليات الحربية بدلا عن الانتظار سلبيا حتى يؤخذن سبايا، كما كانت تشاؤه تقاليد الجاهلية، أمراً غير معقول . لقد كان على استعداد ليدمر آلهة مكة المشركة التي عبدها اجداده حتى ذلك الحين ، وان يقلب هكذا

وازن السماوات : ولكن رؤية المرأة العربية وهي تطلب ، على الأرض ، تشريعاً مختلفا ، بدا له تغيراً لايحتمل .

كان ذلك في فترة تخلصت فيها النساء من قيودهن مظفرات . وقد مضت النساء الأكثر حدة في مطاليبهن بكل صرامة للتحريض مؤكدات على ان الآية القرآنية «للرجل مثل حظ الانثيين» ليست بالنسبة للميراث فقط ، بل تصلح أيضاً بالنسبة للذنوب . وقد أخذن يؤكدن على ان كل رجل سيفاجأ يوم الحساب الأخير ، بأن يرى ثقل اوزاره مضروباً باثنين . . «بما ان لهم نصيبين من الإرث ، فليكن لهم كذلك بالنسبة للذنوب»[11] الأمور تتفاقم .

وكانت مفاجأة كبرى للنساء في هذه المرة حيث تدخل الله ليدافع عن الرجال ويؤكد على امتيازاتهم . . فالآية /٣٢/ من سورة النساء «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليما» تقسم إلى حجتين وتجيب على مطلبين يجب تمييزهما بكل عناية : ارادة النساء بالحصول على الامتيازات نفسها التي للرجال ، وتأكيدهن على أن المساواة تمر بالثروة . اذن ، لكي يكن مساويات فعلاً للرجال ، يجب ان يعطيهن الله الحق بممارسة الحرب وان يحصلن مكذا على الغنيمة ، وقد جاء رد الله واضحاً : حقوق كل واحد متناسبة مع ما يكسب . فالنساء المعفيات من القيام بالحرب لا يمكن لهن الادعاء بأن يعاملن كذلك وبهذا جاء نص الآية/٣٢/ المشار اليها . ويقول الطبري ، ان هذا الجزء من الآية ، هو جواب على طلب النساء بحمل السلاح . انهن يدفعن التفكير بالمساواة إلى حده الأقصى . طالما ان نصيب كل واحد مساوٍ مما سوف يكسبه ، وبما ان الرجال لا يغتنون الا بعمل الحرب ، فقد مضين للمطالبة بحق الوصول إلى هذا الامتياز .

لكي نفهم هذا الاصرار من النساء ، يجب ان نعرف قليلاً عن أوالية الحرب والغنيمة وأهميتها في اقتصاد المدينة . فالغزوة حسب قاموس لسان العرب هي والقرار بمهاجمة عدو من أجل انتهابه (تجريده من أمواله) ، ويشرح هذا القاموس بأن «غزوة غير موفقة هي الغزوة التي لا يغنم فيها الغازي اموالا

وتشكل المغازي احدى الوسائل الأكثر شيوعاً «لخلق» الثروات : انها غزوات بين القبائل ، ونوع من الغارات اضفيت عليها الصفة الطقوسية إلى أقصى حد ، وهدفها هو بصورة خاصة أخذ « اموال الغير » ، بعض الابل في اكثر الأوقات ، مع تجنب اراقة الدماء . فاراقة الدم عمل خطير جداً يجب تجنبه بكل ثمن ، لأن الغازي يعرض نفسه للثأر من قبيلة الشخص القتيل . وتفجر اراقة الدم نظاماً من الانتقامات مع أخذ بالثأر لما لا نهاية له .

مع ذلك يتواجد نوعان من المغازي ، إحداهما ما أشرنا إليه بالنسبة للأموال ، والأخر بالنسبة للحرب التي تقتل الجميع . إن الحرب والوصول إلى الغنيمة التي كان يمارسها المكيون والزراعة التي يمارسها المدنيون ، واحدة من مصادر الدخول الممكنة والأساسية . وقد مارسها محمد(ص) بذاته، واضعاً إياها، مع ذلك ، بخدمة مشروع تجاوز فيه مشروع الغزوة التقليدية . ولو كان غير ذلك لأصبح أحد الرؤساء الصغار القبليين في الجزيرة العربية الذي لم يأت التاريخ على ذكرهم أو أتى عليه لماماً. مع ذلك فإن محمداً (ص) سرعان ما يكتشف حدود وتناقضات مثل هذه الممارسة . ان قانون الغزو كان قاسياً جداً ، ولم يكن يترك للغالب (المنتصر) الا خياراً بين بعض البدائل ، كلها لا انسانية تجاه المغلوبين : قتل الرجال ، وجعل النساء الاسيرات في الحرب ، اماء ، أو في الحال التي يكون فيها الرجال والنساء من أصول اريستوقراطية ، فداءهم مقابل غرامات هامة . وكانت المسألة التي طرحت نفسها على المسلمين هي التالية : كيف يكون العمل عندما يعلن الأسير اعتناقه الاسلام ؟ فاذا اكتسبَ مسلم ، تُضاع أيضاً غنيمة قد تكون هي الهدف المنشود .

لقد اغتنمت النساء فرصة هذه التساؤلات ليمررن مطاليبهن : «طيلة فترة الجاهلية كان الرجال يستثنون النساء والأطفال من الميراث ، لأنهم كانوا يقولون : ان هؤلاء لا يقومون بالغزو ولا يشاطرون بالغنيمة»[٦] . وتصيغ أم سلمة ، وهي المرأة الصريحة التي توجز في أقوالها اكثر من العادة ، في عريضة ـ سؤال ، طلباً نسوياً جديداً حيث تقول : «يارسول الله ، الرجال يحاربون ، ونحن لا حق لنا في ذلك ، في حين ان لنا حقاً في الميراث !» . وفي نص آخر ، كانت أم سلمة قد

قالت : «يارسول الله لماذا يقوم الرجال بالحرب ونحن ليس لنا هذا ؟»[٤٧] .

إن مطاليبهن هي أساس قانون الغزو من جذوره ، فهذا القانون كان يعطي المنتصر الحق بقتل الرجال (واذا كانوا من علية القوم يبادل عليهم مقابل فدية) وبرد اسيرات الحرب وأطفال المغلوبين إلى حالة السبي . والمرأة السبية يمكن بيعها من قبل من وقعت في نصيبه من الغنيمة ، ويمكنه ان يقرر اقامة علاقة زواجيةمعها ، اذا رغب بذلك ويجعل منها ام اولاده أو الاحتفاظ بها خدينة ، أو ان يستعملها أيضاً فقط كملك يمين[٤٨] .

لقد كانت العبودية النسويةفي آن واحد مصدر اكرامية جنسية ، ولعمل منزلي ، ولاعادة انتاج قوة عمل[٤٩] . وبطلب النساء حمل السلاح ينتقص بشكل مخيف الأموال التي يمكن للرجل ان يكتسبها بقيامه بالغزو ، وهكذا حلمن بالخلاص من المصير التعيس الذي كان لهن كما توضحه القصة التالية :

عمرو بن معد يكرب ،فارس شجاع ، يروي لعمر بن الخطاب ، الذي كان خليفة في ذلك الحين عن امجاده في زمن الجاهلية : «سأروي لك مغامرة لم أبح بها لأحد قبلك . ذهبت في أحد الأيام مع بعض فرسان بني زبيد للقيام بغارة على أرض بني كنانة . والتقينا بجماعة تسير ليلاً (. . .) فشاهدت خيولاً وأواني ملأى بالطعام ، وخيام من جلد أحمر والكثير من الماشية . وبعد ان تأكدنا من غنيمتنا ، توجهت نحو أكبر هذه الخيام التي كانت مبتعدة قليلاً . كانت تختبىء امرأة ذات جمال نادر نائمة على بساط . وما أن رأتني أنا وفرساني حتى أخذت تبكي ، وسألتها عن سبب بكائها فقالت : « لا ابكي على مصيري ، وانما ابكي من الغيظ الشديد عندما افكر ان بنات عمي تخلصن من (التعاسة) التي أنا ضحيتها» . فاعتقدت انها قالت الصدق وسألتها اين كانت بنات عمها : قالت لي : «هناك في هذا الوادي . وعلى الفور امرت رفاقي ان يبقوا ساكنين ريثما اعود فلمذت جوادي وتسلقت قمة كثيب»[٥٠] .

عندما وصل عمرو إلى اعلى الكثيب ، فهم انه قد خدع : «فلاحظت بالقرب من هنالك رجلاً شاباً ذا شعر أشقر وأهداب طويلة ، وكان يصلح نعله ؛ وكان سيفه امامه وجواده إلى جانبه . وعند رؤيته لي ترك عمله ، ونهض بدون ادنى

اضطراب وأخذ سيفه وتسلق تلة . ومع رؤيته لخيمته المطوقة بفرساني ، ركب جواده وقرب مني وهو ينشد هذه الأبيات من الشعر . . . ★»(٥١) ويحدث مبارزة بين عمرو المهاجم وذلك الذي كان في الواقع زوج المرأة الشابة ، ربيعة بن مكدم الفارس الذي لا ند له ، ويخسر عمرو المعركة . ولكنه يعاود غزوته مجدداً بمهاجمة ربيعة ويستولي على غنيمة غنية وعلى امرأة ربيعة . لكن هذا الأخير الذي لم يكن بعيداً قد اعلم بما جرى فهمد لمطاردة الغزاة على جواد عار وليس معه سلاحاً سوى رمح بدون حربة ويدرك عمرو ويجند له مخلصا منه الأسيرة زوجته . . »(٥٢). وينجح ربيعة باسترجاع زوجته «وهكذا افرج عن الغنيمة ورجع الى عشيرته»(٥٣) . ذلك هو اذن ما كانت تعيش فيه المرأة الشابة في الجزيرة العربية قبل الاسلام عندما لاتكون محاطة بكل اعضاء قبيلتها أو قبيلة زوجها . ولم تكن لكل الأزواج شجاعة البطل ربيعة . فالنساء اللواتي كن متزوجات من أشخاص عاديين ينتهين اسيرات وإماء لمن يختطفهن .

إن الطلب من الاسلام أن يغير مثل هذا الوضع ، كان عملاً تهديمياً للبنيان الاقتصادي من الغنيمة . ولو أن رب المسلمين اعطى ما يرضي النساء ، فإن الحرب لا يكون لها معنى . من جهة أخرى ، فإن كل التفصيلات التي يمكن التقاطها حول الغذاء والمساكن والثياب تصف لنا مجتمعاً بسيطاً يعيش بتقشف وحتى بقلة . طلب أحد المؤمنين من النبي ﷺ عما اذا كان يمكن الصلاة في ذات الثوب أو انه يجب تبديله قبلها . وكان جواب النبي ﷺ «وهل تظن ان لدى كل الناس ثوبان» ؟(٥٤) . لقد دهش العرب من ثياب الامراء المسيحيين عندما انتصروا عليهم : «كان المسلمون ينظرون بتعجب لثوب اوكيدير ، الذي كان من البروكار الموشى بالذهب ؛ ولم يسبق لهم أبداً أن شاهدوا مثيلاً له»(٥٥) . فخارج المساواة التي كانت النساء تنشدها كانت توجد اذن مغامرة اقتصادية رئيسية . .

★ الأبيات كما ذكرها المسعودي :

أقول لما منحتني فاها والبتني بكرة رداها
الي ساحوى اليوم من حواها فليت شعري اليوم من دهاها

المترجم

تجاه هذه المسألة من استمرارية الحياة بالنسبة للجماعة ، لم يكن لغالبية النساء الانعكاس السياسي المتوجب ، اذا استثنينا أم سلمة التي كانت تدافع عن الحق بالقيام بالحرب ليس من أجل الاغتناء وانما من أجل الحصول على امتياز «التضحية لله» وقضية نبيه . لقد صرحت : «انها لخسارة ان لانكون رجالاً لكنا استطعنا اجراء الحرب وحصلنا على معبر الى الثروات مثلهم»[٥٦] . ان النساء المحرومات من المعنى السياسي الذي لأم سلمة لم يستطعن اخفاء مطاليبهن المادية تحت بهارج الحرب المقدسة وهذه الخطوة الكاذبة كانت مصيرية لهن .

ان يكون انسان نبيا ، هو للوهلة الأولى ، نجاح معايرة الى الحد الممكن تحمله بين الممكن الحدوث والمستحيل ، بين المخاطر اليقينية والمكاسب المستحيلة :

فالنبي بالتعريف ، رجل يعطي الأمل لمريده بأن الحياة ستكون أفضل وسيكون لها صفة أعلى ، اذا قرر لنفسه ، مع ذلك ، أن يراهن على المثل الأعلى الجديد . إن رب المسلم كنبيه (ص) يعلمان ان الثروات الأرضية كانت دافعاً لا يمكن إهماله في ما تمثله من جاذبية . وبعد كل شيء ، كان الصحابة الجدد ارباب عائلة شجعان وأشخاصا ذوي أعباء ، والاسلام عهد بتعديل شروط الحياة، سواء أكانت الحياة الروحية أم الحياة الأرضية . ان الوعود بالغنيمة تغذي الرغبة المشروعة بالاثراء لدى جنود الله : «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما»[٥٧] . فالغنيمة كانت مع الوعد بالجنة في الآخرة ، مطمحان مشروعان للمؤمن ، وادرك ، النبي بصفته رئيساً حربياً ، بسرعة ان القليلين جداً من مقاتليه كانوا يقبلون أن يمس بالقواعد التي كانت تعيدتوزيع الغنيمة. ويعتبر حادث الطائف ، في السنة الثامنة ، كاشفاً في هذا الشأن : فأثناء هذه الغزوة اراد النبي ﷺ وهو متأثر باضطراب القبائل المغلوبة والتي كان بعضها عاطفياً قريباً جداً منه ، أراد أن يؤنسن العادات في موضوع الغنيمة وحالة سبايا الحرب . فانقلبت جماعات ضده ووجد نفسه حيال تمرد حقيقي .

كذلك الأمر اثناء غزوة حنين ،حيث كان هنالك حدثان أحدهما من نوع عاطفي ، والآخر من نوع ديني ، سوف يزعجان النبي ﷺ ويحولان دون تطبيق

قاعدة اقتسام الغنيمة آلياً . حصلت غزوة حنين بعد فتح مكة في السنة ٨ للهجرة . كانت قبائل المنطقة المنذرة بسقوط المدينة والتي كانت قررت تقديم العون لها والتي مازالت تقاوم الاسلام ، تتوافد نحو مدينة الطائف ، على بضع مئات من الكيلومترات . ولم تكن مكة لتستطيع العيش دون مبادلاتها التجارية مع الطائف : «كان يوجد بين مكة والطائف مسيرة ثلاثة أيام ، على طريق اليمن . وكانت الطائف تتألف من عدة قرى معتبرة جداً (. . .) . كان هنالك عدد كبير من البساتين ، والحقول المستثمرة والكروم ، وكثير من جداول المياه . وكان على سكان مكة العودة دائماً إلى الطائف نظراً لأنه لم يكن يوجد في مكة لاكروم ، ولا اشجار ، ولا ثمار . فكل الثمار التي توجد في مكة تأتي من الطائف التي تنتج كل أنواع فواكه الدنيا . وكل واحد من أهل مكة يمتلك في الطائف كرماً أو حديقة ، وخلال أشهر الصيف الثلاثة ، لم يكن يتبقى أحد في مكة ، باستثناء الفقراء[٥٨]» .

فمن يأخذ مكة لن يتأخر عن أخذ الطائف . وقد تولى مالك بن عوف رئيس ثقيف ، القبيلة التي ترعى المدينة ، قيادة المقاومة . لقد نجح بتجنيد الجيوش في كل مكان ، إلاّ في قبيلة هوازن ، السعدبن بكر ، لأنهم كانوا تولوا رعاية النبي ص عندما كان رضيعاً فيهم . وكانت تلك هي العادة عند سكان المدن في وضع ابنائهم الرضع خارج المدينة ، في وسط أكثر صحية . فهذه القبيلة رفضت اعطاء جنود لمالك : «أجابوه : محمد هو رضيعنا ، نشا بيننا . ولا يمكننا محاربته . مع ذلك أجرى مالك مساعي أخرى بحيث حصل منهم أيضاً على جماعة من المحاربين»[٥٩] .

غادرمالك الطائف على رأس جيش من /٣٠/ ألف جندي وتوقف في سهل حنين على مسيرة يومين من مكة . ولكي يجبر الاحلاف على المقاومة ضد محمد ﷺ حتى الموت «أعطى أوامره بأن على كل جندي ان يلتقي بامرأته وأطفاله معه ومالديه من مواشي»[٦٠] . وأعلم النبي ص بتجمع البدو في حنين ، فأعد جيشاً مؤلفاً من /١٢/ الف رجل منهم /٢٠٠٠/ من المكيين واعطى لأحد رجاله قيادة مكة وتوجه إلى حنين .

لقد كانت معركة صعبة كاد الرسول ذاته ان يهلك فيها . وفي اللحظة

الأخيرة نجح المسلمون ، ورغم تفوق الخصوم العددي قرر مالك ان ينسحب للطائف ، ليتمكن بشكل أفضل من الدفاع في مدينة محصنة . وقد هرب حلفاؤه في حالة من الفوضى ، تاركين وراءهم النساء والأطفال . فأمر النبي ، حسب العادة ، بملاحقة الهاربين على مسافة مسيرة ثلاثة أيام (. . .) وقتل كل من يستطيعون ادراكه ، وسوق النساء والاطفال والقطعان»[61] . كانت الغنيمة ضخمة : «واصطحبت جيوش المسلمين كل القطعان التي كان الاعداء أتوابها معهم ، أبقار وشياه في كمية كبيرة لا يعلم عددها الا الله . اضافة إلى ذلك كان يوجد ٦٠٠٠ امرأة وطفل»[62] .

وكان بين الأسيرات ، اسماء الأخت بالرضاعة من حليمة ، مرضعة محمد ص : «وقد تعرف عليها النبي واذرف الدمع . وعلى الأثر نزع عباءته عن كتفيه ، وفرشها على الأرض واخذ بيد اسماء واجلسها على هذا الثوب . وفي الصباح ، سألها ، ماذا تفضل : البقاء عنده أو العودة لقبيلتها»[63] . ففضلت الرجوع لأهلها . وأرسلها النبي ص مع هدايا : «عبدان ، رجل وامرأة ، جمل ، شاة أخذت على الغنيمة »[64] . وبتصرف النبي ص هكذا استاء الجنود الذين كانوا نادراً ما يشعرون بالمرحمة معتبرين ان اسماء تشكل جزءاً من الغنيمة . لكن اخطر ما حدث هو عندما أعلن مالك قائد ورئيس المقاومة الذي انعطف للطائف قراره باعتناق الاسلام هو وحلفاؤه ، اذ بفعل هذا يمكنه استعادة اسلابه وكل الغنيمة من نساء وأطفال وأموال ، فذلك هو قانون ومنطق الحرب المقدسة التي ما كانت غزوة عادية .

إلا أن قرار مالك شوش الوضع بكليته ، فالنبي ص لم يعد يتمكن من التصرف بالغنيمة ، وعليه ان يمنع الجنود من المس بها : « فعمل على جلب كل الأسرى وجمع كل الغنيمة ، وأناط الحراسة عليها إلى مسعود بن عمرو على رأس عشرة آلاف رجل ، وذلك إلى حين عودته من الطائف »[65] . غير ان للحرب قوانينها ، ولا يستطيع النبي ﷺ ان يقرر شيئاً دون موافقة الجيوش . واقترح على قبيلة بني سعد ان تغتنم فرصة الصلاة الجامعة يوم الجمعة كي تثير المسالة أمام الجميع .

وكان الوضع حرجاً : فايهما اكثر أهمية الغنيمة أم الله بالنسبة للجندي المسلم ؟ « في الصباح عندما كان النبي ص يقيم صلاة الصباح وكل الجيش يصلي وراءه ، وفي الفترة التي أدار ظهره فيها للحراب ، نهض الموازنيون والثقفيون وبنو سعد واسمعوا النبي ص التماسهم بأن يرد اليهم نساءهم واطفالهم[٦٦] واستدار النبي الذي كان توقع هذا الطلب ، نحو الجموع وأعلن : « هؤلاء الأسرى لا يعودون إلي وحدي وانما إلى كل المسلمين »[٦٧] وأضاف انه بذاته مستعد ليتنازل عن نصيبه من الغنيمة ، أما بالنسبة للباقي : « فإن لجيش المسلمين ان يقرر لنفسه »[٦٨] .

وتبع ذلك نقاش حاد في الجامع . ومارفض الجنود اعادته لم يكن القطيع وانما السبايا . ان كل كائن بشري كان يساوي عدة رؤوس من القطيع . وقال النبي ص للقادة الذين رفضوا التنازل عن الغنيمة : « حقكم ان تطلبوا الغنيمة ، لكن أياً من رجالكم يتخلى عن نصيبه من الأسرى سوف يتلقى مني ست شياه مقابل كل رأس »[٦٩] . وتراجعت هذه الحرب المقدسة ، في هذا اليوم الجمعة في السنة ٨ هجرية (٦٣٠) إلى مساومة ضيقة جداً . حيث توقف الرسول ليوازن الأمر ويمضي لاقناع جيوشه كي يروا في الأسيرة شيئاً آخر غير الغنيمة ، وبخاصة اولئك المؤمنين بما آمن به .

وعندما انتهت الصلاة لم يكن الأمر قد تمت تسويته . لقد نجح محمد ﷺ في السيطرة على الصدمة النفسية للمشهد . ناصحاً المغلوبين بالدخول إلى الجامع ، وباعلان اعتناقهم الاسلام وبوضع الجند هكذا أمام الأمر الواقع . ولكن ما أن خرجوا ، حتى تجمع حوله الجند والجؤوه للأمر بتوزيع الغنيمة : « لقد أصروا عليه إذن ، ليعمل على القسمة في المكان نفسه . ووعدهم النبي ص . . وأشاروا بأيديهم قائلين : « لن نتركك تذهب إلا اذا أجريت القسمة » واختطفوا عنه رداءه . . فقال : ردوا علي ردائي أيها الناس ، وصرخوا جميعاً بشكل فظ »[٧٠] . وهكذا أكره النبي لاعادة توزيع الباقي من الغنيمة فوراً حسب العادات القبلية[٧١] .

في مثل هذا النطاق من التوتر السياسي حيث تبين لنا ان المحاربين المسلمين

لم يكن عندهم مفهوم واضح عن واجبات المؤمن وانما بقوا مرتبطين بامتيازاتهم الحربية، معتبرين المرأة الأسيرة كمال له الاكثر قيمة، وكان واضحاً ان الوعد بالمساواة الذي بشر به محمد ص بين المؤمنين قد ادرك حده . مع ذلك يجب أن يؤخذ في الحسبان تسلسل الأحداث التاريخية : ففي حنين ، كان الاسلام هو المنتصر . وعليه أثارت النساء الجدل حول الحرب والغنيمة قبل ذلك ، اثناء الفترة السيئة ، فترة السنوات من ٤ ـ ٨ الهجرة ، التي تراوحت بين هزيمة أحد وفتح مكة ، فترة كانت فيها معنويات الجنود قد تضاءلت ، ومست فيها مصداقية النبي ص بصفته رئيساً حربياً . لا يمكن فهم تغير الاتجاه ضد النساء اذا لم يؤخذ في الحسبان السياق العسكري . فقد لوحظ في حنين ان نبياً منتصراً هو ، قلّ ذلك أو كثر، تحت رحمة جيوشه ، وعلى ذلك لنحاول تصور سلطته في مفاوضته مع جنوده ، عندما لا يستطيع حتى ان يقدم لهم مايحلمون به من غنائم لقد رأينا النبي ص على أهبة التضرع لله اثناء معركة بدر : فبدون انتصار حربي ، لن يكون هنالك اسلام . إن هامش المناورة الذي كان لدى النبي ، في مدينة محكومة باقتصاد حرب ، كان ضيقاً جداً[٧٢] .

إن تطبيق مبدأ المساواة الاجتماعية كان يضيف خطر اضطرابات إضافية ، لأنها كانت تزعزع استقرار العائلات باعطاء الحق للمرأة ، بصفتها مؤمنة ، لأن تطلب المساواة ، لأن الشفقة وحدها كانت منذئذ معيار الطبقية . « الاكثر نبلاً بينكم عند الله ، اكثركم شفقة »[٧٣] . ان اعطاء النساء الجنة كان يطرح من المشاكل أقل من اعطائهم الحق بالأرث والحق بالغنيمة ، وكان ذلك أيضاً مضاعفة بشكل خطير للاضاحي التي يقدمها المؤمن لله . . فإذا كان للرجال حاجة من الله ، فقد كان الله يرى أيضاً ضرورة وجود للرجال .

تجاه هذا الخيال الصعب : مساواة الجنسين أو بقاء الاسلام ، ذلك هو على الأقل ، ما دفع عبقرية محمد وعظمة ربه ، في بداية القرن السابع ، لوضعه ودفع الجماعة لتفكر فيه . إنه نقاش ، يرفضه السياسيون بعد خمسة عشر قرناً كشيء غريب عن الثقافة ، غريب عن السنة ، وعن التقليد النبوي . ان النبي ص هو قبل كل شيء رجل يسيطر على فن الايقاع المقدس ، ايقاع التصميم

الصعب بين رب بعيد كل البعد ، غريب سماوي ، وبين الناس الذين يتألمون ، مساجين على الأرض حيث يعانون العنف والظلم . من زمن محمد ﷺ ، فرّخ المتنبئون ، أو بالاحرى الانبياء الكذبة ، حسب الصيغة المكرسة من المؤرخين المسلمين ، بسرعة في شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة في اليمن ، حيث وجد فيها « العنسي ومسيلمة الأكثر شهرة . وكان لدى هذا كل ما يتوجب للاغواء . كان رجلاً فصيحاً جداً ، يعرف التعبير بلغة جميلة مقفاة »(٧٤) . وقد اعتبر مسيلمة نفسه كند لمحمد ص واقترح عليه المشاركة من جهة أخرى : « انني نبي مثل محمد ، ذلك ما خاطب به جموع مدينة اليمامة ، في اليمن ، نصف الأرض لي والنصف الأخر له »(٧٥) . وغالباً ما ضرب على العصب الوطني لاقناع مستمعيه « لن تجدوا نبياً أفضل مني ، فلماذا تتبعون نبياً غريباً » ؟؟(٧٦) .

كذلك فإن هنالك نساء ادعين النبوءة ، كسجاح بنت الحارس بن سويد التي تغنى بها شعراء قبيلتها كمجد لهم :

أضحت نبيتنا انثى نطيف بها وأصبحت انبياء الناس ذكراناً(٧٧)

لقد ارتكبت عملاً طائشاً ، اذ مع ادعائها النبوة تركت نفسها تقاد بالعواطف ، ووقعت في حب مسيلمة لدرجة انها تزوجته : « وقد كانت مع ادعائها النبوة مكذبة بنبوة مسيلمة الكذاب ، ثم آمنت بنبوته.، وكانت قبل ادعائها النبوة متكهنة تزعم ان سبيلها ، سبيل سطيح وابن سلمة والمأمون الحارثي وغيرهم من الكهان ، وصارت إلى مسيلمة فنكحها »(٧٨) .

الرجال والنساء ، وكل الانبياء الذين أشار إليهم التقليد الاسلامي بأنهم كذبة فشلوا ، لأنهم لم يتقنوا ذلك الايقاع بين الالهي والبشري ، تلك الرغبة الحادة بالارتفاع نحو السماء ، وشق الأفق الأرضي للذهاب نحو الله ، وليصبح إلهياً . فاذا كان مسيلمة قد فشل بشكل محزن، فذلك لأنه خلط، كالكثيرين من السياسيين في أيامنا ، بين النبوة والديماغوجية (تملق الجماهير) مخطئاً باعتقاده ان نجاح مدعي الرسالة يكون في الابهار (الاغواء) في قدرته على تملق الجماهير : « لقد قدم مسيلمة إلى مواطنيه مؤسسات دينية ، واعفاهم من الصلاة ، وأعلن شرعية التزاني والخمر . لقد اعجبتهم هذه القوانين : فاعترفوا به نبياً وقبلوا

ديانته . لقد بدأ بخطابات مقفاة ، غير ايقاعية ، وادعى انه تلقاها من السماء »[٧٩] .

ان النبي ، خلافاً لما اعتقد مسيلمة ، يتكون بدفع الناس للمضي بعيداً بقدر ما يمكن ، وللامتداد نحو مجتمع مثالي . ان النبي ، هو أن يعلم تاجراً في المدينة ، لم ير أبعد من طعم الغنيمة ، ان المرأة يمكن ان تكون شيئاً آخر غير السبية . النبي ، هو ان يُظهر أمام ذهنية فظة ، سجينة نزعاتها وصلفها ، آفاقاً جديدة من العلاقات البريئة . ومحمد ص كان بشكل نهائي ، نبياً مبدعاً لآفاق واسعة لدرجة ان تأملها ببساطة يدوخ رأس الانسان . ان الصحابة الشجعان لسنة ٦٢٤ ـ ٦٢٥ ـ ٦٢٧ حاولوا ان يتحملوا ، وترنحوا ، خطوة للامام ، وخطوة للوراء . لقد تقدموا بما استطاعوا التقدم .

قضية النساء هذه ، مهما كانت مشوشة ، لها مظهر ايجابي : انها رصت صفوف الرجال . وأكثر من أي وقت آخر تبين لهم ان لكل منهم حاجة للآخر للدفاع ضد الاعداء في منازلهم كما على ساح المعركة . وتلاشت الخلافات والكراهية لتترك المكان لشركة نشيطة ، ولكن ، ومن أجل مقاومة جادة ، توجب ايجاد قائد ، من بينهم يكون له الاعتبار والتقدير من النبي ﷺ . ولسوء حظ النساء وجد واحد ، من مستوى عمر بن الخطاب الصحابي المفضل .

مراجع وهوامش الفصل ٧.

١ ـ القرآن السورة ٨٧ آية ٩ .
٢ ـ الاصابة ـ جزء ١٣ ص ٢٢٤ .
٣ ـ ٧ ـ ذات المرجع .
٨ ـ محمد ـ مرجع سابق ص ١٩٨ .
٩ ـ السيرة ـ جزء ٣ ص ٩٦ .
١٠ ـ فتح الباري مرجع سابق جزء ٨ ص ١٤١ .
١١ ـ محمد مرجع سابق ص ٢٨٦ .
١٢ ـ السيرة جزء ٤ ص ٤٧ ـ تاريخ الطبري جزء ٥ ص ١٢١ ـ ابن عساكر تاريخ دمشق العدد المكرس للنساء ، قدم له سكينة الشهابي .
١٣ ـ فتح الباري جزء ٨ ص ١٤١ .
١٤ ـ تفسير الطبري جزء ٢٢ ص ١٠ .
١٥ ـ تفسير الطبري جزء ٢٢ ص ١٠ .
١٦ ـ ترجمة ـ المؤلفة ـ وترجمة س. شير .
١٧ ـ تفسير الطبري جزء ٢٢ ص ١٠ .
١٨ ـ القرآن سورة النساء آية ٧ .
١٩ ـ ٢٠ ـ تفسير الطبري جزء ٨ ص ١٠٧ .
٢١ ـ حول العبودية انظر ـ الطبري جزء ٨ وأحمد محمد الحوفي السبية والأمة ، والمرأة في الشعر الجاهلي ـ دار النهضة : القاهرة . وفصل كتاب صالح أحمد علي المكرس لتحليل بنية المجتمع البدوي ـ محاضرات في تاريخ العرب ـ وكتاب جرجي زيدان : التمدن الاسلامي ـ وفؤاد عبد المنعم أحمد مسألة الرق ومبدأ المساواة في الاسلام .
٢٢ ـ الاصابة ـ مرجع سابق جزء ٨ ص ٢٥٨ .
٢٣ ـ تفسير الطبري ـ جزء ٩ ص ٢٥٥ .
٢٤ ـ ذات المرجع جزء ٨ ص ١٠٥ .

٢٥ ـ القرآن .
٢٦ ـ تفسير القرآن للطبري ـ جزء ٨ ص ١٠٧ .
٢٧ ـ ذات المرجع جزء ٨ ص ١١٣ ـ تذكر لهذا الاكراه يوجد اليوم في التشريعات الاسلامية المتعلقة بالأسرة ، أي اختيار للخلع ، المقدم للمرأة التي تطلب الطلاق : عندئذ يترتب عليها دفع مبلغ لزوجها اذا قبل ان يمنحها حريتها .
٢٨ ـ القرآن ترجمة ماسون ص ٩٨ .
٢٩ ـ التفسير ـ مرجع سابق جزء ٩ ص ٢٥٥ .
٣٠ ـ ذات المرجع جزء ٨ ص ٢٣٥ .
٣١ ـ ذات المرجع .
٣٢ ـ ذات المرجع جزء ٩ ص ٢٥٥ .
٣٣ ـ القرآن ترجمة ماسون ص ١٠١ .
٣٤ ـ ذات المرجع ص ٩٩ .
٣٥ ـ التفسير للطبري مرجع سابق جزء ٧ ص ٥٦١ .
٣٦ ـ ٤٢ ـ ذات المرجع ـ الاجزاء ٧ ، ٣ ، ٦ ، ٧ .
٤٣ ـ انظر سيرة عمر في كتاب الاصابة جزء ٤ ص ٥٨٨ .
٤٤ ـ التفسير جزء ٨ ص ٢٦٦ .
٤٥ ـ القرآن ترجمة ماسون .
٤٦ ـ التفسير جزء ٩ ص ٢٥٦ .
٤٧ ـ ذات المرجع جزء ٨ ص ٢٦١ .
٤٨ ـ ذات المرجع المذكور ـ تحت الرقم ٢١ اعلاه .
٤٩ ـ موريس لومبارد : الاسلام في عظمته الأولى طبعة فلاماريو ١٩٧١ ص ٢١٢ وما يليها
٥٠ ـ مروج الذهب للمسعودي ص ٦١٢ .
٥١ ـ ٥٣ ـ مروج الذهب للمسعودي ص ٦١٤ .
٥٤ ـ الطبري محمد خاتم الانبياء ص ٣٠٩ .
٥٥ ـ ذات المرجع .
٥٦ ـ التفسير ص ٢٦١ .
٥٧ ـ القرآن سورة ٤٨ آية ٢٠ .
٥٨ ـ ٥٩ ـ محمد مرجع سابق .

٦٠ ـ ذات المرجع ، وانظر أيضاً القصة المفصلة جداً لهذه المعركة وفتح الطائف في السيرة جزء ٤ ص ٨٠ .
٦١ ـ ٧٠ ـ ذات المرجع ص ٢٩٦ و٢٩٩ و٣٠٠ .
٧١ ـ انظر قضية للاموال ونساء وأطفال هوزان الاسرى في سيرة ابن هشام ص ١٣١ جزء ٤ .
٧٢ ـ محمد والمدينة ـ واط جامعة اكسفورد ١٩٥٦ .
٧٣ ـ القرآن سورة ١٩ آية ١٣ .
٧٤ ـ محمد ﷺ ، مرجع سابق ص ٣٢٠ .
٧٥ ـ ذات المرجع ـ ولتفصيلات اكثر انظر تاريخ الطبري جزء ٣ ص ٢٢٨ .
٧٦ ـ ذات المرجع .
٧٧ ـ مروج الذهب جزء ٣ ص ٣٢١ .
٧٨ ـ ذات المرجع .
٧٩ ـ محمد خاتم الأنبياء مرجع سابق ، وللكثير من المعلومات حول مسيلمة انظر السيرة ص ٢٣٢ وما يليها ص ٢٤٧ وما يليها . وتاريخ الطبري جزء ٣ ومروج الذهب إلخ .

- ٨ -

عمر ونساء المدينة

كان عمر ، قبل ان يصبح مسلماً ، أحد أعيان قبيلة قريش ، وكان يمثل أحد أعداء النبي ﷺ الأكثر عنفاً[١] . وقد كان هكذا لأنه كان برايه الذي « زرع الشقاق في صفوف قريش بانتقاده لطقوسهم وإهانته لآلهتهم »[٢] . وكان اعتناقه للاسلام موضع عجب كبير للنبي ﷺ : فيه ، كسب من أجل قضيته أحد رجال مكة الأقوياء . وما أن اعتنق عمر الاسلام « حتى انقلب ضد القرشيين وجابههم حتى انه شق طريقه بالقوة نحو الكعبة (المكان المقدس) . وكان أول من جرؤ لاكمال الصلاة فيها وصلينا معه »[٣] .

إن محمداً (ص) الذي كان اعجب به قبل اسلامه ، سوف يوليه انتباهاً خاصاً ، كان يحب فيه تصلبه فيما يخص العدالة ، ولقبه بالفاروق « الذي لديه قدرة التمييز بين الحق والباطل » الأمر الذي لم يكن سهلاً بالنسبة لمعتنقي الاسلام الجدد[٤] . وقدر فيه أيضاً ذهنيته الناقدة . فبرأي عمر ، ان على العربي « ان يتحقق إلى أين يقوده رئيسه » ، ولا يجب عليه ان يطيع أوامره على عماها[٥] .

عندما أصبح عمر خليفة ، فيما بعد ، اعطى نموذجاً للخليفة المثالي ، الذي جعلنا نحب الاسلام ، في كتب تاريخ المدرسة الابتدائية : حاكم يصغي

للمحكومين ، وبخاصة انه يدافع عن الفضيلة ويزدري الاثراء إلى حد الاملاق : « كان عمر يعيش ببساطة ، يرتدي ثياباً خشنة ويبدو صارماً بالنسبة لكل ما يتعلق بعبادة الله (. . .) كان لباسه يتألف من جبة مرقعة بقطع من الجلد و (مواد أخرى) وعباءة كان يتدثر بها . وبالرغم من التكريم الذي كان يتلقاه في القسمة ، لم يكن يتردد في حمل قربة على كتفه . وكان عنده في العادة مطية جملاً يحمل عليه متاعه ويشده بحبل من ألياف النخيل . وتلك هي كانت عادة ولا ته ، رغم اتساع الامبراطورية ووفرة الثروات التي منحها لهم الله »[٦] .

اذا كان عمر يتمتع بكثير من المزايا الرائعة، فإن المؤرخين المسلمين ، الذي يسجلون كل شيء عندما يتعلق الأمر بشخصية تاريخية، بما في ذلك عيوبه ، فقد وصفوا أيضاً طبعه النزق ، العنيف مع النساء. وقد سبق للطبري ان ذكر أن امرأة رفضت أن تتزوجه في الوقت الذي كان فيه خليفة ، مع اللقب المفروض لأمير المؤمنين الذي كان أول من حمله ، وذلك لأنه « كان فظاً شديداً على النساء » ، ويقصد بهذه المرأة أم كلثوم شقيقة عائشة[٧] .

لم تكن صدفة اذن ، ان يصبح الناطق الرسمي للمقاومة الذكورية ضد مشروع المساواة النبوي . انه رجل ذو هبة لدنية استثنائية ، وكان مساهماً في دعم بقاء الوضع القائم في النطاق العائلي . فبالنسبة له ، كما هو بالنسبة لكل الصحابة الكثيرين الذين يمثلهم يجب ان تقتصر التغييرات التي يجب ان يدخلها الاسلام ، على الحياة العامة والحياة الروحية . أما الحياة الخاصة فيجب ان تبقى محكومة بعادات الجاهلية ، العادات التي كان محمد وربه قد رفضاها وأداناها منذئذ بانها غير متماسكة مع النظام الجديد للقيم الاسلامية ، الذي يؤكد على المساواة للجميع بما في ذلك المساواة بين الجنسين . كان الرجال مهيئين ليعيشوا الاسلام كثورة علاقات في الحياة العامة ، وقلب الطبقيات السياسية والاقتصادية ، ولكنهم ما كانوا يريدون ان يغير الاسلام كيفما كان الأمر ، في العلاقات بين الجنسين . . كانوا يشعرون بارتياحهم في تقليد الجاهلية عندما كان الأمر يتعلق بالأسرة والعلاقات مع النساء وبخاصة المكيون أمثال عمر ، الذين فوجئوا منذ وصولهم إلى المدينة بحرية تفكير النساء وحريتهن بالعمل . كانت نساء الانصار

يشكلن موضوعاً هاماً وشاغلا ، وعبّر عمر عن هذا كما يشير إلى ذلك البخاري في صحيحه حيث قال : « وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الانصار اذ هم قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار فصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني فقالت ولم تنكر أن اراجعك فو الله ان أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وإن احداهن لتهجره اليوم حتى الليل فأفزعني فقلت خابت من فعل منهن بعظيم . . . »[9] . ما كان يخافه عمر قد حصل : استقلال نساء الانصار الذاتي ورفضهن لكل وصاية كانت اكتسبتها منازل قريش . فزوجته الخاصة التي كان يكمدها في مكة تعانده الآن وتبرر سلوكها مشيرة للرجل النموذج: النبي ﷺ. فبعد هذا هل يستطيع عمر الادعاء بأن يعامل، بأفضل من هذا. فاذا كانت نساء النبي ﷺ ترفع الصوت وتعبر بحرية عن غضبهن بحضور زوجهن، فإن على الصحابة تبني هذا الوضع الجديد. إن اولئك الذين كانوا قرروا الاقتداء بالنبي ، علموا انهم لم يختاروا طريقاً سهلة لكن ان يفرض عليهم العيش مع تمرد في العائلة فذلك مطلب يتجاوز بعيداً قدرتهم على تمثل التغيرات .

إن عمر لم يكتف بأن يعنف زوجته ، لكنه وقد اذهلته فكرة امتداد التمرد ، اسرع الى ابنته حفصة ، التي كانت احدى زوجات النبي ﷺ ليسالها . .

« أي حفصة اتغاضب إحداكن رسول الله اليوم حتى الليل ، فقالت نعم ، فقلت خابت وخسرت ، أفتأمن أن يغضب الله لغضب رسوله فتهلكن لاتستكثري على رسول الله ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه واسأليني ما بدا لك ، ولا يغرنك ان كانت جارتك هي أوضأ منك واحب إلى رسول الله يريد عائشة . . . »[10] .

ولكنه لم يكتف بالتحدث إلى حفصة ، ابنته ، ودفع به الحماس إلى الذهاب لنساء النبي ﷺ الآخريات ليعظهن بالرقة تجاه الزوج المثالي . لقد جال اذن على نساء النبي الآخريات منبهاً لهن بأن لا يرفعن صوتهن أمامه أبداً . ومضى كل شيء بسلام إلى أن وصل إلى أم سلمة ، فأثارتها حالته : إذ كيف يتجاسر عمر على التدخل في شؤون حياتها الصميمية الخاصة بها ، وعلاقتها مع زوجها وتقديم نصائح لها في هذا الشأن ؟ . ولم تتردد في الزامه حده امام زوجات النبي ﷺ

الأخريات اللواتي تعجبن من شجاعتها ، فقد صرخت به : «ولكن لماذا تتدخل في الحياة الخاصة للنبي ﷺ ؟ . لو أراد هو ان يقدم لنا نصائح من هذا النوع ، لكان فعل . وهو جدير بذلك فلأي إنسان آخر إن لم يمكن للنبي ﷺ ، يمكن ان نوجه طلباتنا ؟؟ . هل نتدخل بما يجري بينك وبين زوجاتك ؟ »[11] .

كان عمر يتمتع بالكثير من المزايا، ولكن قلما كانت الرقة واللطف مصدر قوة لديه . عندما أصبح أبو بكر خليفة بعد موت النبي ﷺ بدأ بالاهتمام بمن سيخلفه وطلب راي من يحيط به حول عمر كمرشح ، فشكا الكثيرون من غلظته ومزيج لا يمكن فهمه من الصلابة والعصبية وكثافة الظل[12] .

وبعد حادثته مع أم سلمة ، اتت زوجات النبي ﷺ الأخريات كوفد ليشكرن هذه التي اعجبن بشجاعتها وتمنين لو انهن يملكن مثلها ويسلكن مسلكها . الا انه لم يكن لهن قوة شكيمتها[13] .

وعندما قرر عمر لنفسه أخيراً أن يشرك النبي ﷺ بمخاوفه من الخطر المحيق بالرجال ، اجابه النبي ﷺ مبتسما[14] . ان ابتسامة النبي كانت اكثر من ابتسامة . كانت تكوّن سلاحه من الاقناع الأكثر يقينية . ان ابتسامة النبي ورقته ، وبشكل مناقض ، بين الأعراب الذي كانوا ينشدون في أشعارهم شراسة المحارب ، مارستا قوة هبة لدنيه . « كان في وجهه من الرقة بحيث اذا وجد المرء نفسه مرة في حضرته لا يمكن له ان يفارقه »[15] .

إن الفارق في الموقف بين النبي ﷺ وعمر ، امام خطر تمرد محتمل لنساء قريش ، وعدم مبالاة الأول واضطراب الثاني ، عكس ، خارج الفوارق بين الشخصيتين ، مرؤتين متعارضتين تماماً في العلاقة الزوجية . وبخاصة استعمال العنف ضد المرأة . لقد فاجأ النبي جميع من يحيط به برقته مع نسائه ، لأن الكثيرين من الصحابة ، وعلى رأسهم عمر لم يترددوا عن صفعهن . انه حول هذه المسألة من العنف المادي ، سوف تصاغ مطاليب النساء من جهة ، ومقاومة الرجال الصلبة من جهة أخرى . إن انقسام الجماعة هذا الذي طبق سوف يعرض بقاء الاسلام للخطر

جدل حول اللواط

كما تخوف عمر ، فإن نساء الانصار هن اللواتي سوف يطلقن القطيعة بين النساء المدعومات من النبي ﷺ ، والذي كان على الاغلب تحت شكل الاصغاء لهن بانتباه ، وبين ، السكان من الذكور ، الذين كان عمر الناطق باسمهم . إلا ان الله ، في هذه المرة ، سوف يحكم خلافاً لنبيه لأن بقاء التوحيد ذاته كان مهدداً .

حدثان اثنان سوف يستخدمان كصاعقين مفجرين ، أولهما كان يتعلق برفض امرأة انصارية بعض الأوضاع الجنسية التي كان زوجها اراد منها ان تتحملها ، والثاني خصام زواجي استعمل فيه الزوج العنف . ولجأت المرأتان في الحالتين للنبي ﷺ وطلبتا الفصل في الأمر ، بصفته حكماً . وكما ان تحكيمه كان متعلقاً بالارادة الالهية ، فقد انتظر محمد ﷺ الوحي من السماء ، واعطت السماء الحق للرجلين . اثناء هذين الحدثين ، لعبت أم سلمة وعمر دور الوسيط عند محمد ﷺ ، وتكلم كل واحد منهما عن جنسه ودافع عن مصالحه .

بماذا تعلق الموضوع بكل دقة ؟؟ . كان رجال قريش « يتمتعون بنسائهم من الأمام والخلف » وهذه الممارسة كانت مجهولة عند المدنيين[١٦] . وأتت امرأة من الانصار لترى أم سلمة وطلبت إليها طرح المسألة على النبي ﷺ . ودعا النبي ﷺ ، حسب العادة ، الشخص المعني ليعلمه بالجواب من الوحي به من السماء . وعندما حضرت المرأة امام النبي ﷺ ـ الحكم ، المشرع تلا هذه الآية ٢٢٣ من السورة/٢/ التي تعطي للرجال وحدهم المبادهة في مادة الاوضاع الجنسية « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم انى شئتم . . . »[١٧] .

ويعلمنا الطبري ، عبر عرض مؤتمر للشهود ، ان هذه الآية ، البعيدة عن قفل باب النقاش ، لم تفعل سوى معاودة اطلاقه . بعضهم قال إنه اتاح اللواط ، وقال البعض الآخر أنه حرّمه . .

نحن ، والطبري معنا ، أمام إحدى هذه الآيات الغامضة ، القابلة للعديد من التفسيرات والتي تفرض اذن على الإمام الذي يشرع بتفسير القرآن أن يضاعف من يقظته . إن الطبري المدقق والمماحك يحيط نفسه باحتياطات جمة : لقد تفحص بدقة إحدى وأربعين شهادة ، ورأياً ، واقتراحاً . بعضها يقول ، ان الآية تضفي القداسة على حق الرجال باللواط بنسائهم . انه لم يهمل أية وجهة نظر ، وأكثرها مثاراً للضحك لها الحق بأن تذكر : « قال لي عبد الرحمن (. . .) لقد قيل ليزيد بن الأصلم : « إن محمداً بن المنكدر ينصح الرجال بعدم اتيان النساء في ادبارهن » . قال يزيد : « وحياة محمد . اشهد انني سمعت محمد بن المنكدر يقول ، إنه بذاته مارسه »[١٨] .

ما كان مؤكداً ، اذن ، هو ان السماء ، بهذه الآية قد ساندت الرجال : كان لهم الحق ان يتخذوا الأوضاع التي يريدونها ، وليس للنساء الاحتجاج ، وليس لهن الا ان يخضعن لنزواتهم. هذه الآية أبعدت النساء على كل حال عن النقاش، وبهذا ، حولت مضمونها هكذا، الذي انخفض للجدال في المسالة التالية : هل للرجال حق في اتيان نسائهم في ادبارهن ؟ .

من جهة أخرى فإن نصاً واضحاً سوف يعيد كتابة أصل هذا النقاش ، حاذفاً تساؤل المرأة الأنصارية لكي يبد لها بمسألة ذكورية : فلم تعد، حسب هذا النص ، النساء هن اللواتي اطلقن النقاش ، وانما الرجال . . لقد كان هؤلاء يثرثرون وأخذوا يبوحون بأسرارهم لبعضهم حول مختلف الأوضاع الجنسية ، وعثروا بالكلام حول اللواط . وعرضوا أن يعرفوا جيداً موقف الاسلام فيما يتعلق بهذه الممارسة . وعلى ذلك قرروا الذهاب لمقابلة النبي ﷺ ليطرحوا عليه المسألة .

ونص آخر يضع في المشهد يهودياً من المدينة . اذ كان يتناقش مع مسلم كان أسرَّ له بأنه يأتي امرأته من الخلف. وصرخ اليهودي مرتعباً: «لكنكم كالحيوانات ، نحن (أي الجماعة اليهودية) لايوجد عندنا الا طريقة واحدة لممارسة الجنس مع نسائنا »[١٩] . ونص آخر يقول : إن الله كان تدخل فعلاً لأن يهودياً كان قال إلى المسلمين : « عندما يأتي رجل زوجته من الخلف فإن الولد الذي يأتي من

هذا الجماع سيكون أحولاً »[٢٠] . فبهذه الآية كذب الله ما قاله اليهودي .

إن هذه الآية ، التي تعرض نقاشاً كاشفاً بصورة خاصة تسمح لنا بادراك عمق المسألة التي يحاول هذا الكتاب توضيحها ألا وهي: استعمال المقدس من قبل الرجال بهدف اضفاء الشرعية على بعض الامتيازات التي تعتبر ذات طبيعة سياسية أو جنسية. فبعد ثلاثة قرون، يحاول الطبري بصفته اماماً مساعدة المؤمن لتوضيح معنى الآية، والنقاش مفتوح دائما .

وما زال يجري النقاش عما اذا كان للمسلم الحق باللواط بزوجته الأمر الذي يبدو لي مهما، ذلك ان النقاش لم يغلق مطلقا في الأدب الديني الاسلامي ، وكل جيل يعاود الجدال فيما تركه اجداده دون الوصول إلى نتيجة مثمرة، لماذا؟ لأنه ، من أجل الحسم ، فإن على حضارة تحكم حياة ملايين الأفراد ان تستخلص مبادىء عامة ، إن لم تغص في الذمامة (علم القضايا الضميرية) والتجريبية . ومهما كان الطبري لامعاً فإنه قلما ساعد معاصريه على حل هذا الجدل ، تاركاً إياه ليغوص في اعتبارات تذكر بشكل غريب بعصر الجاهلية من نوع : « نعم ، لي الحق باللواطة » ، « لا ليس لك حق باللواطة . » . غير محاول ، استخلاص مبادىء تقنن ما هو مباح وما هو محرم في العمل الجنسي الغريب ، ومذكراً بمساواة الشريكين بصفتهما مؤمنين ، وغير متجاوز العارض للوصول إلى المبدأ : فالعمل الجنسي يتطلب ارادتين متميزتين ، انه علاقة بين مؤمنين مع حاجات ورغبات لا تتطابق الزاميا . إن هذه الخشية من الإمام ، أمام ضرورة استخلاص مبادىء تجعل الآيات قابلة للتطريق والتلاؤم لمستوى تفسيرها البنيوي الشبه تأسيسي .

لقد أضاف الطبري رأياً اضافياً ، رأيه الخاص وهو : إن الآية تسمح للرجل أن يجامع امرأته عندما يريد ، وكما يريد من الأمام أو الخلف ، والجوهري هو أن يدخل بطريق الفرج ، المكان الوحيد حيث الحرث (المني) وامكانية زرع الولد ، تكون مضمونة[٢١] .

فاللواط كان اذن ، بحسب رأيه ، ممنوع شكلياً . أما المسالة الأساسية التي وضعتها هذه الآية : المبدأ الذي يحكم في الاسلام دور المرأة اثناء العمل الجنسي فإنه بقي بدون جواب . هل توجد أم لا توجد ارادة المرأة كشخص مسلم ؟؟ هل

توجد حالات تأكدت فيها هذه الارادة وغيرها حيث تلاشت ؟؟ لأن تلك كانت الرسالة الرئيسية التي حاولت النساء الحصول عليها من السماء . إن القوانين الجاهلية كانت واضحة جداً هنالك طالما أنه كان يمكن للمرأة أن تورث ، وتؤخذ عند الغزو كسبية ، وترد إلى الرق ، خلافاً للرجل الملغى مادياً من حيث المبدأ من القبيلة ، بعد المزيمة ، وارادته يمكن ان تكون لذاتها معلقة في بعض الظروف .

إن المسلمين الأوائل ، عبر الإرث ، والحق في الحرب والغنيمة ، والأوضاع الجنسية ، والعنف المادي ، دفعوا النبي لأن يطلب من الله رب المسلمين أن يحكم حول محل إرادة المرأة ، بصفتها مؤمنة في الجماعة الجديدة . ولكن الأئمة ببقائهم على مستوى الحالات التجريبية قلما ساعدوا الاسلام على استخلاص نظرية الانسان ، الارادة الحرة المصونة والثابتة التي لاتزول في الاحوال المستقرة .

العبودية

لم تكن النساء لوحدهن اللواتي هن بحاجة في ذات الوقت لأكمال تحريرهن وسجنهن . . إن وضع الاسلام تجاه العبدمماثل لدرجة ما : فمبدأ المساواة لكافة المؤمنين وضع من قبل النبي ﷺ ونظم بالقرآن الذي أدان العبودية . أما ان يكون المسلمون قد اطاعوا أوامر الله ونبيه بخصوص العبودية فهي قضية اخرى : « لم يلغ الاسلام العبودية بشكل مذهبي كما هو الحال أيضاً في الديانتين الأخريين الموحدتين ، اليهودية والمسيحية ، والذي تفرع عنهما ؛ ولكنه على غرار سلفيه ، ومع طريقة مختلفة إلى حد ما ، التزم بتخفيض المؤسسة ، وتخفيف مظاهرها القانونية والاخلاقية »[٢٢] . فالاسلام وضع اذن مبدأ للمساواة واتخذ موقفاً له ضد العبودية بدئياً « في بداية نهاية النبوة ، جعل من تحرير العبيد علامة تستحق الذكر ، عمل خير »[٢٣] . وشجعت آيات كثيرة على تحرير العبيد كعمل من أعمال الايمان والضمير ، وهو ما أتت به الآية ١٧٧ من سورة/٢/ :

«ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب»[٢٤] وتوجد الفكرة نفسها في الآية ١٣ من السورة ٩٠ و ٦٠ والسورة ٩ الآية ٩٢ من السورة /٤/ ٠ ولسوف يعطي النبي ﷺ المثال بتحريره اثني عشر عبداً ، منهم أبو بكره الذي أتينا على ذكره سابقا . وببساطه ، نشير ، الى انه في حصار الطائف ، عندما استجاب ١٢ شخصاً من العبيد لنداء النبي ﷺ ، تركوا الحصن وجاؤوا للحاق به عندما اعلمهم انهم اذا اعتنقوا الاسلام سيصبحون رجالاً احراراً ، وأبو بكره بقي وحده مع النبي ﷺ ، و« تفرق الآخرون »[٢٥] . فلا يجب إذن ، أن يؤخذ اقتراح محمد أمام الطائف كمسيرة تجنيد بسيطة ، لقد كانت طريقة لابراز رسالة المساواة للدين الجديد .

لقد أكد الاسلام فيما بعد جدارة العبد بصفته شخصاً بشرياً ليعمل على مستوى القواعد التي تمس « بالعلاقات الاجتماعية ، ومن نوع جنسي » ، وبخاصة تحريم بغاء النساء العبدات . وليضع الاسلام حداً لهذا البغاء ، سوف يشجع المسلم لتزويج العبيد « الفضلاء » . ولكن القرار الاكثر بروزاً يبقى ذلك الذي يسمح بزواج الرجال والنساء الاحرار مع العبيد (المسلمين بداهة) ويعطى النبي المثال بذاته، بأن يحرر بعض النسوة أسيرات الحرب، قبل ان يتزوجهن. ذلك كان حال جويرية بنت الحارث. فبعد هزيمة قبيلتها،أصبحت بصفتها (سبية) جزءاً من غنيمة جيش المسلمين الظافر. وبعد قسمة الفيء حسب القواعد، خرجت في نصيب أحد جنود المسلمين ، ثابت بن قيس. مع ذلك ، وبما انها من أصل اريستوقراطي تفاوض معها على طريقة تحريرها، مقابل فدية تدفعها له. وعندما مثلت عند النبي ﷺ لكي تعرض له حالها، اعجبته واقترح عليها حلاً آخر : يدفع النبي الفدية الواجبة إلى ثابت، ثم يعتقها ويتزوجها عندما تصبح امرأة حرة[٢٦]. وأجرى الشيء ذاته وبنفس الطريقة مع صفية، أسيرة حرب يهودية التي خرجت هذه المرة بنصيبه عند قسمة الغنيمة،وكان ذلك بعد حملة خيبر ضد

اليهود. فصفية كانت اذن سبية، وبصفتها تلك ردت آليا للعبودية، فعرض عليها النبي ﷺ ان يتزوجها، بعد ان يحررها.

وكما كان الأمر بالنسبة للنساء، تداخل الاسلام عبر العبيد، في الحياة الخاصة للافراد وقلب التصرفات السلفية. ان تحرير العبيد شيء، ومعاملتهم بالتساوي شيء آخر. فعندما قرر النبي اناطة القيادة العسكرية بأسامة بن زيد، أحد عتقاء النبي ﷺ، قاوم رجال الجند، وفي الواقع كانت المقاومة عنيدة اكثر منها عندما ارادت النساء المس بامتيازاتهم: «أعلم الرسول ﷺ بأنه كان يوجد، على حدود سورية، حركات وتجمعات جنود رومان. ورغم مرضه أعطى الأمر للمسلين ليستعدوا للذهاب إلى سورية، وسمى اسامة بن زيد رئيس البعثة. واقام اسامة مخيمه على أبواب المدينة، واتم الجميع استعداداتهم. مع ذلك أخذ الجنود يتهامسون قائلين: جعل من ابن عتيقه زعيم المهاجرين من قريش والانصار. وأعلم الرسول بأقوالهم فقال: إنه جدير بالقيادة، وعندما وضعت اباه زيداً بن حارثة، على رأس جيش مؤتة، حصل الكلام ذاته. وعندما جاء اسامة للرسول، جذب رأس هذا القائد إلى صدره وقال له: لا تحزن مما يقوله الرجال؛ فلقد قالوا ذات الشيء عن والدك وكان جديراً بالقيادة؛ وانت شبيه به. لقد جلله بالمديح وغمره بالتشريف. ولزم اسامة مخيمه، وبعد أن اكمل الجند استعدادهم أتوا اليه كذلك»(٢٧).

حتى في حياة الرسول، كانت المقاومة، ضد هذا المشروع من التساوي، بأن يكون الناس احراراً، حية ودائمة: فخلال جيل، لم يبد ابن عتيق جديراً بالقيادة العسكرية. ان مطالبة العبيد بالمساواة، عرضت للخطر، كما هو الحال في قضية المرأة، مصالح اقتصادية ضخمة: «إن الرق لم يكن يغذى الا بمصدرين شرعيين: الولادة في العبودية، والأسر في الحرب»(٢٨). وسيحاول الدين الجديد التدخل في هذين المستويين. ففيما يتعلق بالأسر، رأينا آنفاً عند موقعة حنين، ان مسلماً لا يجوز ان يقع في حالة العبد من قبل مسلم آخر، وانه في عمله على مستوى الولادة، قلب الاسلام النظام بصورة نهائية: إنه يعلن ان الولد المتولد من قران بين رجل حر وامرأة رقيقة هو ولد حر. لكن رغم كل التصريحات المبدئية

المؤكد عليها بوضوح في الآيات الموحى بها والأمثلة التي ضربها النبي ﷺ ، سيبقى المجتمع الاسلامي مجتمعاً عبودياً لقرون طويلة ، ولا يتراجع عنه الا تحت ضغط القوى الاستعمارية في القرن العشرين . ان هذا المدار للرقيق هام في تتبعه لفهم الموقف تجاه النساء ، الذي حوفظ عليه حتى ايامنا هذه .

إن الامثله التي ترد للذهن المتعلقة بالرقيق هي التالية : بما ان الاسلام حرَّم الرق ، فكيف امكن له ان يستمر في الوجود ؟ بخدع لفظية وقانونية كما على الدوام . سيتلاعبون بهوية الرقيق . هل منع الاسلام رد مسلم الى الرق ؟ لم يحصل هذا وسيبحث في مكان آخر، سيكون غير المسلمين من يرد الى العبودية. سيستفاد من عصر الفتوحات لرد المغلوبين الى الرق . لم يكن الاسلام ليستطيع البقاء إلا «بالمعونة الآتية دون توقف من عناصر مجاورة أو خارجية ، مأخوذة في الحرب مباشرة أو مجلوبة تجاريا (تحت ذريعة الحرب المقدسة) من أقاليم أجنبية»[٢٩] ، الـ(أقاليم الاجنبية) التي وضعت تحت اسم دار الحرب ، بمقابل دار السلام ، أرض الاسلام . ان الرق ومصير الرقيق ، بسبب التناقض الذي يشكله بالنسبة لمبدأ المساواة ، هو أحد الموضوعات الثابتة لدراسات من جانب الفقهاء (الخبراء في العلوم الدينية) أكثر مما عند الفلاسفة والمؤرخين[٣٠] .

بعد وفاة الرسول بأ ربعين سنة ، يشتري الخليفة معاوية نساء رقيقا (يسمين عندئذ جواري) لكي يتملق خصمه السياسي الحسين بن علي ، وحالة، هوى، تلك الجارية التي استعملها الخليفة كهدية، بعد بضع عشرات من السنين من وفاة النبي ﷺ ، حالة كاشفة بمقدار كبير اذ ان هذه تعرف القرآن ـ الأمر الذي كان فيما سلف مزعجاً بذاته : امرأة تعرف الكتاب المقدس دون أن تشجع لتصبح مسلمة . « قدمت إلى معاوية جارية اعجبته. فسأل عن ثمنها . . فقيل له ان ثمنها يساوي مائة درهم . فاشتراها (. . .) وقدمها للحسين بن علي . وأوصلها إليه مع كثير من المال والمرتبات . . . »[٣١] . وكان الحسين مؤمناً متحمساً يضع الدين موضع التطبيق . وعندما تلقى الجارية كهدية ، طرح عليها بضعة اسئلة أولية وقرر على الفور تحريرها .

إن حوارهما، يدين ببساطته معاوية بصفته خليفة محمد على رأس الجماعة الاسلامية . انه متخصص جداً بحيث ان الحسين كان «فتن بجمال الجارية».

الحسين : ما اسمك؟

الأمة : هوى (رغبة) .

الحسين : اسم يليق بك ، وماذا تعرفين من عمل .

هـوى : اقرأ القرآن وأروي الشعر .

الحسين : اقرأي لي قليلاً من القرآن .

هـوى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو . . . » (الآية ٥٩ من السورة ٦) .

الحسين : وهل يمكنك الآن تلاوة بعض الأشعار ؟ .

هـوى : هل يمكنني الكلام دون مراقبة ؟ وهل تضمن أمني ؟ .

الحسين : نعم .

هـوى : « صحبتك سوف تعطي السعادة التامة ، لو أمكن لها أن تدوم . لكنه من المؤكد ان الإنسان بطبيعته موقت »[٣٢] .

ويقول المؤرخون إن الحسين أخذ يبكي وقال لهوى : «انت حرة وكل ما ارسله معاوية من أموال يعود لك (. . .) ونهض ليصلي »[٣٣] . إن القول بأن كل المسلمين بقوا من أنصار الرقيق ، قول مبالغ فيه جداً . فلفهم تطور ظاهرة في مجتمع معين ، سواء أكان ذلك بالأمس أم اليوم ، يجب دائماً ان يكون المرء على قدر كاف ليميز مختلف المستويات ، تفاعلاتها وعلاقاتها بالسلطة . لقد تنازل الحسين بن علي ،للخليفة معاوية ، لأنه لم تكن لديه الكلبية Cynisme* الواجبة لينجح في السياسة . موقفه تجاه هوى ، هذه الأمة التي تتعامل بذكاء مع النص المقدس والشعر، انعكاس لشخصيته بصورة عامة، كذلك فان موقف معاوية تجاه هذه (الهوى) نفسها هو انعكاس لشخصيته. ان تاريخ الرق توجب انتهاؤه

★ الكلبية : مذهب يقول باحتقار العرف والتقاليد والرأي العام والأخلاق الشائعة .

عندما ألح المستعمرون بفاعلية لدى الدول الاسلامية، من أجل جرها لتحرير الرق نهائياً . وان الاتفاقية الدولية المبرمة في بجنيف في ٢٥/ايلول/ ١٩٢٦ عرضت على كافة الدول وقد وقعت عليها جميع الدول تقريبا . الجميع تقريباً لأنه بين تلك التي رفضت التوقيع ، كانت العربية السعودية واليمن . والعراق لم يلغ حالة الرق إلا في ١٩٢٤ . ووافقت مصر على ضمانة الحرية الفردية في دستورها سنة ١٩٢٣ . وأخيراً الغته مراكش بمنشور صادر عن الارادة الفرنسية اثناء الحماية.

يلاحظ اذن ، أن المسلمين ، الذين كان بامكانهم منذ القرن السابع ، تطعيم اصدار تشريع يحقق الحلم النبوي بمجتمع متساو ، قد تراجعوا إلى القرن العشرين مع كثير من العناء وتحت ضغط « غير المؤمنين ، واللاأخلاقيين» وبعبارة أخرى المستعمرين ، لالغاء الرق .

العنف ضد النساء

لم يكن المسلمون الأوائل يعيشون ، في الواقع الأرضي حصراً كما نعيش اليوم : بل كانوا يعيشون عصراً ، كانت الأرض والسماء فيه تشكلان افقاً تنتشر فيه المغامرة البشرية . كانت المدينة في سنوات ٦٢٢ (١هـ ، - ٦٣٣ (موت النبي ﷺ) ، مدينة يمكن فيها للجميع بلوغ السماء بغير صعوبة .

لقد كان الرسول منزعجاً . ويورد لنا البخاري حديثاً حيث كان النبي ﷺ يُسأل ويطلب إليه من قبل الرجال والنساء الباحثين عن المعرفة بحيث طلب إليهم ان يتركوه ليرتاح : « قال عمر : عندما تكاثرت النزاعات والخلافات لدى النبي ﷺ ، قال ، لهم ، هذا وهو مرهق : اذهبوا دعوني ارتاح »[٣٤] ، ويذكر ابن سعد « عندما نهض النبي ليمضي إلى بيته ، اسرع الناس حوله وتبعوه »[٣٥] . وكان لزاماً ان يتدخل الله ليحمي راحة رسوله ، الذي تلاحقه جماعة متعطشة للمعرفة ، والشملة بالتماس المباشر مع الاله - القوة ، الاله الشريعة ، الاله - المثل الأكمل :

«إن الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم

صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً والله غفور رحيم».

فيمكن الشكوى لله في أية فترة ، وان يسأل عن هذه المنازعة أو تلك وهو مدعو للفصل فيها ، ورسوله على الأرض كان موضع هجوم من قبل جماعة من المؤمنين يتصايحون أمام بابه ، وعلى الأرجح تحت ضربة غضب تعود للنزاعات التي كانوا يعيشونها في مجتمع في اوج ثورته . « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون »[٣٧] .

مات النبي ﷺ في حين كان له من العمر ٦٣ سنة في ٦٣٣ . والسور التي ناقشها كانت قد اوحيت إليه اثناء السنوات الثماني الأخيرة من حياته . كان عليه آنئذ ان يحل مسائل عسكرية خطيرة وغالبا ما كان يذهب في حملات حربية وعندما كان يرجع إلى منزله ، وبدلا من ان يركن للراحة ، كان يثقل عليه بجماعات من الرجال والنساء جاؤوا يتصايحون بمنازعاتهم امام بابه . لم تعد له طاقة وفوعة الشباب . وكان عمر على العكس من ذلك بأوج قوته وكان تأثيره على النبي ﷺ يمضي في تناميه ، وكان عمره أقل من عمر النبي ﷺ باثني عشر سنة (مات كالنبي عن ٦٣ سنة في سنة ٦٤٤ »[٣٨] .

وفي حين كان النقاش حول الأوضاع الجنسية يحرك المدينة ويقابل نساء ورجالاً ، مع الله ونبيه كحكمين ، تعرضت المدينة لحادث شائن : ذلك ان رجلا كان قد ضرب زوجته .

إن الأئمة الذين يكرسون حياتهم لتفسير الارادة الالهية كان بإمكانهم ان يطوروا اسلاماً يقوم على التساوي انطلاقاً من الآيات التي حصلت عليها أم سلمة من السماء ، والتي تقيم مبدأ المساواة بين الجنسين . ولكنهم بدلاً من ان يذكروا هذه الآيات ، لوحوا جميعهم بالآية ٣٤ من سورة النساء وهي التي كان قد تم « الحصول عليها » بواسطة عمر الذي أصرَّ لدى النبي ﷺ ليضفي الصفة الشرعية على الحق بضرب النساء . هذه الآية مضادة بشكل حازم مع ما سوف نسميه منذ الآن آية أم سلمة ، خصوصا وانها تدخل ، كعامل لاضافة الصفة الطبقية ، الوصول إلى الثروات ، العنصر الذي انتقد كثيراً في الجماعة الاسلامية .

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من أموالهم »[39] . فكيف يمكن تفسير هذا التراجع المزدوج بالنسبة لرسالة المساواة الأساسية : ليست اللامساواة وحدها بين الجنسين قد اقيمت فحسب ، وانما اكثر من ذلك ، أنها بررت بوصول الرجال إلى الثروات التي اقصيت النساء عنها ؟ قبل تفحص ظروف الوحي بهذه الآية يجب التذكر بأن المجتمع العربي في الجاهلية كان عنيفاً لدرجة هائلة نحو النساء ، وكانت درجة العنف تختلف حسب الطبقات ، اختلاف معاملة العبد عند ارستقراطية قريش . واذا اكملنا قراءة الآية ، يظهر لنا ان رب المسلمين يضفي صفة القداسة هنا على حق الرجال بضرب زوجاتهم في حالة النشوز ، أي التمرد ضد السلطة الذكورية : « **فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ان الله كان علياً كبيرا**»[41].

اثناء شجار عنيف ، ضرب رجل من الأنصار زوجته . فأسرعت المرأة الجريحة لعند النبي ﷺ وطلبت إليه : بصفته حكماً ، تطبيق الشريعة ، والتمست القصاص . ووافق الرسول على ذلك فوراً ، واعد العدة لتنفيذ قراره ، عندها أوحي له بالاية . فالله قرر خلاف ذلك ، وأدرك النبي ﷺ ان قراره يخالف حكم الله : فاستدعى الزوج وتلا عليه الآية وقال له : أردت شيئاً واراد الله شيئاً آخر »[42] . ولكن بالتوازي مع هذا التفاوت بين الله ونبيه ، **يجب الاشارة إلى آخر ، إنه التفاوت الذي يعارض النبي ﷺ فيه عمر** .

حسبما يبدو في مسألة النساء ، كان يوجد في الاسلام في المدينة اتجاهان متمايزان تماماً : اتجاه النبي ﷺ الذي لم ينصح باستعمال العنف تجاه النساء واتجاه آخر معارض ممثل بعمر . فكيف العمل من أجل أن لا يصل هذا التباعد بين الرجلين إلى مداه ولتأكيد موقف النبي ﷺ في روح الشرائع الاسلامية ؟ كيف يمكن تفسير ان عدم اتفاق على هذه الدرجة من الأهمية بين النبي ﷺ وعمر ، حول العنف ضد النساء ، لم يشكل موضوع تركيبات ومعالجات فقهية تعيد السنة إلى موضعها في المستقبل . كثير من المسائل التي توصلنا لنفكر بأن عمل تنقيبات

منهجية في الأدب الديني يبقى من الواجب اجراؤه ، وسوف يغني نظرتنا للنصوص القديمة التي تركت حتى الآن لرجال اللاهوت والقانون وحدهم . إن الأولين كالآخرين منهم في أكثريتهم يتكلمون ، وبخاصة في أيامنا ، بخطاب السلطة ، وليسوا معنيين بالضرورة بالمنظورات المساواتية ، تلك التي تهمنا هنا . وعلى كل حال ، ان ما هو يقيني ، ان النبي مقت العنف تجاه النساء وانه استمر على هذا الموقف . « قال النبي ﷺ : لا تضربوا النساء . وفعلاً امتنع الناس عن ذلك . ثم أتى عمر إلى النبي ﷺ وقال له : يارسول الله ، لقد تمردت النساء ضد أزواجهن . فأجاز لهم النبي ﷺ ضربهن ، ولكنه قال : « إن جمعاً من النساء طاف هذه الليلة حول عائلة محمد ﷺ . وكان المقصود ان ٧٠ امرأة كانت جاءت للشكوى من أزواجهن »[٤٣] .

ماذا يقتضيه مفهوم النشوز الذي رأيناه في الآية ٣٤ من سورة النساء المذكورة ؟ انه عصيان فادح من جانب النساء يخول الرجال استعمال العنف تجاههن ، في حين ان كل عنف هو محرم رسمياً بين المؤمنين .

ان الذين ترجموا القرآن ، ممن تربوا في التقليد المسيحي يظهرون مكبوتاتهم ، عندما يتعلق الأمر بترجمة عبارة لها علاقة بالجنس : فريجي بلاشير يترجم النشوز بأنه «عصيان Indocilité»[٤٤] ، تاركاً جانباً بعده الجنسي ، ودينيز ماسون يترجمه بعدم الأمانة «Infidélité» [٤٥] ، مفرغينه هكذا من عبئه المدمر . وعليه ، فإن النشوز ، كما يفسره الشراح المسلمون هو تمرد النساء ، ورفض طاعة الزوج عندما يتعلق الأمر بالعمل الجنسي . فعدم الوفاء ليس سوى امكانية بين امكانيات كثيرة أخرى . وبرأيهم ، ان اكثرها فداحة ، يتكون بالرفض للزوج بكل بساطة : وفي محاولة الطبري لتوضيح هذه الآية ، يؤكد ان النشوز «يعني ان المرأة تتعالى على زوجها ، وترفض الانضمام إليه في فراش الزوجية ، تعبيراً عن المعصية ، وارادة ظاهرة بأن لا تتم ما تفرضه الطاعة للزوج . انه وسيلة تشهد على بغضها للزوج وأعراضها عنه»[٤٦] .

إن ما أخذ به الأئمة اليوم من المعنى الحرفي ، ذلك العنف على مسلمين من الجنس النسوي ، طرح مشكلة خطيرة جداً للطبري . وقد توجب ايضاح سياقها

وتحديد مداها ، للتأكد بأنها لا تشكل ذريعة للفتنة ، والعنف بين المسلمين . ويكرس الطبري سبعة وعشرين صفحة من شرحه ، ولا يقدم أقل من مائتي شهادة متعارضة حول المعنى ليعطيه له . والطبري ، الذي كتب بعد قرن من ابن سعد والذي غالباً ما رجع إلى كتابه ، كان يعلم من جهة أخرى ، ان ضرب الامرأة لا يشكل جزءاً من التقليد النبوي .

« النبي لم يضرب ابدًا بيده لا واحدة من نسائه ، ولا عبداً ، ولا شخصاً آخر »[47] . ان المرة الوحيدة التي وجد النبي نفسه فيها مواجهاً بتمرد منزلي ، لعصيان زوجاته ، ليس فقط انه لم يضربهن ، ولكنه فضل ان يترك منزل الزوجية ، ولدهشة المدينة الكبرى ، أقام وحده خلال شهر تقريباً في غرفة تابعة للجامع : «فاعتزل النبي من أجل ذلك الحديث حين افشته حفصة إلى عائشة وكان قد قال ما أنا بداخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله ، فلما مضت تسع وعشرون دخل على عائشة فبدأ بها فقالت له انك اقسمت ان لا تدخل علينا شهراً وانا اصبحنا لتسع وعشرين ليلة اعدها عداً فقال النبي الشهر تسع وعشرون وكان ذلك الشهر تسع وعشرون»[48] . وكما يبدو فإن هذا الموقف لم ينقل للشوارع ، وكان قد ظهر الفارق بين النبي وصحابته المتعلق بالعنف تجاه النساء : « كان النبي دائماً ضد استعمال الضرب للنساء ، وقد قيل له : يانبي الله ، انهن على أهبة بذر الفوضى »[49] . ولم يفهم الصحابة دائماً لماذا كان النبي يتصرف بمثل هذه المرحمة ، ان لم نقل الضعف وقال لهم أيضاً : « طيب ، اضربوهن ، ولكن اسوأكم هو من يلجأ إلى مثل هذه الطرائق »[50] .

لم يكن لدى عمر أي تشكك بانفاذ هذا ، وروى التاريخ عن ذلك مثالين على الأقل : فهو قد ضرب اخته بمثل هذا العنف بحيث ترك فيها علامات[51] عندما علم ان أخته هذه فاطمة قد اعتنقت الاسلام ، الدين الغريب ، لمحمد ، وليس هذا فحسب بل انها نظمت عندها اجتماعات حيث تعقد جلسات قراءة القرآن وشروحه[52] . والمرة الثانية التي لجا فيها عمر إلى العنف وكان ذلك ضد زوجته جميلة بنت ثابت . فقد اعترف للنبي بأنه صفعها صفعة « الصقت خدها بالأرض »[53] . كانت جميلة أنصارية تنتمي لعشيرة الأوس[54] .

ان ابن سعد الذي عاش قبل الطبري بأربعة أجيال[٥٥] ، أكد على رفض النبي ﷺ التنازل عن موقفه من مسألة العنف : « لقد أصر النبي ﷺ دائماً على معارضته لضرب النساء . وجاء إليه الرجال يشكون منهن للنبي ﷺ ، عندئذ سمح لهم قائلاً : « لا أستطيع ان اتحمل رؤية رجل غاضب ، تحت تأثير الغيظ وهو يهم بضرب زوجته »[٥٦] . فكيف يفسر الطبري العارف بموقف النبي ﷺ الواضح تجاه العنف المادي ، هذه الآية المشكلة ؟ .

لقد بدأ كالعادة ، بذكر الشهادات والآراء : « فالآية ، الرجال قوامون على النساء ، تعني انهم يستطيعون تأديبهن ، واعادتهن الى مكانهن عندما يتعلق الأمر بواجباتهن تجاه الله وتجاه أزواجهن ، وذلك لأن الله فضل بعضهم على البعض الآخر »[٥٧] . والامتياز ، كما يقول لنا ، يتكون في الصداق الذي يدفعه الرجال لزوجاتهم اثناء عقد الزواج ، والنفقة والقيام باعباء معيشة الزوجة طيلة الزواج . وبما انهم ينفقون مالهم فإن للرجال سلطة على النساء (قوامون) . لكن اذا كان كل الخبراء المذكورين متفقون على سيادة الرجال على النساء ، فإنه لا يوجد اجماع على مدى هذه السلطة ، وبخاصة عندما تتعلق بالنشوز ، العصيان في نطاق الجنس .

فاذارفضت المرأة التجاوب للعلاقة الجنسية ، فهل للرجل ان يكرهها أو بكل بساطة ان (يحرد) يقاطعها؟ هل يجب ان (يحرد) ويشاركها في الفراش ، أو يجب ان ينام منفصلاً ، طارداً المتمردة من مخدعه ، ولايكلمها ومع ذلك يستمر في مقاسمتها الفراش ، او على العكس يستمر في مكالمتها مع طردها من فراشه ؟؟ وأخيراً ، هل يجب ان يتوقف عن مكالمتها وانما يجبرها على مضاجعته مع ذلك ؟؟ لقد كان الفقهاء المساكين في كل حالاتهم في حيرة وارتباك .

ولنعد إلى الطبري الذي حلل الآية حسب عادته جملة فجملة . فماذا يريد أن يقول: «واذا خفتم نشوزهن اهجروهن في المضاجع» بعضهم يقول: «ان على الرجل المشاركة في مضجع المرأة بعد ان أقنعها شفاها بالعودة عن قرارها (بالرفض) ، ولكن يجب ان يدير لها ظهره، واذا وطأها يجب ان يفعل ذلك بدون ان يكلمها »[٥٨] . ووجد بعضهم ان هذا التفسير مغلوط بكليته وان الآية تقول مع

انه يجب هجرهن في المضجع فإنه لا يتعلق الأمر اذن بالاكتفاء بعدم توجيه كلام للمتمردة فحسب ، بل يجب منعها من لذة الفراش المشترك : «لا يجب ان يقترب من مخدعها ، على الأقل ، إلى ان تتراجع ، وتعود لوضعها الأساسي وتتبنى السلوك الذي يرغبه»(٥٩). ولكن احدى السلطات المذكورة، لا يفهمها قتادة هكذا. وبرأيه يجب العمل على مراحل: «تبدأ بالاقناع الشفهي: انتبهي يا ابنة آدم (. . .) الخ فاذا استمرت في رفضها . . . تطردها من مضجعك . . . »(٦٠) .

وأخيراً يحتفظ الطبري لنفسه بالتدخل : « النبي ﷺ قال لنا : « يحرم على المسلم استعمال رفض متواصل شفهي مع آخر ، كأجراء عقابي ، لفترة تتجاوز ثلاثة أيام ، ويستنتج اذن : ان الهجر الذي تحدثت عنه الآية لا يمكن ان يعني التواصل الكلامي . ويضيف ، اذا كانت المرأة بنشوز كامل ، وتنكر سلطة زوجها ، فلا توجه لها الكلام أبداً وتحاشى رؤيتها وغمرها بالفرح »(٦١) . فماذا يقترح اذن على الزوج المهان ؟؟ ان الطبري الجاد ، والتقي ، والمحترم لارادة النبي ﷺ ، يرتكب ما اعترف الكثير من الفقهاء والأئمة بأنه خطأ ، انه ينصح المؤمن بأن يقيد (يوثق) بكل بساطة المتمردة : فـ « اهجروهن في مضجعهن » تعني ، اربطوهن بفراشهن » وحجته في هذا من نوع لغوي : « الهجر » كما يفسره هو « الحبل الذي كانت تربط به العرب الجمال »(٦٢) .

ان محمد شاكر ، المتوفى حديثاً مثقف معاصر ، وقد طبع وحقق وقدم الطبعة الجديدة للطبري ، والذي يؤكد انه فعل ذلك ليمنع استعمال الاسلام بعواطف معاصرينا ، ولكنه لم يستطع إلا ان يعارض الطبري في هذه النقطة : « تفسير الطبري في موضوع المعنى الواجب اعطاؤه لكلمة الهجر ، التي اوصلته بدءاً إلى جذر كلمة ربط (. . . . .) إنه فعلاً تفسير غريب . وهو يذكر قائمة من الفقهاء والأئمة الذين وجدوا أن الطبري كان مضللاً بإفراط كبير : « فأي تخلف من جانب أحد كبار الخبراء بالقرآن والسنة . . . كما يقول شاكر . « أي تخلف من جانب رجل على هذه الدرجة من الخبرة في العلوم الدينية واللغة العربية.(٦٣).

وتوجد هنا فكرة عن الصعوبة التي يطرحها تفسير هذه الآية ، ولماذا ان السياسيين الحديثين ، الذين لم يتوصلوا لتمثل فكرة الديموقراطية ، يستعملونها ليضفوا الشرعية على عواطفهم ، دون التوقف لحظة على الصعوبة البالغة التي طرحتها وتطرحها أيضاً على أولئك الذين لديهم بعض الطموح لاحترام الارادة الالهية . انهم يقدمونها لنا اليوم ليؤكدوا على السيادة الذكورية ، كما لو انها تعلقت بآية دون غموض ودون تباين ودون منازعة .

وبالنسبة للنبي ﷺ الذي كان يتلقى مطاليب الصحابة من الجنسين ، هذه المطاليب المتناقضة أحياناً ، والذي كان يعد لانجاح مشروعه الكبير ، وتأتيه موحيات الهية لتعالج موضوعات معروضة، والذي كان يتأثر باعمال بعض الصحابة وبخاصة عمر ممثل التقليد ، كما يتأثر بانعكاسات عميقة وعادات متأصلة ، قد علم انه من المتوجب وقف تأثيره بالطريقة الأكثر وثوقاً ، اذن الأقل تناقضاً : فكان عليه تأمين انتصارات حربية واستعمال تقنية في تركيز طاقات المؤمنين في الحرب الدينية وإيجاد مكانه كرئيس للجماعة .

مراجع وهوامش الفصل ٨

١ ـ الاصابة ـ مرجع سابق جزء ٤ ص ٥٨٨ والسيرة جزء ١ ص ٣٦٦ .
٢ ـ السيرة جزء ١ ص ٣٦٧ .
٣ ـ السيرة جزء ١ ص ٣٦٦ .
٤ ـ مروج الذهب جزء ١ ص ٣١٣ وجزء ٣ ص ٥٩٥ .
٥ ـ تاريخ الطبري جزء ٥ ص ٢٧ .
٦ ـ مروج الذهب جزء ٢ ص ٣١٣ .
٧ ـ تاريخ الطبري جزء ٥ ص ٢٧ .
٨ ـ صحيح البخاري جزء ٣ ص ٢٥٨ .
٩ ـ ذات المرجع .
١٠ ـ ذات المرجع ـ والطبقات أيضاً جزء ٨ ص ١٨٠ .
١١ ـ تاريخ الطبري جزء ٤ ص ٥١ .
١٢ ـ تاريخ الطبري جزء ٤ ص ٥١ .
١٣ ـ الطبقات ذات المرجع .
١٤ ـ صحيح البخاري جزء ٣ ص ٢٥٨ .
١٥ ـ يكرس الطبري في تاريخه بضع فقرات حسب التقليد للوصف المادي للنبي ﷺ ، يتكلم عن كثافة شعره وطول عنقه وطريقته الحيوية في المشي ولكنه ينسى ابتسامته التي عالجها مطولا في الترجمة الفارسية التي اذكرها .
١٦ ـ الطبري ـ تفسير جزء ٤ ص ٤٠٩ .
١٧ ـ القرآن ـ سورة ٢ آية ٢٢٣ .
١٨ ـ تفسير الطبري جزء ٤ ص ٤٠٥ .
١٩ ـ ٢١ ـ تفسير الطبري جزء ٤ ص ٤٠٠ ـ ٤١٣ .
٢٢ ـ ٢٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية مادة عبد .
٢٤ ـ القرآن سورة ٢ آية ١٧٧ .

٢٥ ـ ٢٧ ـ محمد خاتم الانبياء ـ ص ٣٢٣ تاريخ الطبري .

٢٨ ـ ٢٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية .

٣٠ ـ يعمل الطبري جزءاً حول المرأة الأمة عندما يعالج مفهوم المحصنة ، مفهوم متعلق بحالة الأمومة انظر التفسير ، الطبعة التي قدم لها شاكر جزء ٧ ص ١٥١ . وتوجد مقررات تتعلق بحالة معينة لدى محرري سير الصحابة مثل ابن سعد في الطبقات أو ابن حجر في الاصابة وابن الاثير في أسد الغابة ولكن هذه المعلومات موزعة ويوجد تحليل رائع هو تحليل أحمد الحوفي الذي يوضح حالة السبية والاماء في منحى الأدب الجاهلي وبخاصة الشعر الذي كان يلعب دوراً هاماً كالاعلام في عصرنا : انظر المرأة في الشعر الجاهلي . دار النهضة مصر ١٩٧٠ . ص ٤٦٤-٥٢٤ وانظر أيضاً صالح العلي في الفصل الذي يكرسه لتحليل بنية المجتمع البدوي مما قبل الاسلام . وأخيراً جورج زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي

٣١ ـ ٣٣ ـ أبو حسن المالكي ـ الحدائق الغناء في اخبار النساء ـ الدار العربية للنشر تونس ١٩٨٧ .

٣٤ ـ صحيح البخاري جزء ٤ ص ٢٧١ .

٣٥ ـ الطبقات جزء ٨ ص ١٧٤ .

٣٦ ـ ٣٧ ـ القرآن سورة ٤٩ ـ آيات ٣ و ٤ و ٢ .

٣٨ ـ مروج الذهب ص ٥٩٥ .

٣٩ ـ القرآن آية ٣٤ سورة للنساء .

٤٠ ـ يوضح الطبري ان القواعد التي تحكم علاقة المؤمن بالمرأة الحرة تختلف عن العلاقات التي تنظم مع المرأة العبدة ، فلا يوجد لها من الحقوق ما للمرأة الحرة . وذلك في معرض شرحه الآية ٣ من سورة النساء حول تعدد الزوجات .

٤١ ـ القرآن ـ سورة النساء آية ٣٤ .

٤٢ ـ الطبري ـ تفسير جزء ٨ .

٤٣ ـ الطبقات جزء ٨ ص ٢٠٥ .

٤٤ ـ ٤٥ ـ القرآن .

٤٦ ـ تفسير الطبري جزء ٨ ص ٢٩٩ .

٤٧ ـ الطبقات جزء ٨ ص ٢٠٤ .

٤٨ ـ صحيح البخاري جزء ٣ ص ٢٧٩ .

٤٩ ـ الطبقات جزء ٨ ص ٢٠٤ ، العبارة المستعملة هي (فسدن) مع اشارة للنواحي الجنسية ، وهو اضطراب الاخلاقي الذي يحكم العلاقة الجنسية .

٥٠ ـ الطبقات جزء ٨ ص٢٠٤ .
٥١ ـ السيرة جزء ١ ص ٣٦٤ .
٥٢ ـ ذات المرجع .
٥٣ ـ الطبقات جزء ٨ ص ١٧٩ .
٥٤ ـ تاريخ الطبري جزء ٥ ص ١٦ .
٥٥ ـ ابن سعد كاتب الطبقات ، مات في ٢٣٠ للهجرة حوالي ٨٤٥م . والطبري في ٣١٠ حوالي ٩٢٢م .
٥٦ ـ الطبقات جزء ٨ ص ٢٠٤ .
٥٧ ـ تفسير الطبري جزء ٨ ص ٢٠٤ .
٥٨ ـ ٦٣ ـ ذات المرجع جزء ٨ ص ٣٠٢ و٣٠٤ و٣٠٥ و٣٠٩ و٣١٣ .

- ٩ -

النبي قائد حربي

كثيرون من بيننا يحتفظون برؤية مثالية للمدينة، متأثرين بدروس التربية الاسلامية التي كنا نتلقاها في المدارس الابتدائية، والتي اختصرت لنا مسارالنبيبأنه وقد حاربته جماعته ، كان مجبراً على الهجرة إلى المدينة . وما ان وصل إليها حتى استقبل من قبل السكان ببهجة وفرح وهرعت الصبايا للقائه وهن ينشدن تكريماً : « طلع البدر علينا » ، البدر الذي جسّده محمد ، الزائر الذي سوف يغير كل شيء برقته وحكمته . لقد كانت معلمتنا تنهي لنا السنة الدرسية بحيث نصل لسيرة النبي ، في عيد حيث كنا نضفر شعرنا بالياسمين ، وكان يتوجب علينا ان نغني أمام الحضور من الآباء المنفعلين : « طلع البدر علينا » ، وذلك على المنصات السريعة العطب والمنصوبة لهذه المناسبة . وترسخت في ذاكرتنا للأبد مدينة قمرية مع النشيد الوطني ، وكل الأغاني حيث مراكش ، الاطلسي ، الشمس السعادة والمستقبل ضفرت جميعها بطريقة سحرية محكمة لتكوّن طفولتنا ،أي هذا الشعر الذي هو أساس ضميرنا السياسي .

ولكن بعد بلوغ الرشد ، وعند التجول في المدينة التي حاول محمد ﷺ انارتها خلال عشرات السنين بالنور ، نجد أنفسنا في أزقة مدينة كغيرها ، مدينة في حرب ضد النشاط والحرية ، مدينة عانى محمد ﷺ فيها ، كما تقول لنا كتب التاريخ المكتوبة من أجل البالغين . لقد عانى فيها من الاشاعات التي أثيرت حول شخصه ، والضجة حول ان نساءه الجميلات والشابات سوف يتزوجن ، بعد وفاته طبعاً ، أزواجاً اكثر شباباً . لقد قيل إنه لم يعد نشيطاً جنسياً كما كان سابقاً . قيل ان زوجته المفضلة قد خانته . لقد مسُّوا في نقطة حساسة ، رجلاً أراد النجاح ، في حياته الخاصة كما في حياته العامة ، وحيث كان أصر على استحالة التفريق بين الحياتين .

وأود هنا أن أشير إلى أن النبي ، في السنوات التي تهمنا ، السنة ٣ (هزيمة أحد) وبداية السنة ٨ (فتح مكة) ، لم يستطع ان يحقق المساواة بين الجنسين ، لأنه رفض انتقاص الجنس و رفض اخفاءه ، واعتباره هامشياً وثانوياً . كان النبي ﷺ لين العريكة . وقد اخفق مشروعه لأنه رفض دائما ان يفصل حياته الخاصة عن حياته العامة . لم يدرك الجنس والسياسة إلا مرتبطين صميمياً . كان يمضي للصلاة وهو خارج مباشرة من منزل عائشة ، من الباب الصغير الذي يصله بالجامع . لقد استمر ، رغم نصائح عمر ، بالذهاب إلى الحرب مصحوباً بواحدة أو أكثر من نسائه ، اللواتي اعتدن على التدخل مباشرة في الشؤون العامة ، يستعلمن ويستخبرن بحرية عما يجري حولهم . يصف الطبري مشهداً يظهر فيه عمر غاضباً لرؤية عائشة تتجول ، في الجبهة . على جوانب الخنادق ، ويصرخ فيها عمر : « مالذي جاء بك إلى هنا ؟ » . لعمري ، ان جرأتك تقترب من الوقاحة واذا وقعنا في كارثة ؟ وإذا وجد فشل وأسر ؟ »[1] .

قلما يبدو أن نساء النبي ﷺ اعتبرن المسائل الحربية أو السياسية غريبة عنهن . ان تحرير أسرى الحرب ، قضية سياسية بحتة ، وكانت تعنيهن جميعاً كالمسائل المنزلية : ففي السنة ذاتها السنة الخامسة للهجرة و دائماً قبل نزول آية الحجاب ، واثناء الحملة ضد عشيرة اليهود بني قريظة ، تدخلت أم سلمة في تحرير سجين سياسي كان قد ربط في بهو الجامع . لم تتخذ قراراً بالعمل على

تركه ، لكنها عملت على اعلان رأيها المتعلق به ، عملت على اشاعة معلومات بين اولئك الذين يمتلكون سلطة القرار وانتظرت ردة فعلهم. وان المصدر الذي قرر الحدث تميز بأنه كان «قبل نزول الحجاب». أخذت أم سلمة على عاتقها، بعد ان كانت استطلعت رأي النبي ، ان تمضي لإعلام أبي لبابة عن تحريره[٢] . لقد تصرفت اذن كما لو أن الأمر يتعلق بقضية كان للنساء فيها ابداء الراي . فالمنزل لم يكن ارضيتهن الشرعية الوحيدة .

ويبدو وكأن آية الحجاب قد جاءت لتفصل عالم النساء عن عالم الرجال ، بحيث يناط المنزل بالنساء وان يمنع عليهن الوصول إلى المحيط العام ، وهذا ما كان الوضع فيه مختلفاً فيما سبق . وبشكل آخر ، سوف تكون مؤسسة الحجاب غير مفيدة الا حيث يكون الجنسان منفصلين والنساء مبعدات عن الحياة العامة . ومجيء الحجاب ذاته ، يكشف لنا واقعاً اجتماعياً مخالفاً لما جاء لاحيائه . إن نزول الحجاب اثناء عرس زينب لا يمكن فهمه الا اذا تذكرنا الراحة الفوق عادية لزوجات النبي في المحيط العام . إن امرأة شجعها زوجها لاعتبار الجامع ومعركة القتال كارضيتي عمل ، تتصرف بخلاف ما تتصرف امرأة مستبعدة ومعزولة عن العالم . بعمله خلافاً لعادات الجيوش اللواطية جداً ، حيث يعيش الرجال فيما بينهم من الصبح للمساء ، كان على محمد ﷺ ان يمنع قواده، وهو الذي كان ينسحب مساء باكراً في خيمة اسرته . ولسوف يستعمل اعداؤه السياسيون هذه المثابرة من جانبه ليعيش علاقته مع المرأة كتجربة مستمرة ومتميزة، كي يهاجموه، ويجرحوه ويسيئون إليه ، وأخيراًلكي يوصلوه إلى التراجع ، في وجهات نظره حول مساواة الجنسين . سوف يستعمل معارضوه السياسيون حياته الخاصة كسلاح سياسي . سوف يمضون لاضفاء الصفة الجنسية على هجوماتهم السياسية ، المخصصة لاضعاف النبي ﷺ ، وهذا ، في وقت كان يعيش فيه على التوازي تجربتين مثبتتين وجديدتين : عدم اليقينية في حياته العسكرية ، الانحدار الناتج عن السن .

لقد كان له من العمر ما يقرب من الستين وكان محاطاً بنساء متميزات ومرموقات مثل أم سلمة وعائشة وزينب . نساء اكثر شباباً منه ، ذكيات ،

ومتمرسات بصورة خاصة في الحياة السياسية وفي المطالبة بحالة مختلفة . وسوف تكون حبيبته عائشة ، الفريسة التي يقبض عليها اعداؤه كي يؤذونه ، ويجعلونه يتذوق الكعكة المسمومة بافقاده الثقة باتهامها بالزنى . وفي هذا الجو الذي وجد فيه مجروحاً، معرضاً لاساءتهم، سوف يفقد من قدرته على مقاومة عمر، ويقبل حبس النساء وسيوافق على الحجاب وعلى اعادة قيام السيادة الذكورية .

السنة /٥/ (٦٥٧) هي السنة التي يجب تذكرها بصورة خاصة . الأحداث التي تقررت فيها يمكن ان تلحظ في سورتين أساسيتين حيث صعوبات النبي ﷺ الحربية ، كذلك الافتراءات ضد نسائه ، هاتان السورتان المتشابكتان رمزياً هما السورة /٩/ النساء و/٥٣/ للأحزاب واللتان تتضمنان المناقشات التي كانت تجري في المدينة حول مساواة الجنسين من جهة ، وبخاصة الآيات المتعلقة بالارث ، وبالحقوق التوارثية للنساء والبنات ، واتهام عائشة بالزنى ، ونزول الحجاب ، ومن جهة أخرى « صلاة الخوف » التي نفذها النبي ﷺ لأول مرة اثناء موقعة ذات الرقاع (بداية السنة الخامسة) ، وحصار المدينة ، معركة الخندق الشهيرة (السنة ٥) .

ليس من غير المفيد التذكير بأن تصنيف السور لا يخضع إلى نظام تسلسل تاريخي . ففي السورة الواحدة يمكن وجود آيات تنتمي إلى الفترة المدينية (٦٢٢ ـ ٦٣٢) كما تنتمي إلى الفترة المكية (٦١٠ ـ ٦٢٢) . وقد اتبعنا فيما سبق ترتيب السور ، باتفاق تام مع بلاشير عندما يؤكد : « بنوع ما ، يمكن القول اننا نقرأ اليوم القرآن بالمقلوب لأن النصوص الأولى ، الأكثر طولاً ، هي بصورة عامة مكونة من الوحي الوارد لمحمد ﷺ حوالي نهاية نبوّته »[٣] فنص القرآن ، كما نقرأه اليوم هو النص المعتمد رسمياً في ظل الخليفة الثالث (عثمان) ، ونعرف ان تدوين القرآن شرع فيه في حياة النبي[٤] ، وان تصنيف السور في النص « العثماني » نادراً ما اتبع التسلسل التاريخي للاحداث ولكنه خضع لنظام حاول فيه الخبراء تبريره بانه يستجيب لحالة تربوية ، والسور المكية كما يقول السيوطي في كتابه أسرار تصنيف القرآن ، أوحي بها في سياق وجود الشرك ، في حين ان السور المدينية أوحي بها في مجتمع اسلامي طرح مسائل واستعلم عن تفاصيل عملية للحياة ،

وذلك ما يفسر بنظره ، ان كثيراً من السور المدنية تأتي في المقدمة في تصنيف القرآن لأن الكتاب يخاطب مسلماً وليس مشركاً[٥] .

مع ذلك تستمر هنالك مشكلة بالنسبة للخبراء : فكيف نعلم اذا لم نتمكن من ربط الآيات بالأحداث التي جاءت لكي توضحها ، طالما انه لا يوجد تصنيف تاريخي ؟. ان نظام التسلسل التاريخي للوحي على درجة من الأهمية لمعرفة الناسخ من المنسوخ ، في حالة وجود آيتين متناقضتين متعلقتين بواقعة واحدة . وتلك هي الحال ، مثلاً ، بالنسبة للموقف تجاه غير المسلم وبخاصة اليهود والمسيحيين . فيوجد آيات توصي بالرحمة وأخرى توصي بالحرب المقدسة والقتال المستمر ضدهم . وفي النسخ يسعى الخبراء لتكريس تحليلات دقيقة للآيات المتضادة ، وجزموا قائلين إن آخر ما أوحي به هو ما يجب أخذه بعين الاعتبار ومن هنا كانت الضرورة لترتيبها زمنياً[٦] .

إن السورتين اللتين تهمنا هنا هما السورة ٤ والسورة ٣٣ اللتان أوحي بهما في المدينة السنة الفاصلة ، السنة ٥ هـ . والتوضيح المعطى ليس حول النص العثماني فحسب بل ان كل الخبراء قد اعتمدوه ، وقد رجعت بصورة خاصة إلى تصنيف السيوطي وتصنيف ابن حزم[٧] . على المائة والأربعة عشر سورة التي يتضمنها القرآن ، تشغل سورة الاحزاب الترتيب ٩٠ وتشغل النساء الترتيب ٩٢ . وكما هو معلوم فإن السورة الأولى التي أوحي بها في المدينة بعد لهجرة في ٦٢٢ هي سورة البقرة التي هي الـ ٨٧ حسب التسلسل التاريخي للوحي (والثانية حسب الترتيب النصوصي) والسورتان اللتان تهمنا وجدتا بعد بضع سنوات ، باعتبار ان سبعة سور أوحي بها في هذه الفترة . اذن ، فإن الوضع التسلسل التاريخي للوحي كالوضع بحسب الاحداث التاريخية يضع لنا السورة ٤ (النساء) والسورة ٣٣ (الأحزاب) حول السنة ٥ هجرية سنة التناوبات الحربية ، سنة صلاة الخوف .

تبعاً لقول ابن حزم ، حصلت أول « صلاة خوف » اثناء معركة ذات الرقاع ، في الشهر الخامس من السنة ٤ . ذهب النبي ﷺ في حملة لذات الرقاع بأمل إعادة تسوية الوضع الحربي والعمل على نسيان الفشل في أحد . لكنه ما أن

وجد في مواجهة العدو ، حتى فضل تجنب المواجهة : « صادف تجمعاً هائلاً من قبائل غطفان فاقتربت العشيرتان من بعضهما ، لكنه لم يكن هنالك حرب ، لأن المسلمين كأعدائهم كان قد تملكهم الخوف فوجه النبي ﷺ « صلاة الخوف » وانسحب »[9] .

أحد أسباب هذا الخوف هو ان المسلمين لم يكونوا قادرين على التقدم لمواجهة تؤدي للفشل ، ولا يمكنهم في الوقت ذاته أن يعرضوا أنفسهم لأن يتقاعسوا عن حرب . لم يكونوا اذن ليستطيعوا البقاء بدون حركة ، وعلموا أنهم تعرضوا لتجربة كبرى بفشلهم في أحد لكي يستعيدوا نصراً ما على عدوهم . فالرسول ، بصفته مخطط استراتيجي ، كان يتصرف اذن بحذر شديد ، وفي وضع لم يكن له فيه سوى هامش من المناورة من نوع رمزي عملياً ، وتعبر صلاة الخوف تماماً عن هذا : فنشر رمزي ، لفقدان القوة ينشر القوة لأن المبدأ رقم واحد لاستراتيجية محمد ﷺ هو ان لا يعرض مطلقاً حياة جنوده . كان يريد ان يحارب ولكن دون ان يفقد الناس حياتهم .

بقي النبي ﷺ ثلاثة أيام في مواجهة جيش العدو ، دون ان يقرر اطلاق رجاله في المعركة ، وكانت مأساة أحد ما تزال ماثلة لديه : « خروج رجال المدينة من مدينتهم ، وذهاب كل واحد منهم ليفتش عن الموتى من أقاربه وهم يتألمون ويصرخون . لقد ارادوا نقل الجثث للمدينة ولكن النبي ﷺ أمر بدفنهم في المكان الذي سقطوا فيه قتلى »[10] .

منذئذ لم يكن الجنود قد استعادوا الثقة بالنفس التي تضمن النجاح . القبائل العدوة التي ذكرها الطبري باسم الاعراب ، أي غير المسلمين ، كانوا هم أيضاً جميعهم مثبطي العزيمة : « لقد خيموا غير بعيد عن جيش محمد ﷺ . عند ذاك ملأ الله قلوبهم بالخوف . ولم يتجاسروا ابداً على ترك مخيمهم . لقد خافوا من المعركة . الجيشان كان يخاف أحدهما من الآخر ، وبقيا يومين متواجدين . أخيراً هرب الاعراب دون ان يحاربوا . اثناء هذه الأيام الثلاثة أكمل النبي ﷺ صلاة الخوف وأوحي إليه بالآية التالية في مثل هذه الظروف[11] : « واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا

فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم. ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم ... إلخ » .

إن صلاة الخوف الموصوفة في هذه الآية ١٠٢ من سورة النساء التي تنصح الرسول ﷺ باختصار الصلاة عندما تكون هناك حالة ملجئة ، وعندما يوجد مثلا خوف من مباغتة من قبل العدو ، هذه الصلاة صلاة الخوف تتكون لتنظيم الجنود بطريقة لا تكون فيها في وضع غير ملائم ، وبخاصة اخفاض الرأس في وقت واحد كما تقتضيه الشعائر النظامية . لقد أعطى الله أوامر محددة في هذا الشأن : تبقى جماعة من بينهم واقفة لتصلي معك ، في حين تبقى جماعة اخرى ماسكة بسلاحها . وعندما يسجد هؤلاء يجب بقاء الآخرين وقوفاً خلفهم ثم تأتي الجماعة التي لم تكن قد صلت لتصلي معك في حين تضمن الأولى الحراسة وحمل السلاح[١٢] .

صلاة الخوف توضح البعد الذرائعي لاله المسلمين . فالمؤمن لا يجب أن يقيم الشعائر بشكل آلي ، دون ان ينتبه للسياق وللواقع الذي يحيط به . يجب ان يستعمل عقله في كافة الظروف وعندما يكون له ان يختار بين الصلاة والبقاء عليه ان لا يتردد أبداً ، باختيار البقاء بدئياً . « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ... » . يمكن ان يوجد وقت للتفكير بالله عندما نصبح خارج الخطر[١٣] . في كل المعارك التي خاضها النبي ﷺ بعد أحد لم يكن هدفه هجومياً مطلقاً وانما دفاعي محسوب بدقة للمحافظة على مصداقيته في نظر اعدائه ، وبدون ان يعطيهم الفرصة لمقارنة أنفسهم بجيوشه جسماً لجسم . ولاهتمامه بالتحالفات التي نجح المكيون بتنظيمها في كل الجزيرة العربية كان على محمد ﷺ أن يرد على الضغوط ، ويفرض نفسه كقوة في مواجهتها دون ان يخاطر مع ذلك بالتزام حربي يمكن ان يكون محتوماً بالنسبة له .

إن معركة ذات الرقاع ، انتهت كما اراد لها النبي ان تنتهي ، بتقدم وتراجع (ذنب سمكة) . لم تكن هنالك مواجهة . والجيشان وجهاً لوجه لم يندفعا برعونة في المعركة . وعلى ما يبدو كان هنالك وقت ليحسب فيه كثيراً لحياة الجندي ، سواء أكان ذلك لدى محمد ﷺ ام لدى اعدائه . هذه الذهنية

الذرائعية ، التي نجدها في آية الخوف تمثل أيضاً في سورة النساء : في التاكتيك ، الذي يمضي محمد ﷺ لتبنيه اثناء معركة الخندق الموصوفة في السورة ٣٣ (الاحزاب) .

كانت المدينة محاصرة؛ واعداء محمد والمعارضة المحلية ضده أصبحت أكثر عدداً وتوطد عدم الأمن. انه عدم أمن يمنع كل النساء من الحركة، حتى النساء الحرات ، وحتى اللواتي ينتمين للنخبة الحاكمة ، وعلى رأسهن زوجات النبي ﷺ . لأول مرة ، لا يكون الرسول هو الذي يحدد مكان المواجهة بين المكيين والمسلمين : ففي ربيع ٦٢٧ يحاصر أبو سفيان الرئيس العسكري لقبيلة قريش ، النبي ﷺ في المدينة ، بتحالف مكون من ١٠ آلاف رجل . ولم يستطع النبي ﷺ ان يحرك بعد مفاوضات صعبة ، سوى ٣٠٠٠ رجل ، وكان ذلك بجهد ملحوظ جداً(١٤) . وكان الحصار ينذر بأنه شرس وطويل جداً لأن تلك القبائل المجاورة جداً والأكثر قرباً مثل قبيلة بني قريظة من يهود المدينة انضمت إلى القبائل البعيدة من نجد ، وذلك في معسكر الاعداء تحت قيادة المكيين(١٥) .

وقرر النبي تطبيق تكتيكه المفضل عندما تكون الاكثرية العددية للاعداء واضحة : وهو تجنب الاحتكاك . لكن كيف يتحاشاه هذه المرة ، في حين كان الأعداء على أبواب المدينة ؟ لقد لجأ إلى تقنية كانت مجهولة تماماً عند العرب ، حفر خندقاً حول المدينة لكي يحميها . الفكرة ، بدون شك ، وردت من سلمان الفارسي الذي كان عبداً فارسياً اعتنق الاسلام واعتق من الرق . لقد شرح هذا للرسول ﷺ ، انهم في فارس عندما يحاصرون ، يحفر خندق حول المدينة »(١٦) . وعندما أمر النبي بحفر الخندق تعجب الكثيرون من مثل هذه المبادرة ، وكان المنافقون بين سكان المدينة معادين لكل مبادرة تأتي من رئيس اسلامي ، فاغتنموا العملية ليجعلوا منها هزأة . . . غير انه لا دهشة المحيطين به ولا سخرية المنافقين جعلته يتراجع عن المشروع : لقد خلب لب المقاتلين لابدال السيف بالمعول وإقامة فراغ بينهم وبين العدو بدلاً من الذهاب لمواجهته : « اعطى النبي ﷺ الأمر لحفر خندق عميق حول المدينة بعمق ٢٠ ذراعاً وبعرض عشرين ذراعاً أيضاً . واسند تنفيذ العمل إلى عشرة رجال . وسخر المنافقون من النبي ﷺ لأنه اغلق على نفسه

في المدينة . مع ذلك ، كان يأتي كل يوم ليحضر العمل ، جالساً في خيمة اقيمت له ، بهدف ان يكون للرجال بحضوره، كثير من الحماس »[١٧] وبعد شهر أكمل الخندق .

ودهش الاعداء إلى حد كبير برؤيتهم للخندق «عندما رأى الكافرون الخندق حول المدينة، بلغ بهم العجب أشده، لأنهم لم يسبق لهم مطلقا أن رأوه. انهم لا يستطيعون اجتيازه ، وكانوا يأتون كل يوم إلى أبواب المدينة . بقي النبي ﷺ إلى جانب الخندق ولم يخرج أحد للقتال من المدينة . وقد كان يعبره كذلك ليلاً ، في حين يكون المنافقون قد عادوا إلى المدينة ليناموا ، وقالوا : « اذا حصل طارىء في الليل لمحمدﷺ، سنكون على الأقل بمنجاة في منازلنا»[١٨]. كان المنافقون يظنون ان النبي قد خدعهم، وانه عزم على القتال ولم يفعل سوى اجتذاب الاعداء لأبواب المدينة، التي اوشكت ان تقاد إلى الهلاك. وتصف الآية ١٢ من السورة٣٣/ تماما خوفهم واحباطهم «واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا». لكنهم لم يكونوا وحدهم خائفين ، فقد كان المؤمنون الطيبون كذلك حسب الآيات ٩ و١٠ من ذات السورة «يا ايها الذين آمنوا، اذكروا نعمة الله عليكم اذا جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . اذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا»[٢٠] وبعد سبعة وعشرين يوماً من الحصار، استمرت المدينة صامدة، وفقد العدو ثلاثة رجال لأنه من وقت إلى آخر «كان الجيشان يطلق أحدهما على الآخر اسهماً من بعيد»[٢١].

مع ذلك طال الحصار مهدداً بجدية التوازن النفسي للمدينة . واقتضى التدخل بسرعة ، بالطريقة الممكنة بالنسبة لمن كانوا في حالة ضعف معين وذلك باستعمال فن الحرب النفسية ، نشر وترتيب معلومات صحيحة وغير صحيحة سواء أكان لقيادة العدو المركزية في الأساس أو إلى الحلفاء الاباعد . ولاجراء هذا استعمل محمد ﷺ خدمات معتنقين جدد للاسلام في صفوف الأعداء ، الذين تم الاحتكاك بهم سراً. وبفضل هؤلاء الجواسيس الذي كانوا يشيعون الاشاعات في

معسكر العدو ضاربين على الحساسيات ، وعلى الخصومات بين الاحلاف ، وبخاصة حول عدم أمان القيادة اليهودية ، آخذ الحذر والتردد يستقر عند المكيين . والحدث الذي أوصل لرفع الحصار كان اعصاراً من العناية الالهية ارسله الله من السماء ، « عند هبوط الليل ، أطلق الله على معسكر الكافرين ريحاً صرصراً قلبت كل الخيام فامتلأ الاعداء رعباً »[٢٣] . وفي الصباح رفع أبو سفيان الحصار وذهب ، تاركاً خلفه مدينة مختلفة تماماً عما كانت توجد عليه قبل الحصار . وعلم النبي ﷺ ان حرباً جديدة بدأت ، تلك التي يعتبرها اسوأ الحروب ، حرب الغريزة ، الفوضى الداخلية في المدينة ، الفتنة .

إن القرآن مرآة أمينة ، ليس لصعوبات النبي ﷺ العسكرية خلال حصار المدينة مثلاً ، فحسب ، وانما أيضاً للهجمات من نوع صميمي ، حيث شرحت حياته الخاصة وانتقدت من قبل معارضة مدينية تزايدت حدتها أكثر فأكثر . واذا كان النبي ﷺ قد نجح بتجنيب المسلمين مذبحة ، فإن حصار المدينة أثبت بشدة للسكان ان ذلك كان بتضحياتهم[٢٤] التي فرضت عليهم تجهيز وتغذية جيش من ٣٠٠ رجل .

إن عداوة جزء من سكان المدينة سوف توصل المدينة إلى حافة الحرب الأهلية وتقيم عدم الأمان بالمعنى الأكثر أولية . فبالنسبة لامرأة ، تتجول في المدينة دون ان تزعج كان قد اصبح مستحيلاً ، حتى بالنسبة لنساء النبي ﷺ اللواتي كن يزعجن خارجاً ، واحياناً في بيوتهن على مرأى من النبي . إنه على ضوء هذه الأحداث يجب اعادة قراءة آيات الحجاب الآن والتفسير الذي يعطيه الطبري لذلك .

وبرأيه أن الجزء الثاني من آية الحجاب : « . . . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً » قد أوحي به بعد مجيء رجل إلى النبي ﷺ ، وبعد أن أخذ يردد القول بأنه « ينوي ، بعد وفاته الزواج بواحدة من نسائه ، وانه أسماها من جهة اخرى »[٢٥] . في هذا النص لم يجر التلفظ بهذه أمام النبي ولكنها شاعت في المدينة . وفي تفسير النيسابوري للقرآن ، أن اسم المرأة المقصودة قد ذكر ، وان الرجل المقصود كان

غليظاً لدرجة انه افصح بكل صراحة عن رغبته أمام النبي ﷺ وبحضور المرأة المقصودة . وسوف يكون هذا الرجل عيينه بن حصن ، رئيس قبيلة عربية معروف بجلافته ، وانه بعد اعتناقه الاسلام ، شاهد عائشة اثناء زيارته للنبي ﷺ :

« روي أن عيينة بن حصن جاء لرؤية النبي ﷺ وانه دفع باب منزله ودخل عليه ، دون أن يطلب الأذن بالدخول . وقد قال له النبي ﷺ :

ـ يا عيينة ، الا يجب عليك التقيد بالأدب الذي يقتضي طلب الاذن قبل الدخول لعند أي كان ؟ .

ـ ورد عيينة ، انني على ما اذكر ، لم أطلب في حياتي إذناً من انسان . ثم قال عيينه للنبي ﷺ :

ـ من هذه الجميلة الجالسة إلى جانبك ؟ »[٢٦] .

وعندما أعلمه النبي ﷺ بأن هذه كانت عائشة وبيّن له انها تلقب بأم المؤمنين ، وهو لقب يحرمها على رجال آخرين ، اقترح عليه هذا المبادلة : بأن يأخذ عائشة ويعطيه بديلاً عنها امرأة أجمل منها ، هي امرأته الخاصة . ورد عليه النبي ﷺ ببرودة « ان الله منع مثل هذه الممارسات » بالنسبة للمسلمين[٢٧] .

ويروي لنا نص آخر ان عائشة صدمت من سماعها أقوال عيينة للنبي بأنه على استعداد ليترك له « أم أطفاله مقايضة بها » وانها لم تتمالك نفسهاعن الصياح : « من هذا الشخص ؟ »[٢٨] . ومع احتفاظ النبي ﷺ بكامل هدوئه شرح لعائشة بأن الشخص الذي تراه كان قد انتخب من جماعته ليقودهم ، وقال متعجباً : « هذا الانسان الذين ترينه يحكم عشيرته »[٢٩] .

ويذكر بعض المؤرخين إن امرأة واحدة من نساء النبي ﷺ تزوجت فعلاً بعد موته . وهي عالية بنت ظبيان . فقد كان النبي ﷺ تزوجها وبقيت عنده بعض الوقت ، ثم طلقها . وقد عادت وتزوجت ، كما يلاحظ الفقهاء قبل نزول الآية التي حرمت ذلك . من جهة أخرى فإن اسم زوجة النبي ﷺ هذه التي تجاسرت على الزواج ثانية لم يجمع عليه المؤرخون ، فبعضهم يقول إنها كانت تسمى ، عالية ، وبعضهم يؤكد ان اسمها كان (كيله) ، وعلى كل حال ، ومع ارتباكهم جميعاً بهذا الزواج ، فإن المؤرخين المسلمين لا يخفون امره ، وحتى انهم

يتكلمون عنه . وحسب الطبري ، فإنها كانت تدعى كيلة بنت الأشعث . وقد تزوجت عكرمة بن جهل بعد موت النبي ﷺ . وكما يقول الطبري ، فإن هذا كان منزعجاً من هذا الزواج الذي كان يعتبره بداهة انه مؤثم ، وان عمر قد تعلل بالقول بعد كل شيء انها كانت مطلقة . وانها لم تعد « فعلاً » زوجة النبي ﷺ طالما انها فضلت تركه في فترة آية الخيار . هذا الخيار المعطى للزوجات من قبل النبي ﷺ لأن يتركنه اذا رغبن ، جاء ليضع نهاية لخلاف كبير بين النبي ﷺ ونسائه[٣٠] . ان التزامات النبي ﷺ بصفته رئيساً للجماعة الاسلامية أو صلته لاستقبال الوفود الآتية من كل انحاء الجزيرة العربية ، مع ما لديها من آفاق مختلفة ، من العادات والممارسات الغريبة ، مثل تبادل الزوجات[٣١] . لقد استقبلهم لديه ، حسب الظروف بحضور زوجاته ويؤكد الطبري ان حادثة عيينة جرت قبل نزول آية الحجاب[٣٢] .

إن ذلك الاصرار من النبي على عدم رسم حدود بين حياته الخاصة وحياته العامة ، التي تتيح للنساء ان يتدخلن مباشرة في قضايا الدولة المسلمة يمضي شيئاً فشيئاً لينقلب ضده : ولسوف يكون هذا الاصرار ، الثغرة التي سوف تستعمل في سنوات الأزمة ، لكي تنظم الانتقادات ، سوف يزعجونه ، وسوف يدخلون عليه بدون اذن . « حضر زائر إلى باب النبي ﷺ وقال : ايمكنني الدخول ؟ . فقال الرسول لعبده الذي كان يسمى روده : « اخرجه وعلمه الطرق الصحيحة ، انه لا يعرف حتى كيف يطلب الأذن . قل له انه يجب ان يقول : السلام عليكم هل يمكن ان ادخل ؟ »[٣٣] . احياناً كان الرجال يتبعونه عندما يدخل إلى منزله ، ويلتمون حول مائدته لدرجة انه لا يتوصل حتى لمد يده ليتناول لقمة[٣٤] . ويمكن القول بأن النبي لم يكن على استعداد لمواجهة الفصل بين العام ـ الخاص ، المحدث بنزول الحجاب ، إلا مع ظهور فئتين جديدتين من المنافقين ، أي «الذين في قلوبهم مرض» و«المرجفون في المدينة» .

اذا أخذنا القرآن والنصوص الأساسية من التاريخ الديني كمرجع ، فإنه يستخلص منها ، انه حتى ذلك الحين ، لم تكن النساء قد حبست بعد ولم تكن لديهن العادة في ان ينغلقن في منازلهن ، وكن يخرجن لقضاء حاجاتهن . وقبل ان

تبدأ الاعتداءات ، كن يخرجن وبخاصة في الليل ، وذلك على الأرجح لأن المدينة التي كانت تهمدها الحرارة نهاراً ، كانت تنتعش ليلاً : « كانت نساء النبي ﷺ تخرج ليلاً لقضاء حاجاتهن ، وكان بعض الناس من المنافقين يتعرض لهن ويعتدي عليهن »[٣٥] ونص الآية ٥٨ من سورة الاحزاب تترك مجالاً للافتراض بأن الاعتداءات وصلت إلى درجة بحيث رأى الله التدخل مطلقاً لعنات وتهديدات باجراءات عقابية ظرفية ضد الأصناف الجديدة من المنافقين : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلاً »[٣٦] .

إن الصنف الأول ، « الذين في قلوبهم مرض » ينتمون ، حسب قول الطبري ، لأولئك الناس الذين يعانون من اضطراب على مستوى السلوك الجنسي . وفي الفقرات التي يكرسها للآية ٦٠ من السورة ٣٣ المشار إليها ، يؤكد انه يقصد « أولئك الذين لهم علاقات مضطربة مع النساء » ، « الذين يعانون شهوة غير منضبطة للزنى والعشق وتعاطي افعال جنسية غير مشروعة »[٣٧] . والصنف الثاني ، صنف المرجفين أي الذين يلعبون دوراً مفسداً ، وبخاصة عند اتهامهم لعائشة بالزنى كما سوف نرى .

كانت الاعتداءات تقع اذن على مستويين : الاعتداءات المادية ، واقعة ازعاج نساء النبي ﷺ عندما كن يخرجن إلى الشارع ، والاعتداءات الكلامية ، بالعمل على إثارة شائعات حولهن أو حول النبي . وحسب الطبري ، فإن الآية ٦٩ : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً »[٣٨] ، ترجع للاتهامات الذي وجهه شعب موسى إليه ، أي بأنه كان آدر . ويفسر لنا قاموس لسان العرب بأن الآدر تعني الشخص الذي يوجد فتق في خصيته « انتفاخ في احدى خصيته » وعلى كل حال ، فإن الآية ، في رأي الطبري ، ردت على اتهام خاص من هذا النوع[٣٩] .

إن الاتهامات من هذا النوع تجد أصلها بدون شك في الحادث الذي اشرنا إليه المتعلق بالنزاع بين النبي ﷺ وزوجاته ، والذي أوصل النبي ﷺ ليعتزل بضعة أيام ، والذي اعطى الآية التي اسماها الأئمة « آية التخيير » . ان المفسرين الذين

حاولوا تحليل أسباب النزاع يشيرون إلى أن الانزعاج على الأقل من نصف نساء النبي ﷺ التسعة كان حسب رأي بعضهم لسبب اقتصادي ، وحسب رأي غيرهم لسبب جنسي[٤٠] . حسب شريعة تعدد الزوجات الاسلامي ، يجب على الرجل ان يقسم لياليه بالتساوي بين كل نسائه ، ومفهوم ضمناً انه لا يجب الاكتفاء بالنوم بسكون اثناء هذه الطوافات الليلية . فعلى الزوج المتعدد الزوجات ان يكون على مقياس يمكنه ارضاء زوجاته جنسياً ، والمرأة المسلمة المضاعة حقوقها امرأة سوف تنشيء الفتنة ببحثها عن الأشباع من جهة أخرى . ويفسر الطبري ان الآية /٥١/ تعفي محمداً ، بأمر من الله ذاته ، أن يشاطر في فراش الزوجات من نسائه اللواتي لم يعد يرغب بهن . وبداهة إن هذا اجراء استثنائي . من جهة أخرى ، فإن الله بذاته لم يجبر امرأة غير مكتفية جنسياً ان تبقى مع زوجها . فآية التخيير ، تعطي اذن الخيار ، للواتي من بين نساء النبي ﷺ يشتكين من فتوره الحديث ، ان يتركنه اذا شئن ذلك .

حسب سلطات معتمدة كالطبري وابن سعد ، ان خمسة من نسائه كن معنيات بهذه الآية وان أربعة من تسعة فقط بقين يتمتعن براعاته ، وبداهة كانت عائشة وأم سلمة من بين هؤلاء[٤١] . ان النبي ﷺ الذي كان اقترب من الستين لم يصل لدرجة الشيخوخة . فرغم السن ، كان شعره قد بقي أسوداً ، وكان يتمتع بصحة تامة وكان له سحر طبيعي غير منكور : « أنفه كان مستقيماً ، واسنانه متباعدة تارة كان يترك شعره ينسدل من رأسه بشكل طبيعي ، وتارة كان يعقده في ضفيرتين أو أربعة . وفي سن الثالثة والستين ، لم يكن السن بعد قد أدى إلى شيب سوى عشرات من كل شعر جسده ومن عشر إلى عشرين شعرة في لحيته»[٤٢] . ويعطي المؤرخون العرب أهمية كبرى إلى طبيعة الشخصيات السياسية ، التي بحسبها يمكن ان توضح بعض التصرفات .

وهناك اوصاف تؤكد على «مشيته التي هي على درجة من الحيوية بحيث يمكن القول انه كان يفصل رجليه عن الأرض، ومع ذلك وفي الوقت ذاته ، كان على درجة من الخفة بحيث كان يبدو وكأنه يتهادى من أعلى لأسفل » . الا ان الطبري يؤكد ، « انه لم يمش مطلقاً بصلف ، كما يفعل الأمراء »[٤٣] . فمن غير

المفاجىء اذن ، انه عندما اعطت آية التخيير الحق للنساء من بين زوجاته اللواتي انقصت حقوقهن من معاملة غير متساوية واللواتي تضررن وواقعة انه لم يعد يمنحهن قدراً من الحنان والملاطفة كما في السابق ، أن تختار واحدة منهن ، الذهاب(١١) .

حول هذا المستوى ، يمكن القول ان اشاعات المنافقين انتهت باستفتاء حقيقي للنبي من قبل زوجاته . وعندما قرر ان يترك مطلة الجامع حيث كان قد اعتزل ، رجع لمنزله وتلا أمام كل واحدة من زوجاته آية التخيير ، طالباً إليهن ان تنطق كل واحدة منهن بشكل منفصل . فاللواتي يردن البقاء يجب ان يقبلن ان النبي ﷺ ليس ملزماً لارضائهن جنسياً ، واقتصادياً . ونصح عائشة اصغرهن سناً ، ان تشاور أهلها قبل ان تقول كلمتها . وقد انزعجت وردت عليه انها لن تطلب ابداً رأي أهلها لمثل هذا النوع من الأشياء(١٢) .

خارج الشائعات التي دارت حول تجلياته الجنسية ، كانت الشائعات الأخرى تتعلق إما بزيجاته واما بعائشة التي كانت الهدف المراد لمطامعهم وحسدهم . اثنتان بين زيجات النبي ﷺ عقدت احداها في السنة الخامسة ، والأخرى في السنة السابعة ، اعتبرهما قسم من الرأي العام مشينتين .

أول زواج أثار حفيظة المدينة كان الزواج الذي عقده مع زينب ، ابنة خاله ، بعد ان كان أصر عليها كي تتزوج عبده السابق زيد بن حارثه . كانت زينب دائماً موضع اهتمام النبي ﷺ ، وقد كانت غضبت عندما اقترح عليها هذا الزواج من زيد، عبده السابق الذي قد اعتقه وأوكل إليه الآن مهمات قيادة حربية . كان تبنى زيداً وعامله كإبنه ، لدرجة انه كان يدعى زيد بن محمد .

وقد كان التبني والحالة هذه ، حسب العادات الجاهلية يقيم علاقة قرابة شبه بيولوجية بين الابن المتبنى ووالده . وعندما طلق زيد زينب وتزوجت هذه من النبي اثناء السنة الخامسة ، فإن الكثيرين من سكان المدينة حسبوا أن هذاالزواج محرم واعتبروه شائناً . وهذا ما يوضح لماذا أخذ النبي ﷺ على عاتقه دعوة « كل الجماعة » ، كما يروي لنا ذلك هنا أنس بن مالك ، الصحابي الشاهد للوحي بالحجاب . من جهة أخرى فإن السبب في كون أغلبية قوانين الأحوال الشخصية

في البلدان الاسلامية الحديثة لا تعترف بالتبني ، انما يعود إلى الأيات التي أوحي بها بمناسبة طلاق زينب ، وكجواب على الشائعات التي انتشرت في المدينة ، والقائلة بأن التبني ينشيء علاقة قرابة فعلية[٤٦] فبالنسبة لأغلبية هذه القوانين ، لا ينشيء التبني ولا يمكن ان ينشيء صلة قرابة مماثلة للتي تنشئها القرابة البيولوجية . ومن حيث المبدأ ، لا يمكن أبداً للطفل المتبنى ان يرث كولد بيولوجي . وان تونس التي اعترفت بحق التبني اعتبرت كحالة خارجة عن الأصل وخاضعة لحد كبير جداً لتأثير الغرب المؤسف .

والزواج الآخر للنبي الذي جرى استنكاره هو الزواج الذي عقده مع صافية بنت هويا، وهي شابة يهودية أسيرة تزوجها بعد فتح مدينة خيبر خلال السنة السابعة للهجرة[٤٧] « كانت خيبر بحيازة اليهود ؛ وكانت أقوى حصونهم . كانت تتألف من سبع حصون ، من أحجام مختلفة محاطة بأشجار النخيل »[٤٨] . وكانت صافية زوجة كنان، أحد رؤساء قبيلة بني النضير اليهودية. وكان أقارب صافيه قد ساهموا في حرب الخندق إلى جانب المكيين[٤٩] . بهر جمال صافية النبي ﷺ عندما وقعت في نصيبه من الغنيمة ، فعرض عليها « أن تعتنق الاسلام » وحررها وتزوجها عندما قبلت هذا الشرط[٥٠] . وحسب الطبري وابن سعد فإن النبي ﷺ عندما القى عباءته على الأسيرة الجديدة ، بعد الاستيلاء على أحد الحصون ، فإن المحيطين به فهموا ان لديه النية بأن يحتفظ بها لنفسه . الا ان ابن سعد يضيف « ان الناس قد تساءلوا عما اذا كان سيتزوجها أو يحتفظ بها كأم ولد » .

ان أم الولد هي عبدة يتعاطى معها معلمهارسمياً علاقات جنسية، ويكون الأولاد الناتجون عن ذلك احراراً[٥١] . وعلى ما يبدو ، كانت حالة صافية استثنائية ، نظراً لأن ديانتها يهودية . والمراتان الآخريان اللتان لم تكونا مسلمتين وكان للنبي معهما علاقات جنسية ، كانتا مارية القبطية التي كانت قدمت إليه من قبل حاكم الاسكندرية ، وريحانة من القبيلة اليهودية بني قريظة ، ورغم واقعة ان ماريا انجبت للنبي ولداً من جنس ذكوري ، ابراهيم ، الذي مات في سنة مبكرة ، فإنها قد صنفت مع ريحانة بين سرايا النبي ﷺ ، أي زوجاته اللواتي كانت حالتهن حالة الرقيق[٥٢] .

ومما يدعو إلى الدهشة في حالة صافيا ، هو ان تصرف النبي ﷺ تجاهها لم يكن هو ما ينتظر في مثل هذه الحالات : « قال الناس : انه اذا فرض عليها الحجاب ، يعرف بأنه سوف يجعل منها زوجة له وان لم يفعل فإنه سيجعل منها ام ولد فقط »[٥٣] . ان أم الولد كانت تشكل جزءاً من هذه الاصناف القانونية الجديدة التي احياها الاسلام كي يكافح ضد اعادة انشاء الرقيق ، والتي بحسبها ان الاولاد المتولدين من زواج بين رجل حر وبين امته سيكونون بالضرورة كائنات حرة ، وذلك مهما كان جنسهم . قبل الاسلام ، كان الاولاد من امرأة أمة واب حر يعتبرون أرقاء . واحد الأسباب التي كانت تدفع الرجال لجعل امائهم بغايا كما سوف نرى ، كان للحصول منهن على اولاد يستطيعون بيعهم حسب الظروف . فكانت حالة أم الولد تعطي للمرأة العبدة الحق بأن يكون لها أولاد احرار يتوصلون اذن للأرث من كل ما يمكن أن يورث ، من أموال وسلطة . لقد سمحت هذه المؤسسة إلى بعض النساء أن تغذي مطامح بالنسبة لابنائهن ، وبعضهن دفعن بهؤلاء الابناء حتى ليصبحوا خلفاء[٥٤] . وللعودة إلى صافيا ، يجب ان لا ننسى انه في كمال ثورة للاخلاق ، يكون لأقل اشارة من النبي ﷺ أهمية رمزية متخمة ، طالما انه هو الذي يظهر السنة ، الطريق ، الطريقة الجديدة لصنع الاشياء المميزة للاسلام بصفته انقطاعاً عن الماضي وانه التجديد . فعندما يساعدها النبي ﷺ لتأخذ مكاناً على مطيته ، ويأخذ الاهتمام بتحجيبها ، يعرف تماما بأن نيته انصرفت للزواج منها . ان تحرير اسيرة يهودية وتزوُّجها ، بدلاً من الاحتفاظ بها في صنف الرقيق ، أثار دهشة المدينة وبخاصة المنافقين الذين كانوا يفتشون عن موضوعات للانتقاد .

لكن ، بين الزواج من زينب (السنه ٥) والزواج من صافيا ، يوجد موضوع أكثر إثارة أيضاً والذي أفلت السنة المنافقين المسعورين ضد النبي ﷺ منذ هزيمة أحد والحصار في معركة الخندق . في السنة ٦ هـ ، اتهمت عائشة بالزنى ، من قبل المنافقين . ويسمي الفقهاء والأئمة المسلمون هذا الحدث بالافك (الكذب) وان المستشرقين في بحثهم المثير يسمونه « قضية العقد » .

اثناء غزوة كانت عائشة قد رافقت النبي ﷺ فيها ، هي غزوة بني

المصطلق ، فقدت عقداً من اصداف يمنية كانت متمسكة به جداً . وعندما علمت ان السفر سيتم خلال ساعات ، عكفت للبحث عنه . وعندما وجدته ، كانت القافلة قد ذهبت ، وكان الذ كلفوا بوضع هودجها على الجمل اعتقدوا ، مع مشاهدتهم لخفته ، انها موجودة فيه . وما ان اكتشف أمر غيابها ، حتى أمر النبي ﷺ بالتوقف لانتظارها ، وقد بدأ يقلق عندما ظهرت في الأفق ، مصحوبة بصفوان بن المعطل ، وهو صحابي شاب ، وجدها في الطريق فقام بحراستها .

ولم يطل الأمر حتى انطلقت حملة حقيقية من التشنيع ضد عائشة ، ويقود هذه الحملة رئيس المنافقين ، عبد الله بن أبي الذي ، كما سوف نرى ، كان يعيش من الزام نسائه العبدات على التزاني . ولسوف يبدي تعجبه عند رؤيته عائشة وهي تصل مع صفوان : « عائشة موضع اتهام بما عملته ، صفوان أجمل واكثر شباباً من محمد ﷺ »(٥٥) . وأخذت القضية مداها بحيث ان رئيس الدولة الجديدة المسلمة قرر مواجهة الموضوع علنا ، وصعد على المنبر وتوجه هكذا للمؤمنين المجتمعين في الجامع : « كيف تجرأون القاء الريب على بيت نبي الله ؟ . . . »(٥٦) . انها إحدى الحالات النادرة من تاريخنا الاسلامي التي يتخذ فيها رجل سياسة جانب الدفاع عن امرأته ، بدلاً من ان ينحني لرأي وشاته . لقد وضع قبائل المدينة امام مسؤوليتهم ، الأوس وبخاصة الخزرج التي ينتمي إليها عبد الله بن أبي . بدخوله إلى الجامع حول هذه الشائعة البسيطة إلى قضية ذات مسؤولية قبلية : القبيلة التي ينتمي إليها النمام يجب ان تتكفل بعقابه . وأخيراً تتدخل السماء « فيوحي الله بسبعة عشر آية في موضوع براءة عائشة »(٥٧) .

قضية الإفك ، التي جعلت من قضية تافهة قضية دولة كان يمكن ان تعيد ادخال الفتنة الى المدينة ، توضح تماماً هذه الرغبة لإهانة النساء ولاعادتهن إلى مكانهن ، والذي غالباً ما تتبعه عهود يتوصل فيها هؤلاء لحقوق وتسجيل مكاسب . عائشة ، ككل النساء الذكيات ، الجميلات والمحبوبات من رجل قوي ، لا يسوغ ان تتخلى عن الجرأة والنرجسية وعليها ان تبلور أنواع الحسد ، وتثير الاحقاد وتقدم وسيلة سهلة للتوصل لمن يمسك بالسلطة . إن الافتراءات ضد عائشة كان من المتوجب ان تختلط بعدم الأمان الذي كان يسود في الشوارع ، ويهز

إيمان النبي في المشروع الذي كان اثيراً لديه ، لحياة خاصة منفتحة ومختلطة بالحياة العامة ، وان تتكاتف الاثنتان دون صدام ودون حواجز . المحيطون به سوف يمضون ليقدموا له ، اتجاه عدم الأمان وامام الشائعات ، حلاً عبودياً : حماية النساء ، النساء الحرات بصورة خاصة ، بتحجيبهن . وبقاء العبدات غير محجبات ، كان اعترافاً ضمنياً بامكانية الدنو منهن والاعتداء عليهن .

ففي مدينة على حافة حرب أهلية ، حيث يتكاثر عدد المنافقين بشكل خطير منذ الحصار ، سوف تُهمل رسمياً السياسة ضد العبودية التي حاول الاسلام اعتمادها، على الأقل فيما يتعلق بالنساء.وكما لم يعد ممكنا ضمان امان الجميع بما فيهم العبيد ، سوف يُقتصر على حماية اللواتي هن حرات . والحجاب يجسد ، ويعبر ويرمز لهذا التراجع الرسمي عن مبدأ المساواة . رمزياً ، سوف يتشابك التراجع عن المساواة الاجتماعية ، وسيختلط بالتراجع عن المساواة الجنسية في حالة المرأة العبدة . والحجاب الستار سوف ينزل على الأثنين ، خالطاً ومازجاً هذين المفهومين في ضمير المسلمين اثناء الخمسة عشر قرناً التي سوف تأتي .

مراجع وهوامش الفصل ٩

١ - ٢ - تاريخ الطبري جزء ٣ ص ٤٩ .
٣ - بلاشير مدخل لترجمة القرآن ص ١٨٠ .
٤ - الطبقات جزء ٢ ص ٣٥٥ .
٥ - السيوطي ، اسرار ترتيب القرآن ط . القاهرة ١٩٧٨ .
٦ - ابن حزم - الناسخ والمنسوخ دار الكاتب العلمية بيروت أول طبعة ١٩٨٦ .
٧ - المرجع السابق . وانظر أيضاً شرح سليمان البنداري على هذه الطبعة وبخاصة التصنيف التاريخي المتحقق انطلاقاً من التصنيفات التقليدية ...
٨ - شهر ٥ باتخاذ محرم ، أول شهر من التقويم الاسلامي ، بالنسبة لشهر البداية . للسنة الاسلامية ١٢ شهراً : الأول محرم والأخير ذو الحجة ، فرمضان هو الشهر التاسع . الشهر الاسلامي يحدد بظهور القمر ، وذات الشهر يمكن ان يحسب بعدد ايام مختلف حسب السنة ، وفي ذات السنة حسب المكان الجغرافي الذي نوجد فيه ، وما يمكن تصوره ، ينشيء أحياناً بعض الاختلاط على مستوى التواريخ .
٩ - السيرة مرجع سابق جزء ٣ ص ٢٢٠ .
١٠ - ١١ - محمد خاتم الانبياء مرجع سابق ص ٢٠٥ و٢١٩ .
١٢ - ١٣ - سورة النساء آية ١٠٢ .
١٤ - ١٦ - السيرة جزء ٣ ص ٢٣١ و٢٢٥ و٢٢٦ وتاريخ الطبري جزء ٣ ص ٤٦ و٤٤
١٧ - ١٨ - محمد خاتم الانبياء ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .
١٩ - ٢٠ - سورة ٣٣ اية ١٢ .
٢١ - محمد خاتم الانبياء ص ٢٢٥ .
٢٢ - السيرة جزء ٣ ص ٢٤٣ وتاريخ الطبري جزء ٣ ص ٥١ .
٢٣ - محمد خاتم الانبياء ص ٢٢٨ .
٢٤ - السيرة جزء ٣ ص ٢٣٣ وتاريخ الطبري جزء ٣ ص ٤٧

٢٥ ـ تفسير الطبري جزء ٣ ص ٤٠ بالنسبة للآية ، فإنه يقصد الآية ٥٣ سورة ٣٣ الاحزاب . ولم استعمل ترجمة بلاشير ولا ماسون لأن الأثنين يترجمان كلمة أذى بمعنى لا يعبر عن مضمونها .

٢٦ ـ ٢٧ ـ انظر شرح القرآن للنيسابوري ـ تفسير غرائب القرآن ـ مقدمة هامشاً في الطبري .

٢٨ ـ الاصابة ـ جزء ٤ ص ٧٦٨ .

٢٩ ـ النيسابوري ص ٢٧ والاصابة جزء ٤ ص ٧٦٨ ـ مخاوف الرسول ﷺ لم تكن اذن دون أساس .

٣٠ ـ تفسير الطبري جزء ١٢ ص ٤١ .

٣١ ـ الاصابة .

٣٢ ـ تفسير الطبري جزء ١٢ ص ٢٧ .

٣٣ ـ الاصابة جزء ٧ ص ٢٥٨ ، سيرة روضة . اذا كان النبي حرر العبيد ، فماذا يحصل لو ان عنده واحدة ، وهذا ما يمكن التساؤل فيه . على ما يبدو ، ان عملية تحرير العبيد لم تكن عاجلة ولا آلية . انها تطلق سلسلة من الخطوات والمفاوضات كانت تسمح بنوع من التسويات بين مصالح اصحاب العبيد القدامى والجدد وكل من يعنيهم الأمر يمثل هذه الفوضى في حركة الكائنات البشرية .

٣٤ ـ ٣٥ ـ الطبقات جزء ٣ ص ١٧٤ .

٣٦ ـ سورة الاحزاب آية ٦٠ .

٣٧ ـ تفسير الطبري جزء ٣٢ ص ٤٧ .

٣٨ ـ سورة ٣٣ آية ٣٩ .

٣٩ ـ التفسير ج٢ ٢٢ ص٥٠

٤٠ ـ الآية ٢٨ من السورة ٣٣ لها مفهوم اقتصادي والآية ٥١ قاعدة عدم رضى جنسي . فالآية ٢٨ تقول : (يا أيها النبي ﷺ قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحاً جميلاً) والآية ٥١ تقول : (ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك ادنى ان تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما أتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حكيماً) .

٤١ ـ انظر تعليق ابن سعد طبقات جزء ٨ ص ١٩٦ .

٤٢ ـ محمد خاتم الانبياء ص ٣٣٧ .

٤٣ ـ ذات مرجع .

٤٤ ـ ٤٥ ـ تفسير الطبري جزء ٢١ ص ١٥٧ .

٤٦ ـ بشان قضية زيد وزينب انظر القرآن آية ٣٧ من السورة ٣٣ كذلك شرح الطبري لهذه الآية جزء ٢٢ ص ١٦ .

٤٧ ـ ذات المرجع .

٤٨ ـ محمد خاتم الانبياء ص ٢٥٣ .

٤٩ ـ ذات المرجع .

٥٠ ـ تاريخ الطبري جزء ٣ ص ٩٢ .

٥١ ـ ام الولد عبدة يجري التعامل معه رسمياً بعلاقات جنسية ولكن لا يمكن بيعها ، والأولاد المتولدون احرار ويتمتعون بكل الحقوق التي تتمتع بها الذرية الشرعية وبخاصة الحق بالاسم والأرث ، انظر التفصيلات في دائرة المعارف الاسلامية ـ عنوان ام الولد ـ وانظر طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١١٧ .

٥٢ ـ تاريخ الطبري جزء ٣ ص ١٨٠ .

٥٣ ـ الطبقات جزء ٢ ص ١١٩ .

٥٤ ـ حول المظهر القانوني لأم الولد ارجع الكتاب سكينة احمد البري احكام ام الولد في الاسلام . الدار القومية للطباعة مصر ١٩٦٤ .

٥٥ ـ محمد . . . . مرجع سابق ص ٢٣٨ انظر ايضاً الفصول المكرسة لهذا الحدث في سيرة ابن هشام جزء ٣ ص ٣٠٩ وصحيح التجاري جزء ٤ ص ١٧٢ وأخيراً ابي الفرج الاصبهاني ـ كتاب الأغاني جزء ٤ ص ١٥٧ .

٥٦ ـ محمد ص٢٣٩ ـ

٥٧ ـ ذات المرجع والمقصود الآية ٢ ومايليان للسورة وقد جلد النهامون حسب القوانين الالهية الجديدة الموحى بها في الموضوع .

-١٠-

الحجاب نزل على المدينة

إن الاسلام الذي اختبر حربياً وعورض من قبل سكان المدينة من المدنيين ، سيضحي بالنساء الإماء ليحمي الاريستوقراطيين . فعندما بدأت النساء ، مهما كانت رتبهن يتعرضن للأذى في الشوارع ، ويتعرضن للملاحقة من قبل الرجال الذين اخضعوهن للممارسة الوضيعة من التعرض لهن بمعنى « ان يكمن احدهم على طريق امرأة ليحرضها على الزنى » ، ولارتكاب فعل الزنى، فإن مشكلة محمد لم تعد تحرير النساء من سلاسل العنف الجاهلي ، وانما بكل بساطة لضمان الأمن لزوجاته وزوجات الناس الأخرى المسلمات في مدينة ثائرة ومعارضة .

ولحل المشكلة بدأ بالاستعلام عن الأسباب المباشرة للظاهرة ، وذلك بالقيام ببحث حسب ممارسته للاستعلام : ارسال مبعوثين يستعلمون لدن اولئك الذين يفعلون هكذا . وقد اوضح هؤلاء عن سلوكهم : «انهم لا يمارسون التعرض الا مع النساء المعتقد انهن عبدات»[1] لاعبين هكذا على اختلاط هوية النساء اللواتي يدنون منهن . ومن أجل هذا أوحى الله بالآية ٥٩ من السورة ٣٣ ، حيث تنصح

نساء النبي ﷺ كي يدنين عليهن من جلابيبهن كي يعرفن فلا يؤذين « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً » . فلم يكن المقصود اذن عنصرا ثيابياً جديداً ، وانما طريقة جديدة للباس القديم ، للتمييز على المستوى الإشاري (الحركي)[٢] . وحسب لسان العرب فإن الكلمةجلباب (المفرد) مفهوم غامض جداً ، يمكن ان يدل على قطع كثيرة من الثياب في آن واحد ، من القميص البسيط حتى الثوب الأوسع من الخمار ، ودون الرداء تغطى به المرأة رأسها وصدرها ، وقيل هو ثوب واسع ، دون الملحفة تلبسه المرأة وقيل هو الملحفة ، وقيل هو الخمار ، قيل جلباب المرأة ملاؤتها التي تشتمل بها .

واقعة أن النساء العبدات قد خفضن إلى مستوى العاهرات ، اشار إليها القرآن كمرآة للحياة ، للحياة الاجتماعية وممارسات جاهلية . فالآية ٣٣ من السورة ٢٤ النور التي تتعرض لمسألة الزنى ، تؤكد على وجود بغاء منظم في المدينة . « . . . ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن اردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد اكراههن غفور رحيم »[٣] . وينصح الله اولئك الذين يتعاطون هذا النوع من التجارة بقوله « . . . والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً . . . »[٤] . ان كتاب الاصابة ، المرجع في سير المسلمين الأوائل يعطينا تفصيلات عن حياة ، أميمة ومسيكة ، اللتين كانتا امتين لعبد الله بن أبي « الذي اكرههن على البغاء ، وهما اللتان جاءتا لتشكوان لرسول الله ، كما يقول ابن حجر . وان الله استجاب لشكوامن وأوحى بالآية التالية : لا تكرهوا فتياتكم على البغاء . . . »[٥] .

إن عبد الله بن أبي هو ذلك المنافق من قبيلة الخزرج الذي عمل اشاعة النميمية ضد عائشة وصفوان ، ذلك الشاب الذي اوصلها إلى المعسكر عند قضية العقد . لقد كان معتاداً على ممارسة العنف والاكراه على عبيده : «فكان عبد الله ابن ابي قد ضرب مسيكة ليجبرها على ان تسلمه نفسها ، في أمل ان تحبل منه ، وان يتملك فيها بعد الولد الذي سوف يتولد من هذه العلاقة» . ويؤكد ابن حجر على واقعة ان «نعم الحياة في هذا العالم» التي كان يسعى لها عبد الله بن أبي عن

طريق مسيكة كانت خارج اللذة الجنسية، الولد الرقيق الذي يمكن ان يولد(٦). وكما ان مسيكة كانت مسلمة، فإن رب المسلمين لا بد ان يتدخل في آيات من لدنه تدين في آن واحد الزنى والعنف الموقع على النساء العبدات المشار إليهن سابقا.. لقد «رفضت مسيكة الاستجابة للعمل الذي اجبرها عبد الله على اكماله». ويعرف لماذا ضرى هذا الرجل ضد محمد ﷺ وكان أحد الرؤساء الأكثر حقداً في المعارضة المدينية.

ان افكار محمد ﷺ حول الترخيص للنساء بذات الحقوق التي للرجال حرمت امثال عبد الله بن ابي من مصادر تمويلية هامة واردة من استرقاق النساء. لم يكن ممكناً للاسلام ان يكوّن قطيعة تجاه اخلاق عهد الشرك الا اذا توصل لتحطيم الامتيازات الاريستوقراطية القبلية واخذ موقف ضد العبودية بالنسبة للجنسين، جاعلاً مفهوم الفرد بصفته مؤمناً ليس مفهوماً منطقياً فحسب بل ضرورياً. أمة المساواة هذه، امة الاسلام، لايمكن ان تبرز بدون ادانة الرق، وأكثر من هذا أيضاً عبودية النساء حيث كان الاستغلال بارزاً.

غير ان هنالك سبباً آخر اكثر ذرائعية أوصل الاسلام ليغير حالة المرأة العبدة. كانت العائلة الاسلامية تشكل تجديداً في المقياس الذي كان يفرض تضيقات على الحرية الجنسية الكبرى التي كانت توجد سابقاً. ومن الصعب علينا جداً ان نفهمه في حين ان العائلة الاسلامية، تظهر فيه، في أيامنا، خلية مقهورة بالنسبة للرجل بصورة خاصة، بكونه متعدد الزوجات، والزوج الحائز لذلك الحق العجيب في أن يطلق زوجته على الفور، بتلفظه بكل بساطة بهذه الكلمات «انني اطلقك»، وليس على القاضي سوى ان يسجل رغبة الرجل. لكن الرجل الجاهلي كان عنده جنسية ضاغطة جداً بحيث ان القاعدتين الاسلاميتين، قاعدة العدة والابوة، وهي الحاق الولد بأبيه المولد، كانتا تظهران بأنهما تشكلان تضييقات ضخمة جداً. ومهما كانت معرفتنا عن العصر الجاهلي بعيدة عن ان تكون مرضية، فإنه يمكن ان نقدم ان كل امرأة ليست عمليا ارستوقراطية ولا يوجد لها عشيرة تستطيع اعادة شرائها مقابل غرامة في حالة الحرب، وحمايتها في الحياة اليومية، من زوج يحرك سيفه برشاقة، هي امرأة في خطر دائم. خطر

الأسر ، خطر التعرض ، خطر الوقوع في الرق من قبل من يستولي عليها .

ان الاسلام لم يتمكن من إقامة العائلة المسلمة البطركية ، حيث القاعدة الدنيا هي ان يعرف من هو أب الولد دون ان يهتم بمصير النساء العبدات ، انني أؤكد على ما ذكرت لأنني أقدر ان واقعة العودة إلى الحجاب كطريقة لرقابة الجنس وحماية لبعض أصناف النساء من اضرار الغير ، يعبر عن هذه العقلية ويسمح لها بالاستمرار والبقاء .

إذا كان الحجاب جواباً على اعتداء جنسي ، على التعرض ، فإنه في الوقت نفسه مرآته ، انه يركز ويعكس هذا الاعتداء بالاعتراف ان الجسد النسوي هو عورة، جسد عطوب بدون دفاع. حجاب النساء، كما عرفته المدينة في تمام حربها الأهلية ،هو في الواقع اعتراف بالشارع كمكان سمح فيه بالتزاني. ان كلمة تعرُض تتضمن فكرة العنف، والضغط، والاكراه : «فالإماء كما يقول ابن سعد ، كن في المدينة يُغرين من قبل السفهاء الذين يتقربون منهن على الطريق العام ويعتدون عليهن. وفي هذه الفترة ، كانت المرأة الحرة التي تخرج في الشارع ولايميزها شيء من ثيابها عن العبدة، مختلطة مع هذه وكانت تتحمل المعاملة ذاتها»(٧). ان ابن سعد هو أحد المؤرخين النوادر من القرون الأولى الذين نجد عندهم بعض البعد تجاه المادة التي يعالجها ومحاولة التركيب المنطقي . انه يميز خارج الحادثة التي أوحت بالحجاب ، وهي عرس زينب ، أسباباً عميقة جعلت المشرع ، الله بذاته ، يلجا إلى مثل هذا الحل .

لا يمكن فهم قرار الرجوع إلى الحجاب اذا لم نتحقق مما كان يمثله الزنى ، هذه الممارسة الجنسية « الغير مشروعة » التي كافح الاسلام ضدها ، واذن اذا لم نرجع لزمن الجاهلية وقوانينها . ان البخاري يعدد أربعة أنواع من الزيجات في الجاهلية . « أول هذه الزيجات الزواج الذي يحصل كالزواج الحالي : يوجه الرجل طلب الزواج الى وصي المرأة أو والدها ، ويعين لها مهراً ويعقد بعدئذ الزواج . والثاني نوع من الزواج كان يجري كما يلي : كان الرجل يقول لامرأته : عندما تتطهرين من طمثك ، ارسلي لمن تريدين ان تطلبي إليه ان يعاشرك » وكان الرجل عندئذ ينعزل عن امراته ولا يمسها طالما لم تظهر عليها علامات الحمل

المتأتية من المعاشرة مع هذا الرجل (. . . . .) . وثالث أنواع الزواج كان يطبق هكذا : جماعة من الأفراد عشرة على الأكثر ، يكون لكل واحد منهم علاقات مع ذات المرأة . وعند تصبح هذه المرأة حاملاً ، وتكون قد وضعت وامضت عدة أيام بعد نفاسها ، كانت تطلب هؤلاء الافراد ولا يستطيع احد منهم الامتناع عن المجيء ، ثم عندما يجتمعون كلهم لديها تبادرهم بالخطاب الآتي : « تعرفون ما حصل في علاقتكم معي ، لقد أتاني ولد. هذا الولد هو ابنك(مشيرة لأحدهم)، اعطه الاسم الذي تريد (. . .) . والنوع الرابع من الزواج كان يطبق هكذا : عدد كبير من الافراد لهم علاقات مع امرأة واحدة التي لم تكن ترفض أي واحد ممن يحضر . وكانت هذه البغايا يغرسن امام بابهن علماً يستخدم كعلامة لهن . فأي كان يرغب في ذلك ماعليه الا ان يدخل . وعندما تصبح احدى هؤلاء النسوة حاملاً وتضع حملها يتجمع لديها كل زبائنها . ويستقرئون الملامح التي كانت تلحق الولد بمن كانوا يحكمون أنه والده . . . »[٨] . ويستعمل البخاري كلمة الزواج بدون ان يعرف ما اذا كان يقابله بكلمة القران ، فهو لا يعطي أي ايضاح حول الأهمية الاجتماعية لهذه الزيجات ، وحول الأصل الاجتماعي لمن يعنيهم . والنوعان الأخيران من الزواج يعودان بالتأكيد للتزاني . فهل تعتبر علاقة عبد الله بن أبي مع مسيكة (كزواج) مثلاً ؟ .

إن كل أنواع المسائل مازالت بدون جواب ، ويتوجب على الدراسة المستقبلية ان توضحها لكي يعود الاسلام لما كان يستوحي ان يكونه في بدايته : تجربة تود ان تكون علمية ، أي متجذرة في واقع يلعب فيه العلم دوراً هاماً .

صحيح ان البحث العلمي سوف يثير مشكلات كثيرة بالنسبة للاسلام الرسمي ، لأن بعض رؤساء الدول الاسلامية فضلوا اخضاع الزنى إلى الضريبة بدلاً من تحريمه ومحاربته ، لدهشة وذهول الفقهاء . وتلك كانت الحال لأسرة الفاطميين الملكية مثلاً[٩] .

ان الاسلام بصفته نظاماً متماسكاً من القيم التي تحكم مجمل تصرفات شخص او مجتمع ، وكل مشروع محمد ﷺ بالمساواة كان يرتكز في الواقع على تفصيل كان الكثيرون من صحابته وعلى رأسهم عمر يعتبرونه كثانوي : فبروز

ارادة المرأة كالحاح أو ادعاء يجب على تنظيم المجتمع أن يأخذه في الحسبان. بالنسبة لعمر كان الحل بسيطاً : «لقد رغب عمر بمحبة شديدة ان يؤسس الحجاب بالنسبة للنساء. وقد ردد للنبي ﷺ : يارسول الله ، انك تستقبل أيا كان في منزلك ، الرجال الاخلاقيين مثل الفاسقين . فلماذا لا تأمر بالحجاب لامهات المؤمنين ؟ »(١١) . واستمر النبي برغم كل الهجمات، على عدم الموافقة على الحجاب ، غير شاعر بذات المشكلة التي يراها عمر. .

لقد كان عمر شجاعاً ، عادلاً ، شريفاً ، تقياً ، الا انه لم يشاطر محمداً الاعتقاد في فضائل كالرقة وعدم العنف كممارسة ونظرية، العناصر الاساسية لرسالة جديدة ، ولدين جديد . فكممارسة ، كان المقصود كياسة ولطفاً في الحياة اليومية، وتأدباً. وكنظرية، كان المقصود بروز الفرد بصفته مقراً لارادة مقدسة تجعل العنف غير مشروع ويفيض عن الرقابة . كان محمد يؤكد على التهذيب . وكان بذاته حيياً ، وتقرر عدة آيات هذا المظهر من طباعه ، الذي سوف يجبره من جهة أخرى، أمام فقدان لطف الرجال ممن يحيطون به ، على تبني الحجاب . امتلاك محل اقامة مفتوح على العالم، كما كان يقدر، لا يعني بشكل الزامي الاجتياح . كان الحجاب يمثل تماماً عكس ما أراد أن يضعه في مكانه ، لقد كان بكل وضوح التجسيد لفقدان الرقابة الداخلية ، حجاب الارادة ذات السيادة ، مصدر التمييز والنظام في المجتمع. لم يكن عمر ليستطيع ان يفهمه، وهو الذي لم يفكر ابدا حول مبدأ الفرد الذي يؤكد عليه الدين الجديد. لقد وجد ان الطريقة الوحيدة لاستقرار النظام، كانت بوضع حواجز وتخبئة النساء، موضوعات الاشتهاء . ولسوء حظ فكرة المساواة في الاسلام، حصل النزاع والجدل الذي اثارته في نهاية حياة النبي ﷺ ، في الحين الذي كان قد أصبح فيه مسناً ، مجرباً حربياً ، ومُعارضَاً في مدينة أراد ان يحقق فيها كل تطلعاته .

إن عمر ، الذي كان وضع الحاجز الذي يشكل لديه الحل الوحيد لاحتواء العنف ، كان لديه ردة فعل العشيرة التي كانت تشكل عمود الاخلاق في جزيرة العرب الجاهلية . ولم يستطع ، رغم حبه للنبي ﷺ وربه الذي سوف يخدمه باستقامة تثير إعجاب الجميع ، أن يتخيل حلم النبي ﷺ . مقاوم ،

محارب كأكثر رجال العمل ، لم يحاول التفكير طويلاً بالأثر الحاسم لكل إشارة ولا بالانعكاسات التي يمكن ان يثيرها هذا لدى الاعداء. ويصادف العديد من الامثلة ، حيث كان النبي ﷺ يشاور فيها المحيطين به قبل اتخاذ قرار، وكان عمر أول من يتكلم ويعطي رأياً مبتسراً وخطيراً من وجهة نظر استراتيجية وكان النبي ﷺ يكتفي بالالتفات إلى الصحابة الآخرين ليطلب إليهم الاستمرار بالتفكير ، ولتصور مجمل وجهات النظر. وهكذا، اثناء معركة حنين ، نصح عمر بقتل الأسرى ، في حين كان النبي ﷺ ، الذي ينظر بعيداً، قد فكر باستعمالهم كسلاح للاقناع لاجبار العدو على اعتناق الاسلام وتبنيه كدين .

لقد استبعد محمد ﷺ فكرة الرقابة ، الرقابة البوليسية ، وذلك هو ما يفسر غياب رجال الدين CLERGE وتشجيع كل مسلم بأن يتدبر لوحده فهم النص . إن المسؤولية الفردية تتدخل كي توازن ثقل الرقابة الاريستوقراطية ، وجعلها غير مفيدة في النهاية ، في أمة من المؤمنين يخضع قيادها لقواعد . واضحة ، ومستبطنة . ان الاعتراف للمرأة بارادة لا يجوز التصرف بها كان يدخل اذن في هذه الاستراتيجية من وجوب تحمل المسؤولية الشاملة . لقد كان عبد الله بن أبي يعرف تماما انه لن يستطيع الاستمرار في اجبار عبداته فيما لو ستمرت عائشة وام سلمة على المطالبة بتحرير النساء وتجوالهن بذاتهن بكل حرية في الشارع كرمزين للحرية والاستقلال الذاتي واللتان كانتا تطلبان من أجل الجميع . لقد كان عبد الله بن أبي يرى بحق : ان ارادة المرأة اذا فرضت نفسها ، لن تصبح موضوعاً جنسيا خاصاً ، يختطف ، ويبادل عليه ويباع ويشرى . ولمنعها كان يتوجب مضايقة نساء النبي ﷺ وأظهار أنهن لن يستطعن الافلات من المصير النسوي العريق في القدم ، مصير الكائن المجرد من التمييز ، والارادة والشيء الذي تمارس عليه ارادة الغير .

إن فلسفة الحجاب التي نادى بها عمر واضحة : عندما أكره المنافقون الذين كان يعتدون على النساء عن تبرير سلوكهم اعطوا التبرير « بأن جهلوا أنهن عبدات » و« الله أمر النساء بتغيير زيهن (ثيابهن) ليتميزن عن الإماء وذلك بأن يسدلن عليهن جلابيبهن »[11] .

لقد توجب ايجاد وسيلة للفصل بين الاماء ، الوحيدات اللواتي كن في وضعية يمارسن فيها البغاء ، وبين النساء الحرات ، زوجات علية القوم والرجال الأقوياء اللواتي كان مثل هذا العمل محرماً عليهن . فالنساء الحرات « يجب ان يُعرفن كي لا يؤذين . ومن الأفضل بالنسبة لهن ان يُعرفن (. . .) . فلتغطِّ المرأة وجهها ولا تدع يظهر منه سوى عين واحدة »[12] . وسرعان ما تنزل آية من السماء ، وسوف تحجب النساء الحرات : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً »[13] .

في الصراع بين حلم محمد ﷺ بمجتمع يمكن فيه للنساء التحرك بحرية في المدينة ، لأن الرقابة الاجتماعية سوف تكون الايمان الاسلامي الذي ينظم الرغبات ، وبين اخلاق المنافقين الذين لم يتصوروا المرأة الا كموضوع للعنف والشهوة ، كانت هذه الأخيرة التي رجحت فالحجاب هو انتصار للمنافقين : ولسوف تستمر الإماء لتكون موضع اعتداء ، وموضوع اغتصاب في الشوارع . وسيكون السكان من النساء المسلمات منذئذ مقسمين إلى صنفين بواسطة حجاب : النساء الحرات ، التي حرم اغتصابهن ، والنساء الإماء ، اللواتي ابيح التعرض لهن . في منطق الحجاب ، حل قانون الاغتصاب القبلي محل عقل المؤمن الذي أكد عليه رب المسلمين كأمر لا بد منه كي يميز بين الخير والشر .

إن الاسلام يتأكد كدين للآيات ، التي يمكن ان تعني (اشارات) أو علامات signe في المعنى العلمي للدلالة اللغوية للعبارة . فالقرآن هو مجموع اشارات يجب فك رموزها بالعقل ، العقل الذي يرتب مسؤولية الفرد ، وعمليا سيادته . ولكي يمكن للاله ان يوجد كسلطة قوة ، وقانون ورقابة اجتماعية ، يجب على السلطة التي كانت فيما سبق تضمن هذه الوظائف ، أي السلطة القبلية ، أن تزول . لقد اعاد الحجاب ادخال الفكرة بأن الشارع كان تحت مراقبة السفيه ، الذي لا يراقب رغباته والذي هو بحاجة لرئيس قبلي ليكون محايداً .

لم يكن لدى النبي في ظروف أزمة المدينة الحربية في السنوات ٥ ، ٦ و٧ ، الكثير من الخيار لكي يواجه انعدام الأمن في المدينة : فإما أن يتحمل ، ويقبل ،

ويعيش هذا الخطر ، منتظراً ترسخ مصدر السلطة الجديدة ، الله ودينه ، في الأذهان ، وإما أن يعاود تنشيط القبيلة كنظام بوليس للمدينة[١٤] . ففي الخيار الأول ، يجب العيش بخطر ، بانتظار ان يظهر الله قوته بالانتصار العسكري . وفي الثاني ، تضمن القبيلة الأمان مباشرة ، ولكن الله وجماعته يختفيان للأبد ، على الأقل في منظورهما الأصلي . إن رسالة محمد ، وحلمه في جماعة يكون الفرد فيها محترماً ، وله حقوق ، ليس لانتمائه إلى قبيلة ، وانما لأنه بكل بساطة قادر على الاعتقاد بأن له صلة مع الله ، كانت تتعلق بالدور الذي كانت القبيلة مدعوة لتلعبه اثناء هذا المظهر الانتقالي . لقد كانت السلطة القبلية هي الخطر ، وان التساهل معها تحت أي شكل ، وكوسيلة للرقابة ، كان يشكل مصالحة فادحة جداً تجاه المثل الأعلى الاسلامي لكائن عاقل ، مدرك ، يستطيع مراقبة نفسه ذاتياً .

إن حل عمر ، الحل بالحجاب ـ الستار الذي يخفي النساء بدلاً من تغيير العقول وجبر « الذين في قلوبهم مرض » ليتصرفوا بشكل مختلف ، سوف يستمر بعد الاسلام ، كحضارة ، وانعكاس على الفرد ، وعلى دوره في المجتمع . انعكاس جعل من دار الاسلام في بداياته ، تجربة رائدة في مادة الحرية الفردية والديمقراطية ، ولكن الحجاب سقط على المدينة وبتر ذكرى انطلاقة الحرية هذه . وبعد خمسة عشر قرناً ، فإن العنف الاستعماري هو الذي سيجبر وبشكل متناقض الدول الاسلامية لاعادة فتح سجل حقوق الفرد والمرأة . كل نقاش حول الديموقراطية يمر بها ، بهذه القطعة الصغيرة المضحكة من النسيج ، التي غالباً ما تكون من الموسلين الناعم ، التي يطالب بها التهاميون في أيامنا كما لو انها جوهر الهوية الاسلامية ذاتها .

مراجع وهوامش الفصل -١٠-

١ - ابن سعد جزء ٨ ص ١٧٦ . بالنسبة لهذا الفصل ، سوف أشير للمراجع الدقيقة بالنسبة لابن سعد ولكن ذات المراجع توجد مع بعض الخلاف لدى الطبري والبخاري وغيرهم عندما يتكلمون عن مسألة الحجاب والآيات المتعلقة بها . واشير ان ابن سعد لسبب بسيط : يرضيني اكثر ، فأحب لغته الذكية ، وطريقته في الكتابة ورقته وحساسيته ، وحسه المدهش بالتفاصيل . وخارج الانسان العلم ، يوجد حضورة رجل لم يحتقر نسويته ، وهذا ما لا استطيع قوله بالنسبة لغيره . ولكن وبهدف الحصول على الوعي الهاديء سوف اعطي مرة واحدة المراجع حول الحجاب في المصادر الأخرى التقليدية المستعملة من اجل هذا العمل : الطبري ، تفسير ، جزء ٢٢ ص ٤٥ .

٢ - الطبقات جزء ٨ ص ١٧٦ .

٣ - الآية ٣٣ من السورة ٢٣ وهي مدنية

٤ - ذات المرجع .

٥ - ابن حجر الاصابة من تمييز الصحابة جزء ٨ ص ١١٩ بالنسبة الى سيرة مصابية واسمها الحصص مودة .

٦ - الاصابة جزء ٨ ص ١٢١ - ١٢١ .

٧ - الطبقات جزء ٨ - ص ١٧٦ .

٨ - صحيح البخاري جزء ٣ ص ٢٤٨ . سبق ان حاولت تفسير هذا النص فيها (وراء الحجاب) رسالة حول الجنسية والرقابة الاجتماعية في السنوات العشرة الأولى للاسلام . ولقد نشر هذا الكتاب بعنوان . جنس ، ايديولوجيا ، اسلام - الطبعة ٣ باريز ١٩٨٣ - ولكنني لم اضع في تلك الفترة السؤال الاساسي المتعلق بهذا النص . ما هو الأصل الاجتماعي للنساء اللواتي مارسن هذه الانواع من الزواج ؟ سوف يتوجب كشف السير الذاتية منهجياً للمسلمين الأوائل الذين بحوزتنا لمنهج ادباً مفروضاً لم يحلل حتى الآن الا فيما ندر وبشكل جزئي .

٩ ـ انظر آدم ميتز في فصله (الاخلاق والعادات) المكرس للعادات الجنسية والقرن ٤ هجرية وبخاصة تطور الممارسات مثل الخصيان ومؤسسة البغاء واللواط (الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري) .

١٠ ـ تفسير النيسابوري في ذيل تفسير الطبري جزء ٢٢ ص ٩٠ .

١١ ـ ١٢ ـ الطبقات .

١٣ ـ القرآن آية ٥٩ سورة ٣٣ .

١٤ ـ انظر غولدبهر (القبائل العربية والاسلام) دراسات اسلامية ١٩٦٦ ص ٤١

الخلاصة

إن الذهاب في سفر الى المدينة ، وتركها في ابان الحرب الأهلية ، لا يمكن ان يكون الطريقة المثلى لاقفال الحج إلى المصادر . كان يمكن الانتظار للسنة الثامنة ٨ (٦٣٠)م ولدخول محمد ﷺ الظافر إلى الكعبة بعد الاستيلاء على مكة . كان يمكن الاحتفال معه بنجاح انسان كان يعرف جيداً أنه لا يمكن للمرء ان يكون نبياً إلا بين أهله . كان يمكن الحضور في الفترة التي حطم فيهاالأصنام ، رموز الجزيرة العربية الوثنية : « لقد دخل النبي ﷺ إلى .مكة. ، ممتطياً جملاً ومغطياً رأسه بعمامة سوداء . وكان علي قد سبقه ، حاملاً رايته ومحاطاً بالمهاجرين والانصار . وعندما وصل الى باب المدينة(مكة)، اصدر الأمر بنصب خيمة من الجلد من الطائف على المكان العالي حيث كان الزبير غرس رايته(. .). كان ذلك بين ٢٠ من شهر رمضان الذي جعل منه النبي دخوله الرسمي إلى المعبد . ونزل عن جمله امام الباب ، ودخل إلى لفناء واجرى الطواف الطقوسي حول الكعبة .اثناء ذلك الوقت ، علم السكان بأنه لن يكون هنالك مذبحة ، فتركوا منازلهم وحملوا أنفسهم جميعاً للمعبد . وبعد أن اكمل طوافه ، أمر النبي ﷺ بفتح بابه المعبد ونزع كل الأصنام التي عمل على تحطيمها (. . .) . ثم خرج ، متخفاً عند

الباب ونظر إلى الفناء الذي كان مكتظاً بالناس من سكان مكة . ومسك حلقة الباب ، وتوجه نحو الجمهور وتكلم وهو واقف على عتبة الباب « الحمد لله الذي نصر عبده وحقق وعده ، لقد كان وعدني باعادتي لمكة ، وأهلك اعدائي »[1].

وكان يمكن انتظار اليوم التالي ، عندما استقبل على تلة الصفا ، المكيين من الذكور ، الذين جاؤوا وخلف رؤسائهم ، يعلنون الاقرار بالايمان ، ويقدمون يمين البيعة .

وكان يمكن انتظار اليوم الرابع من فتح مكة ، وحضور مبايعة النساء ، التي بدأت بعارض ، كم هو رمزي ! هؤلاء النسوة تحت قيادة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان (الرئيس السابق لمكة والقائد لمعاركها » ، وهن يرفضن تقديم البيعة لعمر كما كان يتوقع النبي ﷺ . فقد تجاوزته هند على طريقها . وتقدمت نحو محمد ﷺ : «انا نريد أن نبايعك انت ومعك نريد ان نبرم ميثاقنا . . » وعندما وصل محمد ﷺ إلى الجزء من القسم المخصص للنساء ، لم تتمكن هند من التماسك ، رغم احتفالية المناسبة . « تفرض علينا التزامات ، لم تفرضها على الرجال ، ولكننا نقبلها ، لن نكون أبداً غير وفيات »[2] . لقد طلب النبي ﷺ إلى النساء ان يقسمن بأن « لا يقتلن أطفالهن » ووجدت هند انه قد افرط ، وهو ، الرئيس الحربي أصلاً للمعارك التي سالت فيها الدماء ، بطلب مثل هذا الشيء من النساء اللواتي يعطين الحياة : « لقد ولدنا للحياة أولادنا ، وربيناهم ؛ ولكنك انت الذي قتلتهم في يوم بدر » . فلماذا ادخل مثل هذا الشرط في بيعة النساء ؟ ان المصادر غير متفقة هنا .

فهل فعل ذلك كإشارة إلى الاجهاض أو قتل الاطفال من البنات ؟ كثير من المؤلفين المسلمين يبالغون في أهمية قتل الأطفال التي يربطونها من جهة أخرى بالشرف . وقتل الاطفال سيكون بقية أثر للاضاحي البشرية المرتبطة بطقوس وثنية ، وكان نادراً جداً حسب رأي غيرهم[3] .

إن موقف هند يبرهن على أن نساء اريستوقراطية قريش لم يكنّ معتبرات بصفتهن كمجموعة اجتماعية ليأتين، كالرجال ، للمبايعة والمشاركة هكذا بالمفاوضات مع الرئيس العسكري الجديد فحسب، بل كان بامكانهن

أيضاً اتخاذ موقف انتقادي بكل حرية تجاه الاسلام . انهن لن يقبلن الدين الجديد دون ان يعرفن بدقة بماذا سوف يعدل في وضعهن . هذه الذهنية الانتقادية للمرأة تجاه الزعيم السياسي سوف تبقى حية خلال العشر السنوات الأولى من الاسلام . وهي لن تزول الا مع بزوغ الاستبدادية ، مع معاوية والتمليك الرسمي « العائلي » للسلطة ، أي زوال ذهنية الاريستوقراطية القبلية من جهة ، مع تكوين الدولة الاسلامية ، ومن جهة أخرى غياب الاسلام كتجربة نبوية حيث المساواة مهما كانت فرضية ، كانت تفتح الباب الى الحلم بممارسة ديموقراطية .

لقد كان يمكن التسكع في المدينة حتى عودة محمد ﷺ بعد فتح مكة والمشاركة بالاعياد الاحتفالية للانتصارات . ان النجاح العسكري « يساعد » على الأمان الذي عاد إلى الشوارع ، و« الناس الذين كان في قلوبهم مرض » والسفهاء ، حافظوا على انطواء ذكي ومتحفظ .

مهلاً ، لم نختر بعد نهاية السفر فعلاً ، خاصة الاسفار التي تحول أهميتها الحياة. فبالنسبة للنساء ، لن يعود الأمان لهن في المدينة أبداً. وللسفر في الزمن قوانينه ، كالاحلام ، ومدينة النساء سوف تعلق إلى الأبد فتمل هؤلاء منذئذ ان يتنزهن في المدن بدون شفقة ، وبدون أمان ، إلى المكامن ، مرتبكات في جلابيبهن . ان الحجاب ، الذي خصص لحمايتهن من شارع عنيف . سوف يرافقهن خلال عصور ، مهما كان وضع المدينة العسكري . فالسلام بالنسبة لهن لن يعود ابداً . ان النساء المسلمات سوف يظهرن حجابهن في كل مكان ، كبقية أثر لحرب أهلية ، لن تنتهي ابداً .

مع ذلك ، سيحاول بعضهن المقاومة ، سوف يرفضن الحجاب سوف يطالبن بحق الخروج سافرات (برزه) هذا المصطلح الذي سوف يضاف منذئذ لقاموس لسان العرب : « امرأة برزة : بارزة المحاسن ، والبرزة من النساء التي ليست بالمتزايلة التي تزايلك بوجهها تستره عنك وتنكب إلى الأرض ، يضيف هذا القاموس : امرأة برزة متجالة تبرز للقوم يجلسون اليها ويتحدثون عنها . والبرزة من النساء الجليلة التي تظهر للناس ويجلس إليها القوم وامرأة برزة عنيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم ورجل برز وامرأة برزة يوصفان بالجهارة والعقل » .

من هن هؤلاء النساء المسلمات اللواتي قاومن الحجاب ؟ . ان اشهرهن سكينة إحدى حفيدات النبي ﷺ من ابنته فاطمة ، زوجة علي ، علي الشهير ، الخليفة الراشدي الرابع البائس الذي ترك الخلافة لمعاوية وكان قد جرى اغتياله من قبل أول ارهابي سياسي مسلم . مصير ابنائه سوف يكون مأساوياً كمصيره ، ولسوف تشهد سكينة من جهة أخرى مذبحة والدها في كربلاء ، وهذه المأساة تفسر جزئياً تمردها ضد الاسلام السياسي . العاتي والمستبد ، وضد كل من ينتهك حرية الفرد بما في ذلك الحجاب .

ولدت سكينة في سنة ٤٩ هجرية (٦٧١ م تقريباً) ، لقد اشتهرت بجمالها ، وما كان يسميه العرب جمالها ، خليط متفجر من اللطف الطبيعي والعقل الانتقادي والفصاحة اللاذعة . لقد تخاصم حولها الرجال الأكثر قوة ، خلفاء وامراء طلبوا الزواج منها ولكنها احتقرتهم لاسباب سياسية . مع ذلك سوف تنتهي إلى الزواج خمس مرات . . . وبعضهم يقول ستة . لقد عارضت بعضهم ، واظهرت حبها الملتهب العاشق للبعض الآخر ، وقاضت احدهم امام المحكمة لعدم امانته ولم تقبل مطلقاً الطاعة لأحد . في عقود زواجها ، كانت تشترط انها لن تطيع الزوج، ولاتفعل إلا مايوحي به عقلها، وان لا تعترف لزوجها بحق تعدد الزوجات، كل ذلك بسبب من مصلحتها بالنسبة للقضايا السياسية والشعر . لقد استمرت على استقبال الشعراء في منزلها وحضور مجالسهم ، رغم تعدد زيجاتها ، في مجالس قريش ، المشابهة لمجلس بلدي غير مركزي ويدار ديموقراطياً في ايامنا[٤] . ان شخصيتها التي فتنت المؤرخين الذين كرسوا لها صفحات وصفحات ، واحياناً سيرة كاملة ، رطبت واقع التاريخ القاسي : مذبحة والدها الحسين بن علي ، في كربلاء ، أحد كبار الثائرين في التاريخ الاسلامي ، الحسين ، ذلك الرجل المسالم الذي أعلم معاوية بعقد خطي قراره بالتنازل عن الخلافة ، شرط أن يتركه يعيش بأمان مع عائلته . شاعر ، أشاد بالنساء اللواتي احبهن : رباب ، زوجته ، وسكينة ابنته . بعد موت معاوية ، رفض مبايعة ابنه ، فذبح في كربلاء وسط أهله ، وكانت سكينة ترافقه[٥] . انه يوم عاشوراء ، ١٠تشرين ٦٨٠ . وسوف تحافظ سكينة طيلة حياتها على احتقارها

الذي لم تكن تتردد في التعبير عنه ضد العائلة الأموية المالكة وطرقها الدموية . وسوف تهاجمها في الجوامع ، وسوف تشتم حكامها وممثليها في كل مرة تقتضيها المناسبة ، وكانت تعمل على اعداد مثل هذه المناسبات[6]

لقد عملت على توقيع عقد زواج مع أحد ازواجها تؤكد فيه على حقها بالنشوز ، هذا التمرد ضد السلطة الزواجية التي عذبت كثيراً ضمير الفقهاء . لقد طالبت بالحق لها بالنشوز ، وكانت بزينتها وبكياستها وعبقريتها تؤكد على أهمية حيوية المرأة في التقليد العربي . ان المؤرخين العرب المعجبون والمقدرون لها يسرهم عرض مشاهد معاملتها ، والدعوى التي رفعتها ضد أحد أزواجها الذي انتهك شرعة الزواج الاحادي الذي كانت فرضته عليه في عقد الزواج . ومع ان القاضي كان مذهولاً بشروط العقد ، فقد كان ملزماً بالحكم ، مع ان زوجته الخاصة جاءت لتحضر محاكمة العصر وان الخليفة ارسل مبعوثاً لينقل إليه مسيرة الدعوى[7] .

كم كانت دهشتي عندما جرى اتهامي بالكذب اثناء مؤتمر عقد في بنيانغ Penung في ماليزيا ، في سنة ١٩٨٤ ، حيث قدمت سكينة كنموذج للمرأة المسلمة التقليدية لتأملها . وكان الذي اتهمني ، باكستاني ، مدير مجلة اسلامية في لندن ، وقد قاطعني وأنا اتكلم وأخذ يهمهم أمام الحضور : « سكينة ماتت بسن ٦ سنوات » وهو يحاول اختطاف الميكروفون مني . اخذ يردد حنقاً وغاضباً : « لقد ماتت في كربلاء مع والدها لقد ماتت في كربلاء » . ثم أخذ لنفسه دور القاضي المطمئن ، وتحداني بأن اسمي له المصادر التي استقيت منها أقوالي عن تاريخ سكينة . وقدمت له على الفور قائمة ، باللغة العربية بداهة . فنظر إليها بازدراء وقال لي إن هذا تافه جداً . لقد كان يوجد بين هذه المصادر ابن قتيبة ، وابن عبد ربه ، وابن عساكر ، الزمخشري ، ابن سعد ، العماد الاصفهاني ، الذهبي ، الصفدي ، البخاري . وباختصار ، الاسماء الكبرى في التاريخ الاسلامي . وقد علمت فيما بعد ان هذا الصحفي الهام الذي تدعي مجلته انها تساهم في معارف ممتازة عن العالم العربي انه لا يقرأ ولا يتكلم العربية . ان سكينة ماتت في المدينة ، في سن ٦٨ (السنة ١١٧ هجرية) . ومصادر أخرى اعتبرت انها ماتت في الـ ٧٧

سنة من عمرها في الكوفة . وهذا هو الارجح . لأنها لم تكن تحب لا العراق ولا العراقيين : «قتلتم جدي (علي) ، وأبي (الحسين) وعمي (الحسن) وزوجي» قالت هذا لهم مشيرة الى ترملها . ان مصعب بن الزبير ، احد أزواجها الذي احبته اكثر من غيره ، قتل من قبل الأموي عبد الملك بن مروان خامس خليفة أموي (٦٨٥ - ٧٠٨)»[٨] .

وعلى كل حال ، فإن هذا العدوان الكلامي الذي تعرضتُ له وهذه المحاولة لطمس ذكرى سكينة من جانب رجل مسلم عصري لم يتعرف على زوجته الا وهي محجبة ، مسحوقة وصامتة ، تبقيان بالنسبة لي حدثاً عارضاً يعبر ، في رمزيته ، عن كل علاقة المسلم مع الزمن . فمن النسيان كذاكرة ، ومن الماضي كتشويه لامكانيات الحاضر . ان جان جنيه الذي طالما فكر حول التذكر ، في كتابه (الأسير العاشق) يعبر تماماً عن هذه القوة الغريبة من التذكر المبهم التي تنساب في الحاضر وتمسخه . «كل ذكرى هي حقيقة . نفحة من رطوبة ترد حياة شاردة إلى اللحظة الماضية نهائياً ، كل ذكرى أقل من نقطة عطر يمكن ان تكون ، تعمل على اعادة احياء اللحظة ، المحددة ليس حسب رطوبتها الحية لهذا العصر ، ولكن غير هذا ، أريد ان أقول ، تعاود الحياة من حياة أخرى (. . .)»[٩] .

قدر عجيب هي تلك الذاكرة الاسلامية التي كثيراً ما يستفهم عنها من أجل مراقبتها ومعاقبتها . ذاكرة غريبة حيث ان الموتى من الجنسين لا يفلتان من محاولات الاغتيال ، اذا خاطروا صلافة برفع الحجاب على الكفاف والمذلة التي تقدم لنا كتقليد .

كيف تم التوصل لمماثلة المرأة المسلمة بهذا المخلوق الخانع ، الهامشي ، الذي يتخفى ولا ينفتح على العالم الا مذعوراً ومنطوياً على نفسه في حجاباته ؟ . لماذا كان للرجل المسلم حاجة ، لكي يجد توازنه ، برفيقة مشوهة ؟ حسب رأي جورجي زيدان ، ان الانزلاق في المتاهات ، فيما يخص المرأة ، حصل في ظل اسرة العباسيين (انظر التقويم الذي نرفقه بهذاالكتاب) . هذه الفترة التي تقدم لنا عادة وكأنها العصر الذهبي (القرن ٨ و ٩) كانت فترة الفتوحات الدولية وفتوحات فيض الجواري من أصل أجنبي ، الواردة من البلدان المغلوبة :

« الرجال كانوا يقدم بعضهم للبعض الآخر الجواري ، الفارسية ، الرومية ، التركية ، إلخ »[1] .

ومع توسع المدن والازدهار الاقتصادي ، « تهمشت المرأة العربية نهائياً ، وفقدت كل حرية وكل إباء (. . .) عندئذ بدأ ازدراء النساء . فحبست وارتجت الأبواب والنوافذ سوطها » . إن الجواري ، بذاتهن ، رجعن للمعرفة ، للتعلم ، للشعر . لكي يعدلن شرطهن وأصبحن يميزن الرجال الأقوياء الذين كانوا يدفعون غالياً جداً ثمن رفقة النساء الجميلات العالمات اللواتي كان بامكانهن تسليتهم واراحتهم . كن يلدن اولاداً من جنس ذكوري ويدفعن بهم للسلطة ، وكن يستعملن المؤامرات للوصول اليها ، وكثير من الخلفاء كانوا ابناء ام ولد ، من اماء ارتقين لمصاف ملكات . فهارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) ، يمثل هذا العصر (الذهبي) الذي خلدته للأبد حكايات ألف ليلة وليلة ، بنسجها في شوارع بغداد حكايات مثيرة حيث كان الرجال والنساء يتحاضنون ويتشاغلون معتمدين على مؤامرات واستبداد سياسي .

ويبقى ان نعلم لماذا ، في أيامنا ، ان صورة المرأة من « العصر الذهبي » (الأمة) هي التي تثير الاهتمام في الأروقة عندما تيأس من الأغواء ، الذي يرمز للنسوية المسلمة الخالدة ، في حين ان ذكرى ام سلمة وعائشة وسكينة لا توقظ أي صدى وتبدو بشكل عجيب متباعدة وغير واقعية .

ويجب بدون شك البحث عن الجواب من جانب الزمن ـ المرآة ، حيث ينظر المسلم لنفسه لكي يفكر بمستقبله . ان صورة امرأته سوف تتغير مع حاجاته الضاغطة لغرس مصيره في ذاكرة ـ حرية . ربما يكون هذا واجب النساء لأن تساعد بذلك ، بربطه بمطاليبهن اليومية ، إلى حاضر خرافي وان الحاضر هو هو دائماً ، لأن كل شيء ممكن . حتى التوقف عن التذكر ، والعيش مقيداً وواثقاً باللحظة القائمة بكل بساطة .

مراجع وهوامش الخلاصة

١ ـ محمد خاتم الانبياء ص ٢٨٣ ـ والمؤلف الرابع في طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١١٧ .
٢ ـ محمد خاتم الانبياء ـ ص ٢٨٦ .
٣ ـ صالح محمد علي (التنظيم الاجتماعي عند البدو ـ مكتبة المتنبي ـ بغداد طبعة ١٩٦٠ ص ١٩٥ ويشمل المؤلف الآيات القرآنية ليبرهن على موضوع الوأد بأنه كان دينياً . وانظر في ذلك الآية ١٣٢ و ١٢٢ من سورة الأنعام وهو يوضح أيضاً انه من المضحك الارشاد لشرط الاساءة والدونية للمرأة (لأن بعض الربات كانت مؤنثة) .
٤ ـ الاغاني للاصبهاني جزء ١٦ ص ١٦٨ .
٥ ـ حول مقتل الحسين انظر الطبري ـ التاريخ جزء ٦ ص ٢١٠ ومروج الذهب للمسعودي جزء ٣ ص ٧٤٩ .
٦ ـ كتاب الاغاني جزء ١٤ ص ١٤٣ .
٧ ـ بالنسبة لسيرة سكينة راجع الاغاني جزء ٣ ص ٣٦٠ ؛ وابن عساكر (مدينة دمشق) جزء المكرس للنساء تحقيق الشهابي .
ـ ابن حسن المالكي « الحدائق الغناء » في اخبار النساء .
ـ ابن صعب البغدادي كتاب المخبر المكتبة التجارية بيروت .
٨ ـ انظر المصادر المذكورة سابقاً .
٩ ـ جان جنيه السجين العاشق ص ٤٠٤ .
١٠ ـ جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي جزء ٥ ص ٧٦ .
١١ ـ ذات المرجع ص ٧٧ .

الفهرس

القسم الثاني
مدينة في ثورة :